فريق
متميزون
E-BOOK

إبراهيم أحمد عيسى

ذئب وحيد

ثلاثية تلال الشمس

رواية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

ذئب وحيد

(ثلاثية تلال الشمس)

رواية..

إبراهيم أحمد عيسى

عن الرواية..

على أرض تلال الشمس عاش أشد الضواري فتكًا.

قتلة مجرمون، يمتطون قطيعًا من الذئاب، ويقودهم رجل يُدعى الذئب.

لا أحد يعلم من أين جاءوا.

أرَّقوا ليالي العامة، وارتعدت منهم عروش السلاطين والحكام.

عدو متوحش، يجوب بحر الرمال، قاطعًا الطريق، وناهبًا القوافل، ومتحديًا مملكة وُلدت لتوِّها من رماد أخرى. وبين الذئب الوحيد والمملكة العائدة كانت هذه الملحمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عن المؤلف..

إبراهيم أحمد عيسى روائي وباحث تاريخ، من مواليد مدينة الإسكندرية عام 1984. حاصل على بكالوريوس نظم معلومات، ودبلومة في صناعة السينما الديجتال. صدرت له ست روايات: طريق الحرير والبشرات وابق حيًا وباري: أنشودة سودان (جائزة كتارا للرواية العربية عام 2018) وحكاية الأشبوني (القائمة الطويلة لجائزة راشد بن حمد للإبداع عام 2019) والحاج ألِمان. كما شارك في كتاب التاريخ كما كان الصادر عن فريق بصمة للأبحاث التاريخية، وله عدة مقالات وأبحاث تاريخية نشرت في مواقع ومدونات إلكترونية. "

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداء

إلى تلك الأحلام التي لم تتحقق يومًا، يكفينا فخرًا أننا حاولنا وسعينا حتى وإن فشلنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1- الحكمدار..

نفثت شمس الظهيرة زفيرها، صهد صيفي خانق أجبر الناس على الإيواء داخل بيوتهم الطينية البسيطة، وجيوش الغزاة تُعمر الخواء، آلاف وربما ملايين ملأت سماء الدنيا بالطنين. لا أثر للريح ولا هواء يرطب الأجواء سوى خفقات أجنحتها الضئيلة، اكتست بها الجدران وأوراق الشجيرات وضفاف البحيرة الراكدة، ولا أثر للبشر بالأرجاء، حتى الكلاب الضالة والقطط راحت تهرب إلى الظلال أسفل العربات، وحمار سيئ الحظ رُبط لجامه بفرع شجرة زيتون عجوز مائلة، راح يهش بذيله مهاجميه من دون جدوى حتى استسلم، فرض الهاموش سيطرته على المكان واحتل سماء وأرض القرية، وحده ذلك المنزل الكبير استعصى عليه، لم يستطِع الدخول إلى محيطه بفعل أعمدة من دخان كثيف تحيط بحديقته، كلما حاول سرب منه التحليق نحو المنزل الأبيض المُنيف اختنق وسقط، لم يعبر أحد جدران الدخان الرمادي ذي الرائحة النفاذة، كان يزداد كثافة بفعل رجال ملثمين ينتشرون في الحديقة، حاملين أجولة من خَيش ينقلونها إلى حيث حفر النار المنتشرة بالمكان، تُفرغ الأجولة من محتواها فتتأجج النيران بطرقعات وشرر، ويزداد الدخان كثافة وعلوًّا. رائحة زهر البردقوش وإن كانت عطرة ولكنها تسبب الاختناق، يسعل رجل بعيد فيسقط الجوال من على كتفه وسط ضحكات ساخرة مكتومة من بقية الرجال، وصوت أجش يصيح بهم:

- ضعوا اللثام على أنوفكم أيها الحمقى وتابعوا عملكم في صمت.

نبرته الصارمة وكلماته القليلة كافية ليستمر الرجال في إيقاد الأخشاب والتصدي لغزو هاموش لا يكل عن الهجوم، وكأن مَن بالقصر هدفٌ وجب الوصول إليه.

على الرغم من كل التدابير عبرت حشرة بمعجزة من بين الغيوم السوداء، كادت أن تختنق وتسقط كرفيقاتها ولكنها صمدت، خفقت أجنحتها بقوة مضاعفة لتمر إلى فضاء الحياة، رؤيتها المشوشة سرعان ما عادت إلى طبيعتها، طارت متمايلة فرحة بالنجاة فوق الحديقة الغناء، أحواض من زهور الخزامى البنفسجية ووردات صفراء وحمراء وأشجار خضرتها زاهية، وبركة مياه راكدة يحيط بها ممشى ممهد بالحجر يقود إلى بيت الحكمدارية، على الرغم من أن الخضرة وعبير الزهور يمثلان بالنسبة إليها جنة لا مثيل لها، فإنها كانت تخشى الهبوط إلى مستوى الرائحة القاتلة، الجدران البيضاء للمنزل الكبير هي بر أمانها ونجاتها من الموت الوشيك، ربما كانت تأمل أن تكون الأجواء في الداخل أفضل من تلك النهاية التي حاقت ببني جنسها، حطت بقوائمها قرب شرفة مغلقة، لحظات ظلت على حالها حين لمحت

ظِل عصفور مر من فوقها، هذا ما كان ينقصها، أن تفر من الموت خنقًا إلى جوف عصفور جائع، مَشت إلى النافذة الموصدة بحذر، ومر بعض الوقت حتى وجدت منفذًا للداخل، شق صغير بالحلق الخشبي، باب لعالم لم ترَه من قبل خلال عمرها القصير جدًّا.

حلَّقت متمايلة في سماء غرفة رطبة شاسعة، وضعت في إحدى زواياها مبخرة تفوح برائحة المسك، ابتعدت عن تلك الزاوية وراحت تطوف حول ثريا نحاسية تتدلى من السقف، لامست بأطرافها الدقيقة شفاه قناديل زجاجية، يتلألأ زيتها مع ضوء الشمس المتسرب والمتلون بفعل زجاج النوافذ المعشق بالألوان، مستمتعة بجولة هادئة حول الأثاث العتيق، تتلمس بقوائمها سطحه الناعم، المكان بارد بفعل الجدران المكسوة بالزليج والأرضية الرخامية، ووسط الغرفة استقر سرير نحاسي كبير له أربعة أعمدة، التفت حولها ناموسية كبيرة كخيمة من غشاء رقيق يَشف، فضولها جعلها تهبط فوق سقف الناموسية لترى ما بداخله.

جسدان عاريان متشابكان، آهات وأنين يهتز معها الفراش برقة ونعومة، لم تدُم الحال طويلًا وانتهى الأمر بخوار ثور يُعقر تبعته ضحكة نصر مجلجلة، مر بعض الوقت قبل أن ينهض أحدهما، جلست على طرف الفراش ويداه تعبثان بخصلات شعرها الطويل المتموج على ظهرها، نهضت غير مبالية بهمساته لتعبر جدران الناموسية، سارت عبر الغرفة ونور الشمس يتحسس مسام جسدها العاجي المشدود، سحبت ثوبًا من حرير أزرق داكن من على طرف كرسي قريب وخرجت. كانت فرصة مثالية للهاموشة أن تحط فوق الفراش وترى عن كثب الجسد الآخر. حلقت في دورة كاملة حول السرير تتلمس غشاء الناموسية الرقيق قبل أن تجد المَدخل، كان مغمض العينين مرتخي الأطراف، جسد مفتول وتقاسيم عضلاته بارزة متناسقة، وعلى صدره نبت مرج من شعر أسود خشن، لحيته الفضية القصيرة المشذبة بدت متناسقة مع شيب فَوْدَيه وشعره الأسود اللامع، كان يغط في النوم أو هكذا ظنت حين قررت الهبوط على صدره المتعرق، ولم تكد تضع قوائمها على جلده حتى صار كل شيء حدث لها مجرد ذكرى ما قبل النهاية.

فُتح باب الغرفة لتجده يلطم صدره بقوة، لم تنبس بكلمة ومضت إلى كرسي زينتها، كانت تمشط شعرها المبلل حين لمحت انعكاس جسده العاري في المرآة، متوجهًا إليها بخطوات هادئة كصوته الرخيم:

- ما زال أمامنا الكثير لنفعله هذا اليوم.

وضع يديه الخشنتين على كتفيها وراح يتحسسهما مزيحًا ثوبها الحريري صعودًا إلى رقبتها مردفًا:

- أتعرفين يا رقية؟ منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها عَلمت أنكِ لي، كنت أحلم بكِ لأيام وشهور، وأمني نفسي بالعودة للبوغاز لرؤيتك والبقاء في منزلكم، أردت أن آخذكِ معي في كل مرة أرحل فيها عن مدينتك، أحببت كل شيء فيك، كنت أسأل نفسي دومًا ما سبب تعلقي بك لهذه الدرجة، أهو شذى عطرك السُّكري الذي صار يسكن صدري، أم قوامك اللين كغصن رطيب في مهب الريح، أسرتني عيناكِ الوحشيتان المكتحلتان بإثمد ليل بهيم. أتدرين أن عنقك المرمري هذا يشعرني أني ملكت الدنيا وما فيها كلما لامسته.

كان يضغط ببعض القوة على رقبتها، تملصت منه ونهضت، فأمسك بطرف ثوبها لينسدل بنعومة على جسدها الرخامي، ابتسم وعيناه ترمقانها بشهوةِ أسدٍ ظفر للتوِّ بفريسته، وحين هَم باللحاق بها أوقفته طرقات بابه. هَرولت وألقت بجسدها على الفراش، اطمأن أنها تدثرت وذهب إلى الباب متأففًا وهو يلف خصره بثوبها الحريري الرقيق، سحب المقبض بقوة ليجد أمينة وقد تيبست على حالها، ظلت يدها معلقة في الهواء وعيناها تجمدتا لبرهة قبل أن تشيح بوجهها خجلة متلعثمة:

- عفوًا سيدي الحكمدار يبدو أني لم أحسن اختيار الوقت.

- ومنذ متى وأنتِ تختارين الوقت المناسب؟! ماذا تريدين؟

- الدويدار رشوان في انتظارك بالأسفل.

- أخبريه أني مشغول الآن.

كاد أن يغلق الباب فأسرعت قائلة:

- ولكنه يصر على مقابلتك. يقول إن لديه خبرًا هامًّا.

صفق شاهين الباب بقوة في وجه الخادمة، وعاد ببصره إلى الفراش حيث تستلقي رقية، تبادل معها النظرات قبل أن يتوجه إلى باب الحمام، كانت كمن أُنقذ من الغرق، أطلقت زفرة طويلة وارتسمت على شفتيها الورديتين بسمة راحة، أغمضت عينيها وراحت تفتح أبواب ذاكرتها؛ حياتها التي تبدلت من فتاة تنعم برعاية والدها شهبندر تجار مدينة البوغاز، الرجل الأكثر ثراء في البر الجنوبي، ولكن لا شيء يبقى على حاله، نُهبت بضائعه المكدسة بالمخازن واحترقت سفنه الراسية في الميناء بفعل شخص مجهول، وسرعان ما تراكمت الديون، في غضون أشهر من الحوادث المتلاحقة تبدلت حال الرجل الثري واضطر لبيع الكثير مما يَملك حتى يستطيع تسديد ما عليه، وجاء شاهين بن عز الدين ذات يوم بوجه مبتسم يعرض على أبيها مساعدته، كيف لا وهو ابن أخ لحكمدار الريف - المقتدر - صاحب كفر البردقوش وسليل عائلة بني شمس، التي حكمت في الماضي بر التلال

لقرون، والأهم من ذلك أنه صديق أبيها، وصار الوسيم المهيب مع عمه الحكمدار منقذًا لوالدها، والذي كان عليه أن يرد الجميل للرجل بدوره، وكانت هي الدين الواجب سداده، ومن بيت يطل على ميناء البوغاز ومن الاستيقاظ مبكرًا على ضجيج النوارس ونسيم البحر، انتقلت إلى كفر البردقوش، حيث البيوت الطينية البسيطة والسكون الدائم إلا من طنين البعوض، محاطة بالوجوه الكادحة الشاحبة من كثرة العمل والخوف، والحر الخانق هو سمة معظم أيام السنة، أجواء اعتادتها رغمًا عنها ولم يكُن لها منفذ على الحياة سوى شرفتها، تستطيع رؤية كامل القرية منها، المنازل الضئيلة متراصة بعشوائية ومن خلفها الحقول الممتدة حتى جدار النخيل. وفي الناحية الشمالية لبيت الحكمدارية - كما يسمونه - كانت تجلس معظم أوقات النهار تتأمل التل المرتفع فوق البحيرة الكبيرة، الأفق الشاسع يصير أضيق مما تتمنى، ورياح الشمال الرطبة تحمل شذرات من رائحة مدينة البوغاز أو هكذا كان يُخيل لها، لا تطيق هذا المكان، وإن كانت تُعامَل فيه كملكة متوجة على عرش الخوف الذي يبثه زوجها شاهين الذي صار الحكمدار بدلًا عن عمه الغارق بعد فترة وجيزة من زواجهما، يُحبها ويغدق عليها بشغفه اللامتناهي، يمنحها كل شيء، ما تريده وما لا تريده، ولكنها تشعر أنها مجرد جسد يتلذذ به، يواظب على مضاجعتها بمختلف الطرق وعليها أن ترضيه وتبتسم مرغمة، أحست في كثير من الأوقات أنها عبدة لديه، لا واجب لها سوى الامتثال له، كانت على يقين من أنها فقدت مشاعرها وإحساسها يوم خسرت جنينها الأول، حَمَّلته كل اللوم، وعلى الرغم من أنه عاقب تلك الجارية التي تسببت في سقوطها عن الدرج، فقد نما بداخلها ذلك الشعور بالنفور منه، تبددت أحلامها في الحصول على طفل يملأ حياتها، ينبت في كنفها، ترعاه وتمنحه حبها، وتقضي عمرها تربيه وتعلمه حتى يصير رجلًا قويًّا يدافع عن المساكين وليس مثل أبيه، ولكن عُمر الأحلام الجميلة قصير، نسيت وتناست وبغضت الفكرة والمكان الذي تعتقد أنه ملعون، الكوابيس تداهمها ولم يَعد بمقدورها الاستمرار في كل هذا. لا تريد من شاهين أولادًا، لا تريد أي شيء سوى الرحيل إن أمكنها ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتفض رشوان واقفًا ما إن رأى سيده ينزل الدرج، يرفل في عباءة سوداء مُطرزٌ صدرها وطرفا كُميها بخيوط فضية، لم يكُن يعتمر عمامته، وشعره الأسود ما زال يقطر ماءً، وجهه الصارم ازداد تجهمًا مع تلك النظرة الحادة التي لا تفارقه، خفض الرجل رأسه قليلًا إلى الأمام حين مر بجواره، انتظر حتى استقر على كرسيه الأبنوسي الكبير ثم تقدم خطوتين إلى حيث جلس سيده:

- أرجو ألا أكون أزعجتك سيدي الحكمدار.

- رشوان، هل ما زال رجالك يوقدون النيران في الخارج؟

- نعم سيدي، العمل جارٍ والدخان يمنع الهاموش من...

- أنت فاشل يا رشوان.

جحظت عينا الرجل الأسمر، تعرق وحاول أن يتمتم بشيء ولكن شاهين قاطعه بصوته الهادئ المخيف:

- لقد مرت إحدى الحشرات ووصلت إلى غرفتي، أرَّقت لحظاتي السعيدة، فاستحقت جزاءها. نعم قتلتها، سحقتها براحة يدي، وهذا ما يحدث لكل من يعكر صفوي ويقف في طريقي أو يتخاذل ويتقاعس عن عمل وكِّلته به.

- سيدي ولكن...

- لا عليك يا رشوان ولكن تذكر أنك أرَّقت مضجعي كتلك الهاموشة البائسة. هات ما عندك وآمل أن يكون ذا جدوى.

- وصلت السيدة إلى الكَفر.

بدا على وجه شاهين الاهتمام واعتدل في جلسته:

- وأين هي؟

- تقف بالخارج بانتظار أوامرك سيدي.

- جاءت في يوم غريب.

- الرجال في الخارج يقولون إن قدومها نذير شؤم على الكَفر، سبق الهاموش بَغلتها إلى بلدتنا.

ضحك شاهين وجلجلت ضحكاته بأرجاء البهو ثم لوح لرشوان قائلًا:

- دعها تدخل، ومُر الرجال بتجهيز بيت الضيافة لأنها ربما ستمكث معنا فترة من الزمن.

انفرج باب البهو وظهرت السيدة على عتبته، تمشي على مهل متكئة على عصا غليظة أطول من قامتها الحدباء، عجوز بيضاء أثبت طول الأمد حضوره بوجهها، وخطوط التجاعيد لم تمحُ أثرًا من جمال غابر، عيناها الواسعتان بلون اللوز أحاط أهدابهما كحل ثقيل منحها طلة مخيفة، واستقر أسفل ثغرها وشم لوردة صغيرة نبتت بوسط ذقنها، ترفل في ثوب أسود بسيط مرصع بالرقع، وعلى رأسها انسدل حجاب من كتان عتيق مهترئ قاتم، من قمة رأسها إلى إخمصَي قدميها، وعلى الرغم من رحابته تدلت خارجه ضفيرتان تمخض فيهما الشيب وصبغة حناء حمراء قانية، وتدلى من أذنيها قرطان ذهبيان كبيران كأنهما شمس ساطعة. تفحصها شاهين بينما تقترب ببطء باتجاه كرسيه، أشار بيده إلى رشوان فخرج وأغلق باب القاعة خلفه في اللحظة التي وقفت هي بوسط البهو، حيث يفترش ضوء النهار

المتسرب من عدة نوافذ المكان، زادها الضياء هيبة ورهبة بينما تحدق في وجهه بعينين جامدتين، مرت لحظات وهي على هذه الحال قبل أن تنطق بصوتٍ ماعزيٍّ النبرة ذي وقع ثقيل:

- ها قد صدقت نبوءتي، وها هو شاهين بن عز الدين الشمسي يجلس على كرسي الحكمدارية، بعد أن اتخذ من كلماتي وما وعدته سخرية.

- هذا هو قدري وما سعيت إليه.

- ربما، ولكنك سعيت بفضل ما تنبأت به لك قبل سنوات، هناك في مدينة البوغاز أذكر كيف كنت حين جئتني، شابًّا يخاف المستقبل وليست لديه الجرأة الكافية لخوض ما يُدبر وما سيترتب على فِعله. ربما أخفيت عني بعض الأمور حينها ولكن الحال الآن صارت جلية، غرق عمك الحكمدار المقتدر وهلك الأكرم البندقداري شهبندر تجار البوغاز وفزت أنت بمن شغف بها قلبك، وما زلت أرى ذلك البريق في عينيك، وما ترنو إليه الآن لم يكُن سوى بذرة استقرت ونبتت بأرض خصبة، وصار عود مُلكك يشتد يومًا بعد يوم ويرتفع للأعالي، وسرعان ما ستجني ثمار ما زرعت. ولكن هذه المرة لم تطلبني لأنك تريد معرفة الغيب وخبايا مستقبلك.

- تظنين أنك تعرفين الغيب؟!

قاطعته متهكمة:

- نَفسك تأبى الاعتراف بمنزلتي، اجتباني الله بالوحي لسببٍ ما، ولكن لا بأس، لطالما ظن الناس أني مجذوبة، ساحرة، عرَّافة، دجالة. ولا ضير من قولك بأن ما أتنبأ به ليس سوى شعوذات، لطالما عرفت قدر نفسي وما أستطيع فعله، وفي النهاية أنت من أرسلت في طلبي.

- ألم أقُل لكِ إنكِ لا تعلمين شيئًا؟ ألم يُوحَ إليكِ بأني طلبتكِ لتسمعي شخصًا آخر؟

- زوجتك، وأحلامها التي تؤرق لياليك. ورغبتك في الحصول على وريث يحمل اسم سلالتك «بني شمس» التي تريد أن تستمر عبر الأزمنة.

اعتدل في جلسته وظل يحدق بها بينما تردف ضاحكة:

- وما رؤيا زوجتك إلا مصير وقَدر محتوم، قدرك أنت أيها الحكمدار.

- قدري أنا؟ أتدرين عمَّ تتحدثين؟

- نعم يا ابن فجر الصباح. سيعلو شأنك وستملك جنبات هذه الأرض، ولكن ليس كل ما تريده ستدركه. والآن دعني أستمع لابنة الشهبندر، وسأجيبك بعدها عن أي شيء تريد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- كُنت حافية فوق رمال الصحراء، وفي الأفق كان جدار النخيل المحيط بالكَفر كجزيرة في بحر سراب، كلما ظننت أني اقتربت تبدَّد الأمل بداخلي، الرمل ساخن يلفح قدميَّ وشعرت بجفاف حلقي، أكملت المسير على الرغم من الإعياء والألم حتى سمعته: عواء عميق يأتي من بعيد. التفتُّ وبحثت في كل الأرجاء، ولم أجد سوى الخواء والصحراء الممتدة إلى ما لا نهاية، لا أدري ماذا جاء بي إلى هنا، لا أريد سوى العودة إلى الكَفر المستقر بالأفق البعيد، سراب من ذكريات نشأتي بمدينة البوغاز، مرة أخرى عاد العواء ولكن هذه المرة قريب للغاية وكأنه جوار أذني. ركضت وتعثرت وحين حاولت النهوض مجددًا وجدت الرمال تبتلعني رويدًا، تضغط على جسدي رويدًا وكأنها تمضغني بتلذذ، لم تعُد مقاومتي تُجدي، كنت أبكي، والزمجرة تصم أذنيَّ، وجاء ليقف أمامي: عينان شهلاوان متقدتان كالجمر وأنياب يسيل منها الزبد.

توقفت رقية عن الحديث وحط السكون رحاله في مجلسهن قبل أن تطرده خادمتها أمينة التي تدخلت قائلة بنبرتها الباردة:

- أذكر تلك الليلة التي استيقظت فيها على صراخ سيدتي رقية، أسرعت إلى غرفتها لأجد الفزع يسيطر على ملامحها التي اكتست بضوء قنديلي الذي أغشى عينيها، احتضنتها بينما راحت تبكي بنشيج مرتفع وهي تقول لي: «لقد كان كل شيء حقيقيًّا يا أمينة. كاد أن يقتلني».

إشارة واحدة من يد مُنجية - العرَّافة - جعلت أمينة تبتلع كلماتها وتصمت، بينما الأولى تسأل رقية:

- كم مرة راودك هذا الحُلم؟

تبادلت رقية النظرات مع خادمتها أمينة قبل أن تجيب بخفوت:

- أكثر من ثلاث مرات. وفي كل مرة كان يتكرر الأمر.

تدخلت أمينة مرة أخرى:

- إنه مجرد حُلم يا سيدتي...

قاطعتها مُنجية:

- اخرجي الآن.

رمقتها أمينة باستغراب ثم نقلت بصرها إلى رقية وكادت أن تقول شيئًا لولا أن أومأت إليها سيدتها، خرجت غاضبة وصكت الباب خلفها، وعلى ضوء القنديل القريب بدأت مُنجية تخرج أدواتها من جعبة جلدية مزينة بريش طاووس سيئ الحظ، أخذت تفرك بعض الأشياء داخل كأس نحاسية نقش

إطارها بحروف وكلمات لم تتبينها رقية التي أخذت تتابع فِعل العرَّافة بقلق، لم يمضِ الكثير من الوقت حتى أضافت قطرات من سائل يشبه الماء كان بقنينة صغيرة بحوزتها، إلى تلك المساحيق في الكأس، وأخذت تتمتم بكلمات غريبة وهي تقلب ما فيه، ثم أدنت الكأس النحاسية من شفتَي رقية المرتجفة، الرائحة نفاذة، فأشاحت بوجهها ولكن مُنجية ثبتت رأسها بقوة ونظرت في عينيها قائلة:

- اشربي لتذهب تلك الكوابيس إلى أجلٍ غير مسمًّى.

شربت رقية وتجرعت المذاق الغريب. كادت أن تتوقف لتتقيأ، ولكن مُنجية رفعت الكأس لتفرغ ما تبقى في قعرها في جوف السيدة الجميلة التي امتقع وجهها، بينما ذلك المشروب الغريب يستقر بجوفها، مر الوقت ببطء وهي ترى مُنجية توضب جعبتها. لم تكُن تفهم كيف يكون ذلك الشراب دواءً للأحلام التي لم تمنحها العرَّافة تفسيرًا لها، أصبحت كروح هائمة فارقت جسدها المرتخي على الفراش الوثير، لا تدري كم لبثت على هذي الحال، ولكن مُنجية كانت تجلس بالقرب منها هذه المرة، حاولت النهوض ولكنها لم تقوَ على الحركة، حدثتها:

- كان الأمر حقيقيًّا. الذئب طاردني في صحراء مقفرة، أشعر بحرارة الشمس تلهب جسدي.

ضحكت مُنجية:

- حاولي أن تتدثري ولا تنامي عارية مرة أخرى.

انتبهت رقية لكونها عارية تمامًا، سحبت الفراش إلى أعلى رقبتها خجلة، ومُنجية تستطرد:

- الكوابيس تطاردنا في اليقظة والمنام، ولا تقلقي بعد ذلك لن تحلمي بذلك الكلب مجددًا.

- ذئب وليس كلبًا.

- جميعهم أقرباء. على كل حال لا يقلق الأمر بعد الآن، فذلك الأجرب سينتقل إلى أحلام شخص آخر.

- هل انتهيتما؟!

أفزعهما صوت شاهين، لم تشعرا بدخوله الغرفة، نهضت مُنجية عن طرف الفراش بتثاقل:

- انتهينا للتوِّ. أنت محظوظ يا حكمدار بتلك المرأة الفاتنة.

- أرجو أن تكون الليلة نهاية للكوابيس التي تؤرق ليالينا.

- لا شيء ينتهي بين ليلة وضحاها سيدي الحكمدار.

- إذن ما تأويلك لتلك الرؤى؟

- لا تستعجل، فالليلة ستخبرني النجوم بكل شيء وفي الصبح سأخبركما.

ألقت جملتها وحيَّتهما بإيماءة من رأسها وتوجهت ناحية الباب، تضرب الأرض بعصاها، تلاحقها نظرات الحكمدار وزوجته، ما إن اصطك الباب حتى اقترب من الفراش، كان يظهر على وجه رقية الإعياء، جلس إلى جوارها وتحسس وجنتها بظهر يده:

- هأنا قد عدت يا جميلتي. ماذا بك؟

جاهدت لتبتسم، فجاءت الابتسامة باهتة واهية:

- أين كنت في هذه الساعة من الليل؟

قال وهو ينهض خالعًا عباءته:

- كنت أتريض بالجواد. كما تعرفين أحب التجول في الليل على ضفاف البحيرة.

عاد إلى الفراش وسحب الغطاء فوقه، احتضنها وبدأ في تقبيلها، بدت باهتة وأشاحت بوجهها عنه، الأمر الذي جعله يتوقف عما يفعل متطلعًا إليها، لاحظت أن بفعلتها هذه قد أثارت غضبه، وأرغمت نفسها على الابتسام بصعوبة قبل أن تميل عليه وتمنح شفتيه قبلة رقيقة سريعة، وقالت له بصوت عذب:

- لنرتح الليلة، فأنا متعبة ولا أريد سوى أن أبقى بجوارك فقط.

أنهت كلماتها وانزلقت لتضع رأسها فوق الوسادة، أولته ظهرها ومرت لحظات وهو على حاله، هذه المرة الأولى التي ترفضه فيها، أكان السبب ذلك الشراب؟ كثيرًا ما أرادت أن تنهره واليوم فقط نجحت في ذلك، أما شاهين فلم يَدُم تفكيره طويلًا، انصاع لما أرادت وقد استحوذت تلك المرأة على رأسه. فقط اكتفى باحتضانها منتظرًا الصباح ليعرف سر تلك الرؤى، بينما رقية كانت غير مصدقة لما فعلته، كانت المرة الأولى التي تتصدى فيها لسلطته ورغباته، وذلك شيء أسعدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليلة طويلة بدا أنْ لا نهاية لها، تقلب بالفراش ذات اليمين وذات الشمال والنوم لم يطُف بجفنيه، قنديل ذو وهج خافت يضيء الغرفة على استحياء، ورقية تغط في نوم عميق، لعلها تَحلم من جديد، لا يعلم إن كان أمر أحلامها ما يؤرقه أم تلك المرأة التي أتى بها من مدينة البوغاز، كان قد نسي أمرها

منذ زمن ولكن الدويدار رشوان ذكّره بها، لعله يجد لديها دواء لزوجته العليلة، رقية الجميلة صارت باهتة شاحبة منذ فقدت جنينهما وبدأ ذلك الذئب في زيارة منامها، الخادمة أمينة تُجزم أن سيدتها مسَّها جنٌّ حين سقطت عن الدرج، يذكر كيف كانت الدماء تغطي وركيها ومضغة لحم تتدلى من بين ساقيها، العرَّافة مُنجية وحدها القادرة على تفسير كل شيء، لذا طلب حضورها إلى هنا لإنهاء كل ذلك العبث. هذا ما كان ينقص عقله وواقعه، السلطان يطلب زيادة في الجباية والضرائب، وموسم الحصاد تأخر بفعل الجفاف، روافد النهر لم تعُد تفيض بالماء ومدينة البوغاز تنتظر محاصيله. تجارته تبور كتلك الأراضي المحيطة بالكَفر، حين اعتلى كرسي الحكمدارية ظن أنه مَلك الدنيا ولكنه كان مخطئًا، شعر بضآلة حجمه أمام عظمة وقوة السلطان، وعلى الرغم من أنه ورث أموالًا وتجارة والجميلة الراقية ابنة شهبندر البوغاز، فإن ذلك لا يُشبع روحه. لديه طموح خاص وحُلم سيسعى لتحقيقه مهما كلف الثمن، ولكن تلك العرَّافة أخافته، كانت المرة الأولى التي يقشعر فيها بدنه حين ذكرت أنه المقصود بأحلام زوجته. أفاق من شروده على صوت غريب تناهى إلى مسامعه، اعتدل جالسًا وأرهف السمع، بدا كغناء غريب أو لعلها الريح تصفر متسللة عبر فجوات التهوية بقباب القصر، ولكن لا ريح في هذه الأيام الجدباء. الغناء يتواصل وترنيمة غير مفهومة لا تتوقف، نهض متوجهًا إلى النافذة ببطء حذر، وحين أزاح طرف الستائر كان الظلام يعم المكان والمشاعل القليلة المتناثرة تكاد لا تضيء إلا بقعة صغيرة، والصوت ما زال قائمًا.

شق طريقه حاملًا مشعلًا أضاء دربه وسط العتمة، قادته قدماه باتجاه البحيرة حيث الصوت يرتفع رويدًا، لوهلةٍ ظن أنه يَحلم أو أنه عالق بداخل كابوس وسيظهر الغول بعد قليل، ولكن الغول لم يظهر. كانت مُنجية تقف على حافة الشاطئ، الماء يصل حتى ركبتيها ويداها مرفوعتان إلى السماء، تتمايل يمينًا ويسارًا بليونةٍ لا تليق بسنوات عمرها المديدة، ظل واقفًا يحدق فيها وهي ترتل ترنيمتها العجيبة، أيُّ لعنةٍ تلقيها تلك الساحرة على بلدته؟ غرس المشعل في الطين وسار مقتربًا منها محاولًا ألا يصدر أي صوت، تحسس خطاه فدهس جذعًا جافًّا تهشم تحت وطأته، تجمدت ساقاه وتوقفت هي عن غنائها، لم تلتفت ولكنها حدثته قائلة بصوتها الماعزي الحاد:

- كُنت أعلم أنك لن تصبر حتى الصباح.

أراد أن يقول شيئًا ولكن الكلمات تبخرت بحلقه الجاف، فأردفت هي:

- أرى المجد بين يديك يا شاهين، والموت يعم المكان، وتلك البحيرة الراكدة تخبرني أن بجوفها الكثير من الرفات. هنا فعلت فِعلتك وأغرقت عَمك ومنذ ذلك الحين صار قاعُها مقبرةً لكل من عصى وتحدى أمرك. ما هكذا تُحكم العباد يا ابن عز الدين، في كَنف الخوف يَنبت البُغض، وثمار الكراهية عَلقم

لا تستسيغه القلوب. لا أظن أنك نَسيت تلك القصة عن صاحب الكَفر في قديم الزمان، ذلك المتجبر الذي طغى حتى خسف به وبداره وأعوانه الأرض... هذا ما حدث قبل أن يأتي جدك هاربًا ومعه من تبقى من ورثة بني شمس.

- تلك أساطير الأولين ولا صحة لها، فما هي إلا حكايات رُدمت تحت أطلال النسيان.

- النجوم لا تكذب. سيكون لك من الأمر شأن عظيم حتى يأتي هو.

- من؟

- ذئب بحر الرمال.

غمغم بخفوت:

- ذئب؟

- إنه هناك يجوب الصحراء ويجول بين الوديان وحيدًا.

- أكل هذا أنبأتك به النجوم وانعكاسها على سطح البحيرة؟

- بل أحلام زوجتك الجميلة رقية، أعلم أنها قد قصت عليك أمر تلك الرؤى ولكنك لا تبالي ولا تصدق. فقط ما يشغل عقلك هو أن تشبع رغبتك وأن تكيد للسلطان كيدًا عظيمًا. ستنجح في فعلك ولكن ليس لأمد طويل، ستكون عليك مواجهة الواقع الجديد الذي سيُفرض عليك.

- لا أعلم عمَّ تتحدثين.

- بل تعلم جيدًا يا ابن بني شمس. أعلم أن حكمدار كَفر البردقوش يريد أن يُصبح السلطان، تريد أن تَملك البر من البوغاز وحتى خندق السراب، تطمح إلى أن تقود جيوشك ذات يوم إلى المدينة الزرقاء، وأن تُروى عنك القصص وتمجدك الأشعار. هذه هي حقيقتك، إنك مُقدم على شيء سيبدل ما كان وما سيكون، لا أستطيع الجزم به الآن ولكن الأيام تخفي شيئًا عظيمًا.

ضحك متهكمًا:

- ألم تقولي إن النجوم أخبرتك بالحقيقة؟

- لا أحد يَملك الحقيقة الكاملة، حتى النجوم. إن كنت تنوي فعل ما قررته بداخلك فاحذر، ولا تضع في حسبانك أمر ذلك الجيش القادم من الصحراء فقط؛ فأعداؤك كُثر، ربما يأتي اليوم الذي ينقلب فيه الصديق إلى عدو ويكون ملاذك الوحيد هو عدوك.

- عن أي جيش وأي عدو تتحدثين أيتها الخرقاء؟

- جيش الذئب الذي سيحكم من بعدك يا ابن شمس الصباح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سُحب صيفية ناعمة مرت ببطء فوق كَفر البردقوش، لم تستطِع حجب شمس الظهيرة القاسية التي هرب منها الفلاحون، تركوا الحقول واتخذ بعضهم سبيل العودة إلى منزله لأخذ قيلولة، بينما استظل معظمهم بأشجار الصفصاف والصنوبر التي تحيط بقنوات المياه، يتسامرون بقصص عن العرَّافة التي جاءت منذ شهرين إلى الكَفر، ما زال قدومها يُمثل سرًّا يحاولون سبر أغواره، جاءت تسبقها جحافل من حشرات الهاموش، ويوم رحيلها خُسف ببدر التمام، رحلت في الظلام الدامس ولم يجد أحد لدابتها أثرًا. يقول البعض إن الحكمدار أتى بها لترى إن كانت زوجته عاقرًا أم بها علة تمنعها من الإنجاب، وآخرون يقولون إنه جاء بها للكشف عن كنوز تل البحيرة، وذلك السبب ربما هو الأقرب للتصديق، هناك الآن بُنيان بدأ في العلو فوق الربوة المطلة على البحيرة، حصن يبنيه الحكمدار ليكون مركزًا لحكمه، الكَفر يزدهر والدويدار رشوان لا يكف عن زيارة القرى والبلدات المجاورة، يأتي بالمزيد من البنائين والنجارين والعمال، الحكايات لا تنتهي والأبقار ترعى بهدوئها المعتاد على جانبي الطريق الممتد إلى قلب القرية، عربات تجرها البغال وجمال تحمل أجولة الخضراوات، حركة دائمة على طول الطريق من وإلى قلب الكَفر. كل شيء كان على ما يرام حتى ظهروا على مدخل بوابة النخيل؛ ثلاثة خيول تسير بوهن وعلى متنها رجال مغبرون كمن خرجوا للتوِّ من القبور، وجوههم بائسة مرهقة، وملابسهم ممزقة تكسوها الدماء والتراب، المشهد كافٍ لتتوقف الأرجل عن المسير وتمتقع الوجوه، عباءاتهم القرمزية المذهبة تفصح عن هُويتهم.

في مجلس الحكمدار وقف الثلاثة أمامه، تفحَّصهم جليًّا قبل أن يُحدثهم مبديًا أسفه لمصابهم، كانوا مضطربين متوجسين والخوف يتملك من خلجاتهم، جُل ما أرادوه العودة لمدينة البحر - البوغاز - هذا مطلبهم الوحيد، وبين سؤاله عما حدث لهم وترددهم، تقدم أحدهم وقال بصوت مبحوح:

- غُدر بنا، وبصفتك حكمدار الأنحاء فعليك مساعدتنا.

- أريد أن أسمع منكم إذن، لأستطيع مساعدتكم.

تراشق ثلاثتهم بالنظرات قبل أن يتحدث الرجل:

- كنا قادمين من مملكة الساحل عبر طريق الوادي القديم، محملين ببضاعة خاصة لسلطاننا المعظم ولم يُكتب لها أن تصل.

قاطعه شاهين ببرود:

- ولماذا لم تبحروا عبر النهر الكبير وتتبعوا روافده حتى تصلوا مدينة البوغاز؟

تحشرج صوته وضاق صدره وحاول ألا يبكي، تماسك ضاغطًا على أسنانه وأكمل:

- فعلنا هذا بالفعل ولكن عند منطقة وعرة وجدنا أن منسوب المياه قليل، ولن تستطيع مراكبنا إكمال الطريق، اضطررنا للمرور بغابات الظلال من دون أدنى مشكلة، وهناك افترق عنا بعض الرحالة ممن كانوا يسافرون معنا، وعبرنا الجزء الأكبر من بحر الرمال من دون توقف على الرغم من التعب والمشقة، ولكن قبل وصولنا لخندق السراب حوصرنا في سهل منخفض، وأمطرنا بوابل من البارود والسهام. سقط رفاقنا وأمراؤنا وحين أدركنا أن المقاومة لن تُجدي ألقينا بأسلحتنا طالبين الأمان ولكنْ مُنحنا الموت. قتلوا كل جريح حتى وإن كانت إصابته غير مميتة. لم يتركوا إلا ثلاثتنا.

- لماذا؟ لماذا أبقوا على ثلاثتكم فقط؟

- لا نعلم سيدي.

- هل رأيتم وجوههم؟! أي علامة أو راية يحملونها؟!

- لقد رأى زميلي محمود وجه أحدهم حين سقط اللثام عن وجهه، أليس كذلك يا محمود؟

بدا التوتر على وجه أحد الرجلين أمام نظرات شاهين الذي أشار إليه بالتقدم، بخطوات ثقيلة امتثل الرجل حتى صار إلى جانب رفيقه وبصوتٍ غالبه الإرهاق قال مطأطئ الرأس:

- نعم رأيته. لم يلحظني، ولكني أحفظ تفاصيله؛ كان طويل القامة وهناك ندبة بطول وجهه، شق سيف أو جرح سكين غائر. ليست لديه لحية، وعينه اليسرى مكسورة بعض الشيء.

- هل سمعتموهم يقولون أي شيء، أو ذكروا أي اسم؟

- الذئب. زعيمهم اسمه الذئب، سمعتهم يقولون هذا.

- ذئب؟

- نعم سيدي، كانوا يتحدثون عن قطيع ذئاب أيضًا.

ابتسامة باهتة بدت على وجه شاهين وهو يترك كرسيه متجهًا إليهما، وما إن صار أمامهما حتى وضع يديه، كلٌّ يدٍ على كتف أحدهما وقال بصوته الهادئ الوقور:

- حسنًا، خذوا قسطًا من الراحة وفي الصباح سنعد لكم خيول سفر قوية تحملكم إلى مدينة البحر. أنتم في ضيافتي فلا يتردد أحد منكم في طلب أي شيء، وسأرسل دوريات من رجالي للبحث عن القافلة المنهوبة، وتلك الثلة الخارجة عن القانون وزعيمها الجرو الذي يدَّعي أنه ذئب. أعدكم.

تجاوزهم إلى باب القاعة وقبل أن يخرج التفت إليهم قائلًا:

- ماذا كان صنف البضائع السلطانية؟

قال الثالث الواقف بالخلف بسرعة قبل أن ينطق زميلاه المتلعثمان:

- سجاد وبهارات والكثير من الذهب.

- حسنًا، أبلغوا تحياتي لسلطاننا المعظم وآمل أن تصلوا بسلام.

كان يحدثهم بجمود وقسمات وجه قاسية غاضبة، وبمجرد أن أولاهم ظهره تحولت قسمات وجهه وبدا على ثغره شبح ابتسامة غريبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2- بياض القرش

البوغاز.

باهرة هي تلك المدينة، شوارع مُعبدة بالبازلت الأسود وأشجار تُظلُّ المارين، منازل بيضاء ترتفع وتهبط فوق تلال المدينة الأربعة. اللون الأبيض للجدران والأزرق للنوافذ والأبواب، الحساسين المغردة تهيمن على حدائق المنازل والسماء الشاسعة تجوبها مئات النوارس، قصر الوالي يطل من على ربوة صخرية عالية، تنبثق منها أسوار شاهقة كأذرع تحتضن الميناء حيث تتراص السفن التجارية، عامرة بصنوفٍ شتَّى من البضائع وأقفاص الحيوانات والطيور الفريدة، حركة دؤوبة لا تتوقف، الكثير من العبيد والحمَّالين والمسافرين، عربات تجرها خيول وبغال ودوريات الجند تجوب الرصيف ترفل في عباءاتها القرمزية والقمصان الجلدية السوداء، يسميها البعض «مدينة البحر» ولكن «البوغاز» هو الاسم الذي لصق بها، هي بقعةُ صخبٍ تحدها أسوار شاهقة ويحتضنها البحر من ثلاث جهات. ولكنْ كحال كل شيءٍ جميل، هناك جانب مظلم وخفي يكمن في أحيائها القديمة أو كما يسمونها «الأحياء المنخفضة»، مرتع للفقر والخوف كنقيض لتلالها الأربعة مثال الغنى والتفاخر، عجيبة وفريدة وقاسية ومخيفة.

لم تتبدل حالها كثيرًا منذ تركها آخر مرة مجبرًا، زُج به في السجن بسبب صحبة سيئة، شاركها في سرقة بعض البضائع المكدسة بالميناء، فحكم عليه بقضاء أربع سنوات في الظلمة، وبينما كان رفاقه ينعمون بالحرية نبت عوده داخل السجن، تعلم فيه كيف يواجه أصعب المواقف، مات والده ولم يحضر جنازته، فقط أخبروه بعد أيام من دفنه أن الرجل احتضر حزنًا وحسرة عليه، وكان ذلك سببًا كافيًا لتتبدل شخصيته عن ذلك الذي كان عليه، سار في ظلال الجدران متحاشيًا العراك والتدخل لفض أيٍّ منه، تأقلم وعاش محتالًا بين الأقوياء والضعفاء والجند، لم يكُن له سوى صديق واحد، وربما كان هذا الضخم سبب بقائه على قيد الحياة، أنقذه مرارًا من براثن القتلة والمغتصبين، وحين بدأت الحياة تزهر من جديد في بستان قلبه، ولم تتبقَّ إلا أيام ويخرج، قُتل شخص في عراك بين السجناء، دفعه صاحبه الضخم ليرتطم الرجل بالجدار ليخر ميتًا، سنوات أخرى بالسجن أضيفت إليهما، وكأن ديدن الحياة هو الظلم، لم يَقتل أحدًا. بدا وكأن الرجل كان ينتظر دفعة بياض القرش ليموت، كان يلومه لقتله الرجل ولكن اللوم لن يفيد بعد ما وقع، وذاع صيتهما في السجن كرجلين خطيرين. وصار هو البرغوث الذي يرافق بياض القرش. كنية لا يحبها ولكن جُل سكان الزنازين ينادونه بهذا الاسم الذي يبغضه، وحده صاحبه كان يناديه باسمه، سعد، اسمٌ لم يحظَ بأي قبس من معناه. منزل أبيه في درب السقاة صار خاويًا إلا من فراش قديم

منحه إياه أحد جيرانه، سُرق المنزل أثناء فترة سجنه الأخيرة، ولا أحد يعرف السارق. أثار زوبعة وصار يسب في الزقاق الضيق ولم يتلقَّ جوابًا، فقط النسوة أطللن من الشرفات مستاءات من ألفاظه النابية مع أنها كلمات دارجة يسببن بها أبناءهن، ورجال الحي اكتفوا بمواساته بكثير من الكلام والقليل من الفعل.

حياة بائسة عاشها سعد، أشهر منذ مغادرته للسجن كانت الأسوأ على الإطلاق، تشقق نعله من كثرة السير والبحث عن عمل، رفضه كل أرباب العمل لكونه سجينًا سابقًا، الجوع كان ينهش معدته لأيام، وكل سُبل الاحتيال تبوء بالفشل لسببٍ يجهله، أهو الخوف من مصير مجهول بزنزانة مظلمة مرة أخرى أم أن تصبح تلك هي الحياة التي لا يريدها، أراد أن يعيش كما البشر ولكن للحياة رأيًا آخر، في ذلك اليوم كان يتجول قرب الميناء حين رآه، نعم، هو بياض القرش رفيقه من السجن، ضخم الجثة عريض المنكبين أصلع الرأس وله لحية قصيرة خشنة، كان يقف على قارعة الطريق مستندًا إلى جدار الميناء متأملًا المارة، رؤيته من جديد كانت سببًا كافيًا لجعل سعد يَسعد، حث الخطى ناحيته وناداه:

- يا قرش، كنت تجزم أن فور خروجك من السجن سينبت شعر رأسك.

التفت بياض وجحظت عيناه حتى ملأت وجهه الكبير، انفجر ضاحكًا وهو يحتضن سعد الذي اختفى بين ذراعيه الغليظتين، تعالت ضحكاتهما وسط نظرات المارة، وأخيرًا أفلته ولكنْ ظل ممسكًا بكتفيه، كان سعد ضئيلًا جدًّا إلى جواره، ومبتهجًا لرؤيته، كاد أن يقول شيئًا ولكن القرش سبقه بصوته الغليظ:

- كيف حالك أيها البرغوث؟

تلفت سعد حوله ليتأكد أن أحدًا لم يسمعه ورمى صاحبه بنظرة لوم، فانفجر الأخير ضاحكًا ثم أردف:

- كنت أحسب أني لن أراك مجددًا.

بأسى تحدث سعد:

- ما إن خرجت من السجن حتى عدت إليه، وكالمرة الأولى في فعلٍ لم أقترفه أيضًا. لبثت قليلًا حتى تأكدوا من براءتي.

- كفاك بؤسًا يا سعد، انظر حولك، ما زالت النوارس تحلق والشمس ساطعة، تستطيع أن تشم رائحة البحر وتضاجع عاهرات الحي الأحمر. الحياة تمضي وعليك أن تستغل كل لحظة فيها، كما أفعل أنا الآن.

- وماذا تفعل؟

- أبحث عن رجل من كفر البردقوش يُدعى «الدويدار رشوان». يقولون إنه هنا في الميناء ويريد رجالًا أشداء للعمل كبنائين وعمال ودرك.

- درك! وهل سيقبلون بسجين سابق.

رأى القرش التهكم واضحًا في قسمات وجه سعد، فربت على كتفه وحثه على السير بجواره:

- من الذي سيعرفنا في كفر البردقوش؟

- تتحدث بصيغة الجمع.

- نعم. قد أكون قاتلًا ومجرمًا وغبيًّا بما فيه الكفاية في أعين الناس، وقد جاء الوقت لأغير هذه الحياة وأبتعد عن كل هذا الصخب، سأغير حياتي ولن أظل بياض القرش الذي يريدون رؤيته، أستطيع رؤية حالك الآن وما آلت إليه الأمور معك يا فتى. كفاك تظاهرًا بعكس ذلك يا سعد. الدرك ليسوا سوى مجرد قتلة ولصوص ولكنهم يرتدون ملابس مختلفة وهذا ما سنفعله، ألديك خيار آخر يا سيد سعد؟

- إن لي عملًا هنا وأنوي...

- أنت برغوث كاذب. أتدري؟ إنه اسم له وقع؛ البرغوث الكذاب.

لكمه سعد في كتفه، فانفجر القرش ضاحكًا وأخذ يقول بصوته الأجش:

- قرصني برغوث، قرصني برغوث.

أمضيا الوقت معًا يتجولان بحثًا عن ذلك المدعو رشوان، وبدلًا من العثور عليه تقابلا مع صديق قديم لهما، سلَّام، ذلك المغني المحتال، الذي قضى معهما بضعة أشهر بالسجن، فقط لأنه تغزل بزوجة أحد وجهاء المدينة، كان ضئيل الحجم بالنسبة لهما، لا يسير إلا برفقة قيثارته، وشعره الكث ضُفرت إحدى خصلاته بخرز ملون يمنحه مظهرًا مميزًا يجعله لا يُنسى، يتسول لقيماته بالألحان ونغمات يكررها من دون كلل، يرتب ويزن الكلمات ببراعة، صانعًا من كل جملة لحنًا خاصًّا، هو أيضًا يبحث عن رجل الحكمدار، وبعد تجوال لم يدُم طويلًا وجدوه يقف أمام مبنى الحبوس والضرائب وقد تجمهر أمامه عدد غفير من الرجال، كان يفرزهم بعينيه ويختار منهم من يرى أنه مناسب، أزاح القرش الناس عن طريقه ومن خلفه صاحباه، كان كعملاق يبرز من فوق رؤوس أشجار غابة كثيفة، وخلفه كان سعد بجسده النحيف، ما إن وقعت عينا رشوان عليه حتى ابتسم، وأشار له بالتقدم سائلًا إياه:

- ما اسمك أيها الضخم؟

- بياض. بياض القرش.

- حسنًا يا قرش. هل تستطيع المبارزة والقتال؟

- امنحني فأسًا جيدة وسأشطر لك أيًّا من الواقفين نصفين.

- حسنًا أيها الضخم، تعالَ إلى هذا الجانب.

خطا القرش بخطى يملأها الزهو ولكنه توقف حين سمع صوت رشوان يستوقف سعد وسلّام:

- إلى أين تذهبان؟

أدار القرش رأسه متطلعًا إلى رشوان لبرهة ثم قال بصوته الأجش:

- إنهما معي ولا يخدعك مظهرهما. سعد هذا يستطيع الفتك بدزينة من الرجال من دون أن يُخدش، وذلك الضئيل صاحب القيثارة أيضًا يستطيع فعل أي شيء.

قال رشوان بغلظة:

- وهل يحارب بقيثارته؟

أجاب سلَّام مسرعًا:

- وما الحرب إلا أغنية تعزف على أوتار الألم والنصر.

بدل رشوان نظراته بينهم وحين التقت عيناه بعينَي بياض قال الضخم مبتسمًا:

- سنذهب معًا.

رماه رشوان بنظرة طويلة ثم أشار إليه بالتقدم إلى جوار رفيقيه، كانوا فرحين وكلهم شوق لخوض تلك التجربة الجديدة، وكل منهم يطوي صفحات من حياته وآماله، وطموحات لم يعُد لها معنى في المستقبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطريق إلى كَفر البردقوش طويل وشاق، وحدها صحبة سعد وسلَّام تهون عليه الترحال، وجد نفسه يسير مع السائرين، لم يتسنَّ له توديع أحد، ومن لديه ليودعه؟! حتى بثينة، جارته الجميلة التي عاش عمره يتطلع إليها في صمتٍ لم يرَها، وتلك الأسمال البالية في منزله استغنى عنها فور سماعه لخطبة رشوان القصيرة، وعدهم فيها بالملبس والمشرب وحياة كريمة مقابل دفاعهم عن كَفر البردقوش وحدود السلطنة الجنوبية، كان الجميع يتبادلون الحديث والتعارف والركوب، كل بضعة أميال ينزل الراكب عن الإبل والخيل ويركب غيره، كانوا مائتي رجل مقابل عشرين دابة، وحده رشوان لم يبدل حصانه، كان يقودهم ويجاوب على أسئلتهم بقليل من العبارات الجافة، كان غامضًا وصامتًا معظم الوقت، يراقبهم ويتفحصهم من دون أن يشعروا،

مروا بحقول الأمراء ومزارع الولاة، جنات يراها بعضهم لأول مرة، ولكن رشوان يجزم أن كل هذا سيزول إن لم يفِض النهر الكبير مرة أخرى، لم يشغلهم حديثه الجاف، كانوا مبتهجين يسعون لحياة أفضل، معظمهم حرفيون عاطلون عن العمل وبعضهم سجناء سابقون، ولكن يبدو أن الجميع قد سئموا الحياة في تلك المدينة المزدحمة، وكان كَفر البردقوش هو الخلاص الوحيد.

بعد مسيرة ليلة ونهار نادى فيهم رشوان بالاستراحة، وإقامة مخيم صغير على حافة غابة يسقيها جدول ماء عذب صغير بطيء الجريان، تعبوا ويبدو أنه كان يختبر جلَدهم ومعدنهم، لم يشتكِ أحد من طول الطريق ولكن الإعياء بدا جليًّا على وجوههم، ليلة لا قمر فيها والنجوم بدت غافية خلف سحب ناعمة رقيقة، اجتمعوا عشرات حول حفر النار، وجبة ضئيلة من خبز جاف وقليل من حساء الفاصولياء، نام بعدها البعض وتسامر آخرون بأحاديث عن ذلك الرجل، حكمدار كفر البردقوش، سليل بني شمس الغابرين، قادهم الحديث عن بني شمس وتلالهم العجيبة، ونهايتهم المأساوية على يد بني الأزرق، إلى تلك الروايات المنتشرة عما حدث لجند السلطان قُرب خندق السراب، الخبر بلغ مسامع المدن والقرى في أنحاء المعمورة، تلك الحكايا عن القوافل المنهوبة والمذابح التي تُرتكب في قلب الصحراء، البعض ينسج الأساطير والبعض يتحدث بما سمع ويضيف لمسته الخاصة، العديد من الروايات عن تلك العصبة من قطاع الطريق والذي يقودهم رجل يُدعى الذئب، شائقة بما يكفي لتنصت لها الآذان، وفي الحلقة التي جمعت القرش وسعد كان سلّام يرتب أوتار قيثارته، بدأ يعزف ويبدو أن الأمر لم يرُق لرشوان الذي صاح فيهم آمرًا إياهم بالنوم، حتى يأخذوا قسطًا من الراحة تكفيهم لإكمال المسير.

ساعات قليلة كانت كافية للراحة حسب ما قاله رشوان، تحرك الركب بعد الشروق نحو الجنوب، الأراضي مقفرة وشمس الصيف لا ترحم، لا أشجار لا ظلال لا شيء سوى طريق ممهد بالحصى، طقس جاف وقِرب الماء تكاد أن تنفد والتذمر أصبح جليًّا على بعض الوجوه، ورشوان يتقدمهم من دون مبالاة حتى قام سلَّام بالعزف على قيثارته، فجذب لجام حصانه والتفت له قائلًا بغلظة:

- هل سمحت لك بالعزف يا هذا؟ المكان الذاهبون إليه نحتاج فيه جندًا وليس مغنين، لست ذاهبًا إلى حانة.

- دعِ الفتى يُهون علينا الطريق. ما دام العزف ممنوعًا في الجحيم الذاهبين إليه، فلعلها تكون آخر أغنية نسمعها.

ارتفعت همهمات مؤيدة لحديث بياض القرش الذي لم يرُق لرشوان ولكنه رضخ لسبب ما، لكز حصانه ليركض إلى أول الصف تاركًا إياهم وسلّام يعزف

ويغني بصوت عذب قائلًا:

كان فتى يافع مغرور
يسكن بالشط المسحور
يصنع فلكًا يبني مراكب
من أخشاب شجر الحور
وفي الليل يرتاح ويبني
بالرمل قلاعًا وقصور
يومًا ما ظهرت جنية
من بين مياه وصخور
بصوت عذب همست اسمه
حرمته من النوم شهور
نهض وخاض البحر إليها
ولم يسمع والده المفجوع
لم يسمع أمه تنادي
خاض البحر بغير رجوع
طلبت روحه مهرًا لها
ذهب إليها ومن يومها
صار الموج يغني باسمه
على شط البحر المسحور

كانوا يعرفون تلك الأغنية، جُل من ترعرع في مدينة البحر يحفظها، رددوها وهم صغار في الأزقة وهددت الأمهات بها الأطفال، حتى لا يذهبوا إلى البحر في المساء، الطريق الطويل إلى الكَفر كان مثاليًّا ليتآلف الجميع ويتعارفوا فيما بينهم، يُغني سلّام ويتذكر بياض كل تفاصيل حياته وكأن الذكرى لعنة لا تفارقه، كان الوحش في أعين الجميع، غول ضخم تخيف به الأمهات صغارها حتى لا يلعبوا معه بالخارج، طفل ضخم قبيح كما كانوا ينعتونه، رأسه يشبه رأس سمك القرش المُعلق في خطاطيف على مدخل الميناء. غناء وعزف وذكرى تداهم صمته، وأخيرًا لاح في الأفق جدار النخيل ذلك الذي يشتهر به كفر البردقوش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3- صائدو الذئاب

ثلاثة أشهر مضت منذ واقعة السطو على قافلة السلطان، لم ينسَها الناس في كَفر البردقوش، بل صارت كل مجالسهم تعج بحكاية ذلك الذئب، خاصة مع ذلك البناء الذي بدأ يرتفع فوق التل الشمالي للبحيرة، العمل لا يتوقف إلا مع مغيب الشمس، والحكمدار عازم على إتمام البناء في أسرع وقت، كان يقضي معظم وقته هناك بين العمال والدرك يتابع العمل، بينما كان رشوان يدير شؤون القرية ويباشر المزارعين في الحقول، يحدثهم عن ضرورة العمل بجهد أكبر؛ فلا أحد يعلم متى سيهجم رجال الذئب، عدو صاروا يخافونه من دون أن يعرفوه، أسطورة كانت ضحيتها عصبة من فرسان السلطان وقد رأى الناس ذلك بأعينهم، يذكرون يوم جاء الرجال الثلاثة، كانوا كل مَن تبقى من قافلة عظيمة نهبت وجزت رؤوس حراسها، وذلك الذئب ورجاله يعدون جيشًا في الوادي السحيق ببحر الرمال، قطاع الطرق يمتطون قطيعًا كبيرًا من الذئاب، يقول البعض إنهم ثلاثمائة ذئب، ذئب لكل قاتل، حكايات تتناقلها ألسنة النسوة في الأسواق والمنازل، وتفاخر الرجال على المصاطب بمعلومات لا يعرفها سواهم، وحصن الحكمدار يُبنى بإخلاصٍ لأنه سيكون ملاذهم إن ساءت الأمور.

قدور الطعام تفوح برائحة زكية، «يوم اللحم» كما يسميه البعض، فقط تضاف لحساء البصل واللفت قطعتا لحم لكل جندي وقطعة لكل عامل، مرة كل أسبوع يتم ذلك، كانت الرائحة كافية لتحفيزهم لإتمام حصة العمل قبل الظهيرة، لا شيء يهون مشقة اليوم سوى ساعة الراحة التي تُمنح لهم، يستلقون تحت جدران لم تكتمل وخيام ضاقت بالعدد الغفير، بالإضافة إلى الدرك الذين جاء بهم رشوان من مدينة البوغاز، هناك مائتان آخرون من العمال والبنائين، حتى الجند يحملون الحجارة ويساهمون في البناء وفق أمر الحكمدار، وذلك ما أثار غضب بياض القرش الذي تذمر وكاد أن يترك العمل ويعود لمدينته، ولكن سعد دومًا يخبره أن القادم سيكون أفضل، ذلك البناء الذي يشيدونه سيكون بمثابة بيتهم الجديد، والسابقون الأولون ستكون لهم مكانة مميزة فيه، ولكن بياض كان يبغض الحكمدار، أو هكذا بدا لسعد. لم يكُن قد مضى على وجودهما هنا سوى شهرين حتى صار الكل يعرفهما، جلساتهما يكون فيها سلّام صاحب الصوت العذب وهو ما يجمع الناس، في الليل يقضون وقتهم بين الحكايات والسمر وأغنيات سلّام العتيقة التي تهون عليهم واقعهم الجديد.

جاءوا مع الخريف، مخلفين وراءهم سحابة من غبار، خيالة يقطعون الصحراء نحو الطريق الممهد إلى بوابة النخيل، رأوهم من فوق التل وسرت الهمهمات والأحاديث الجانبية، الأمر الذي جعل قائد الدرك يعلن حالة

الاستنفار، اختار عدة رجال على عجل وأمرهم بحمل دروعهم وسيوفهم واللحاق به، كان الصديقان ضمن المجموعة التي اختارها، حملوا تروسهم الخشبية بدائية الصنع وثبتوا أحزمة سيوفهم وانتظموا في صفين من ثلاثين رجلًا، وراحوا يهرولون خارجين من البوابة التي لم تكتمل، قطعوا شاطئ البحيرة ركضًا، وحين وصلوا إلى قصر الحكمدار، كانوا يلهثون من فرط التعب، تراصوا أمام البوابة في تشكيلٍ تدربوا عليه في الأيام السابقة، ومن نهاية الطريق الممتد أمامهم ظهر الفرسان، تبادل سعد النظرات مع صاحبه هامسًا:

- يبدو أن الإثارة قد بدأت.

قطع الركب الحربي الطريق الخالي بخيلاء، تراقبه الأعين بتوجس من خلف الأبواب والنوافذ، وحين اقترب وتبين قائد الدرك ملامحهم وتلك الشارات الحمراء على أكتافهم، صاح في رجاله:

- أفسحوا الطريق.

مروا من بينهم بسلاسة وفُتحت لهم بوابة بيت الحكمدارية، دلفوا متبخترين بخيل حربية مُسوَّمة لا تكف عن الحركة، عشرون فارسًا يرفلون في ملابس فخمة، أغمدة السيوف مذهبة، وعلى جانب السروج وضعت بنادق عجيبة المظهر، تحدث قائدهم مع رشوان الذي استقبلهم بحفاوة مبالغ فيها، ولم تمضِ لحظات حتى ترجلوا جميعًا ودلفوا إلى منزل الحكمدار، بينما القرش يهمس لصاحبه:

- انظر، هؤلاء هم الجند الحقيقيون، فرسان لا يُشق لهم غبار.

- ألا يكفيك يا بياض كل هذا الغبار على جسدك.

رمقه القرش بنظرة خاوية ثم أشاح بوجهه:

- تلومني على ما نحن فيه، أليس كذلك؟ كنت أحسب أننا سنكون جنديين حقيقيين، وليس مجرد خفراء يحملون الحطب ويساعدون البنائين وينظفون حظائر البغال والإبل.

- يا صاحبي الدرك الحقيقي هم أولئك أصحاب السلطة، ممن يمتطون أصيل الدواب ويرتدون أفخر الثياب، أولئك الذين يحظون بنسوة كتلك الحورية في الداخل.

- صه حتى لا يسمعك أحد فيشي بك. أما رأيت ما فعلوه بذلك الطباخ الذي كانت تهمته فقط أنه قام بتقليد الحكمدار أثناء نوبة غضبه؟!

- لا أعلم من الذي وشى به، ولكنه لم يكُن يستحق ذلك المصير. ولكن تلك السيدة رقية، جميلة جدًّا يا بياض، إنها أجمل نساء السلطنة.

- إن لم تكف عن هذا الحديث يا سعد سيكون مصيرك طعامًا لتماسيح البحيرة.

- لا شيء من هذا صحيح يا قرش، إنهم يخوِّفوننا فقط.

- ألم ترَ بعينيك جثة الرجل تغوص في مياهها الداكنة؟

- نعم، ولكنْ هل هذا دليل على أن بها تماسيح؟ لقد أصبحت تلك الحكايات تصيبني بالملل. تماسيح البحيرة وجيش الذئاب مثلهم كمثل تلك الأسطورة عن جنية البحر التي تسكن البحر المسحور.

- دعك من هذا كله أيها البرغوث. هل تستطيع أن تخمن من هؤلاء الفرسان؟

- إنهم يحملون شارات سلطانية خاصة.

- وماذا يفعلون بالداخل؟

- اذهب واسأل قائدنا إن كنت تجرؤ على ذلك.

غمغم بياض القرش وهو يحك صلعته:

- دعنا لا نسبق الأحداث، والخبر الذي يُشترى الآن، بعد قليل سيكون بالمجان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلف إحدى الستائر بالطابق العلوي وقفت رقية تتلصص، رأت زوجها يستقبل الفرسان بتبجيل، فاتتها تلك اللحظة التي عرَّفوه بأنفسهم فيها أثناء تنقُّلها لمكان أقرب لكي تسترق السمع، كانوا قد جلسوا حول كرسيه بينما يقوم الخدم بتقديم العصائر إليهم، كبيرهم ذلك الأشيب، لحيته بيضاء كالثلج جُمعت في ضفيرة واحدة، أخذ رشفة من طرف الكأس وبدا أنه يتذوق العصير، لحظات مرت قبل أن يعاود الكَرة ويرفع كأسه عاليًا محدثًا رجاله:

- أعجبني ذلك، إنه حار كتلك الصحراء الذاهبين إليها.

تعالت صيحات رجاله بالموافقة، بينما قال شاهين بفخر:

- سعيد بأنه نال استحسانكم، إننا نصنعه بطريقتنا الخاصة.

تجشأ أحد الرجال، وضحك الآخرون بينما قال كبيرهم الأشيب:

- سنبيت هنا ليومين، ومع شروق شمس اليوم الثالث سنتخذ سبيلنا إلى بحر الرمال، سنستعير منك ثلاثين من رجالك الأشداء ليساعدونا في تلك الرحلة، فقد سمعت أن تلك المجموعة من الخارجين عن القانون لا تتجاوز خمسة عشر رجلًا، ومع ذلك أسقطوا قافلة عظيمة. كما أريد دليلًا يحفظ الصحراء كما يحفظ تقاسيم جسد زوجته.

أومأ شاهين برأسه متفهمًا، والرجل يستطرد:

- وكما تعلم إن تمت المهمة بنجاح ستكون عطايا السلطان المعظم كريمة ووفيرة، بحيث يتم بناء مدينة كاملة وليس مجرد حصن يُشرف على قرى للفلاحين، وتلك نفحة منه على سبيل المحبة.

قبل أن يختتم كلمته ألقى بكيس نقود متوسط إلى شاهين، تلقفه بسهولة ورفعه أمام وجهه، كان جامد الملامح، لبرهة ظل على حاله ثم التفت إليهم بغتة مبتسمًا:

- عاش سلطاننا المعظم وفديناه من كل شر.

في تلك اللحظة كانت رقية تنسحب عائدة إلى غرفتها، وقبل أن تدلف للرواق اصطدمت بشخص ما؛ كانت أمينة الخارجة من الممر، تأوهت الأخيرة في حين أن قلب رقية كاد أن يتوقف، أفاقت من الصدمة سريعًا ورفعت سبابتها أمام شفتيها ثم جذبتها هامسة:

- لنذهب إلى الغرفة يا أمينة.

قطعت غرفتها جيئة وذهابًا، فيما تقف أمينة بالقرب من الفراش مستغربة من توتر رقية، فحدثتها:

- سيدتي رقية، هوِّني عليك الأمر، تعلمين أني بئر أسرارك.

جلست على طرف الفراش وتطلعت بوجه أمينة وقالت ببراءة:

- سيصطادونه.

- لا أعلم هل أنت قلقة على ذلك الذي يُدعى الذئب حقًّا؟

- ليس الأمر هكذا، فقط الأمر أثار شغفي وفضولي لمعرفة المزيد، لا أعرف، ربما الأحلام والكوابيس التي تراودني هي السبب.

- ها هم سيقتلونه وستنعمين بنوم هادئ، وسيسكت أهل الكَفر عن ذكره ثم ينسونه ويأتي شيء جديد يشغل عقولهم، أتعلمين يا سيدتي حين كنت صغيرة، كان الناس يتحدثون عن غيلان تسكن التل الشمالي. كم من قصص نسجت عن أطفال ذهبوا للعب هناك ولم يعُد أحد منهم، والفتيات اللواتي ذهبن لملاقاة عشاقهن قرب التل لم تعُد إحداهن قَطّ، وأشهر الحكايات هي الخسف الذي حدث لنصف التل لتخرج مكانه البحيرة، وها نحن الآن نرى بُنيان سيدي شاهين الحكمدار يزين الربوة الكئيبة، أين الغيلان مما يفعله بأرضهم. نحن من نخلق مخاوفنا.

- ولكن يقولون إن ذلك الذئب معه جيش من الرجال والذئاب، وقد سرقوا ذهبًا وأسلحة ملك السلطان، لذلك أرسل هؤلاء الفرسان.

هزت أمينة رأسها وابتسمت:

- كل ما أعرفه أن الذئاب غادرة ولا يستطيع أحد تربيتها وترويضها يا سيدتي، كل هذه مجرد حكايات كما قلت لك، ووحدها الأيام ستخبرنا بالحقيقة، هل أجهز لكِ الغداء؟

- لا، سأخلد للنوم.

خرجت أمينة غير راضية عن حال سيدتها، التي نهضت وتوجهت إلى المشربية الخشبية، هواء خريفي بارد يمر عبر فجواتها، يعبث بشعرها الناعم، راحت تتابع ببصرها سربًا من طيور اللقلق تحلق فوق رؤوس النخيل البعيدة. صهيل جواد أسقطها من سماء شرودها، كانت الخيل تُقاد إلى الحظيرة بينما وقف الفارس الأشيب أمام مجموعة من درك زوجها، يبدو أنه يختار من سيرافقه في رحلة صيد الذئب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أتعرف يا سلَّام؟ أنا الأسوأ حظًّا على هذه الأرض.

تمتم سعد بتلك الكلمات وهو يرتدي ملابسه استعدادًا للرحيل مع «صائدي الذئاب» كما أسماهم الدرك، كان متأففًا مع أنه حظي بصديرية من الجلد المدبوغ وقميص جديد وحذاء طويل، كان يُلملم ملابسه القديمة ويضعها في صندوقه الخاص حين سمع سُباب بياض القرش، استدار ليجده يمزق أحد كمي قميصه، بينما جسده الضخم حُشر في الصديرية الجلدية، الأمر الذي جعلهما ينفجران ضحكًا أمام نظرات بياض القرش الغاضبة. راح سلّام يساعده في ربط الأحزمة ولكن من دون جدوى، وانتهى الأمر بخلع الكُم الآخر، كان المُغني يود الذهاب معهما ولكن فرسان السلطان لم يختاروه، ودَّعهم متمنيًا لهم السداد في مهمتهم، وربما يكتب أغنية عنهما ويتلوها على مسامعهم حين عودتهم، خرج الرجال مرتدين الدروع الجديدة عليهم وتوجهوا جميعًا إلى قصر الحكمدار، تراصوا في ثلاثة صفوف يعتمرون خوذات من الجلد المقوى، عدا بياض القرش لم تناسبه أي واحدة من تلك الخوذات السخيفة، كان أضخم الموجودين جثة، يبرز من الوسط كأنه برج ضخم وسط مبانٍ ضئيلة، مر بعض الوقت وهم على تلك الحالة، الليل يلملم سواده للرحيل مفسحًا المجال لضياء الفجر، وعلى ضوء المشاعل رأوهم يخرجون من منزل شاهين الذي كان في المقدمة ومن خلفه قائد الفرقة وبقية الفرسان، صمتٌ لم يدُم طويلًا بفضل الرجل الأشيب الذي قال بصوت جَهْوري:

- كثير منكم لا يعرفني. أنا الأمير راجي ويلقبونني بصائد الذئاب، أحسب أنكم الأفضل بين أقرانكم. ولا أظن أننا ذاهبون إلى نزهة أو لقضاء وقت ممتع في رحلة تخييم، لم نأتِ هنا إلا للقصاص من القتلة عديمي الرحمة،

سيحصلون على جزائهم بأيديكم أنتم، فلا تأخذكم بهم شفقة، فإما أن نعود منتصرين أو نلحق برفاقنا الذين قُتلوا غدرًا في تلك الصحراء المقفرة. سيتم تزويد كل واحد منكم بالسلاح الذي تدرب عليه والذي يفضله. وتذكروا أننا ذاهبون إلى الموت في عقر داره، فودعوا أحباءكم فلعلها تكون نهايتنا، أو نهايتهم.

لا أحد ليودعوه سوى سلَّام، إنهم غرباء جاءوا باحثين عن حياة رغدة فمنحهم القدر عكس ما تمنوا، لا حيلة لهم ولا عزاء سوى أن كلهم مجبرون على هذا، وليس لهم من الأمر شيء، قبلوا العمل كبنائين ونجارين وحاملي قِرب السقاية، جنود إن لزم الأمر، وخدم حين يريد الحكمدار ورجاله المقربون، وقفوا يستلمون أسلحتهم، قوس جديد مُطور لسعد الذي أصبح راميًا مميزًا، وفأس من الصلب المصقول لبياض القرش، أخذ يؤرجحها بيده مستعرضًا مهارته على الرغم من حركته الثقيلة، وكانت المفاجأة السارة حين منحهم الحكمدار خيولًا جيدة، قال إن هذا هو الوقت المناسب ليكون لديه فرسان، ودعهم مبتسمًا بثقة أن رجاله سيكونون على قدر المسؤولية وسيعودون سالمين مزودين بخبرات أفضل، ما داموا سيحظون بقيادة ذلك الفارس المُكنَّى صائد الذئاب. مع قدوم الشروق خرج الجيش الصغير من كَفر البردقوش يتقدمه الدليل، ومن خلفه فرسان السلطان حاملين فخاخهم العجيبة، وفي المؤخرة خيالة الحكمدار وجملان يحملان مؤنًا تكفي رحلتهم إلى المجهول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صُبغت السماء بحمرة الغروب، ماتت شمس اليوم وبقيت دماؤها تلطخ السحب القليلة في الأفق، كانوا قد وصلوا إلى حافة خندق السراب، جحظت الأعين وفغرت الأفواه، مشهد مهيب والريح تعبث بالغبار على حافة جرف سحيق، هنا تنتهي حدود سلطنة بني الأزرق، أخدود عظيم عمقه يزيد على ثلاثين قدمًا، كان في زمنٍ ما نهرًا عظيمًا جاريًا ولكنه جف ولا أحد يعلم السبب، أطلال المدن القديمة على حوافه تشهد بأن حضارة عظيمة كانت هنا ذات يوم، قرى مهدمة لأناس كانت لهم حياة وأحلام، والآن منازلهم أضحت مرتعًا للأشباح والقصص المخيفة، هناك خرير ماء يسمعه الجميع، النواعير الخشبية المتآكلة فارقت الحياة، ومع ذلك صوت الخرير مستمر، وأمام دهشة الفرسان قال الدليل إن الرياح تمر بين التجاويف الصخرية وتصنع ذلك الصوت، بدأت الظلال تهيمن على الخندق، والليل يزحف ببطء قادمًا من الشرق، حثهم راجي على التقدم عبر القنطرة الوحيدة المتبقية على طول الأخدود، كانت قديمة جدًّا بالية لكنها ضخمة، تستقر فوق أربعة أعمدة كبيرة، بعث مظهرها الرهبة في النفوس خاصة بوابتها التي يحرسها تمثالان عظيمان لأسدين مُجنحين عبث الزمن بملامحهما، صاروا أكثر رعبًا،

وظلال المغيب تضفي عليهما هيبة أسطورية مخيفة، عبروا القنطرة بروية وحذر لا يقطعه سوى صوت حوافر الخيل على الصخر.

بعد عبورهم أشار أحد الفرسان ويُدعى مراد على قائده بالتخييم، ولكن راجي رفض ذلك الاقتراح قائلًا بغلظة:

- سنخيم على شاطئ بحر الرمال، وفي الصباح سنخوض غماره.

وافقه الدليل بإيماءةٍ من رأسه وقال بسرعة:

- سأريكم بقعة مميزة تصلح للتخييم فهي مرتفعة بما يكفي لنرى بحر الرمال ممتدًّا أمامنا، وهذا سيمنحنا أفضلية إن حاول أحد الهجوم علينا.

- جيد، ولكن تذكر أننا يجب أن نذهب لتلك البقعة التي وقع فيها الحادث، لعلنا نجد شيئًا ما يخبرنا عن هؤلاء القتلة.

خيم الجيش الصغير على حافة بحر الرمال، ربوة عالية اكتست بالشجيرات الصحراوية ذات الجذور الغنية بالسوائل، كانت كافية ليرعى خمسون من الخيل والجملان العظيمان، أُوقدت النيران وأُحيط المخيم بالمشاعل، على الرغم من الرياح الجافة القادمة من الصحراء كانت الحماسة تملأ الرجال، بعد يوم طويل من الركوب وجبت عليهم الاستراحة، أخلد معظمهم إلى النوم بينما ظل ثلة منهم يحرسون، بياض القرش كان أحدهم، جلس على حافة المنحدر غارسًا فأسه في الرمل وقد خلع حذاءه الطويل، حرك رأسه يمينًا ويسارًا ليصدر طقطقة ثم استرخى متأملًا زرقة الليل المرصع بآلاف النجوم والكواكب. شهيق طويل ملأ به صدره، تلك الحرية التي كان يَحلم بها، عاش عمره بين السجن والأحياء الفقيرة بمدينة البوغاز، والآن صار جنديًّا يرافق خيالة السلطان في مهمة عسكرية ضد الخارجين عن القانون، كان يغالب التشاؤم الذي ملأ قلبه بأن القادم دومًا أسوأ، ولكنه اختار هذه المرة أن يسير على درب جديد، أن يترك حياة التسكع وفرض النفوذ على الضعفاء والمومسات، أراد الراحة، فوجد نفسه في الصحراء مع أناسٍ بالكاد يعرفهم، عجيبٌ أمر هذه الحياة؛ تلقي بنا حيث تريد وليس كما نشاء، في صغره كان الصبية يخشونه لضخامة جسده الذي كان حائلًا دون تنمر أي شخص، الكبار يعاملونه على أنه شخص سيئ بغيض والصغار يتحاشونه، صار ما أرادوا وليس ما يريد هو، يذكر ذلك اليوم الذي وجد فيه عصفورًا كسير الجناح فأمسكه برفقٍ وذهب به إلى المنزل، عنَّفته أمه قائلة:

- كيف تفعل هذا بالطائر المسكين يا بياض؟

لم تكُن لديه فرصة ليدافع عن نفسه، وضحك عليه أخوه الأصغر أيضًا قائلًا:

- عارٌ على عملاق مثلك أن يلعب بالعصافير.

تمنى أن يكون بحارًا فصار مجرمًا مطارَدًا من الدرك، سُجن لفعلٍ لم يقترفه، وفي السجن قتل شخصًا بدفعة واحدة وذاع صيته، ليت الناس تعلم أنه لم يقصد قتله، ذكريات عدة دارت بخلده بينما يتطلع إلى الظلام الجاثم أمامه، تلك الصحراء التي عليه أن يخوضها في رحلةٍ قد تضيف الكثير لحياته، ليحظى بكرامة ونبالة يستحقها، كل ما عليه أن يثبت نفسه كمقاتل بارع مدافع عن الحق والمستضعفين.

- بياض، ماذا بك؟!

انتبه إلى صوت سعد فالتفت ليجده يجلس إلى جواره:

- سعد؟! منذ متى وأنت هنا.

- منذ قليل. حدثتك مرتين ولكنك كنت غارقًا في بحر الشرود، يبدو أن بحر الرمال نال من عقلك.

- كنت أفكر في الغد وكيف ستكون هذه الرحلة.

قال سعد بصوت خافت وهو يلف شريطًا قماشيًّا على مقبض قوسه:

- أحد رجالنا يجزم بأنه سمع رشوان يتحدث إلى الحكمدار، والأخير يؤكد أنها رحلة عادية نستكشف فيها الصحراء، وأننا لن نجد شيئًا في نهاية بحثنا. اسمع يا بياض، علينا التقرب من ذلك القائد المدعو راجي، إنه قريب للسلطان ولعلنا نذهب معه إلى العاصمة، بالتأكيد ستكون حالنا أفضل من كَفر البردقوش، أليس كذلك؟

- نعم، ولكني أشعر أن هناك شيئًا سيحدث غدًا.

- أتعرف يا بياض؟ كنت دومًا تطمئنني والآن دوري لأقول لك؛ اطمئن يا صديقي، سيمر اليوم ولن يحدث أي شيء، ولكن مهما حدث يا بياض لن نفترق وسيدافع بعضنا عن بعض. ليت سلّام هنا لينشد لنا أغنية تكسر صمت تلك الليلة، على كل حال سأعود للنوم قرب حفر النيران فالبرودة تشتد الآن. أنت أيضًا حاول أن تنام قليلًا، فلا أحد لديه الجرأة لمهاجمتنا.

نهض فور ختام كلماته، وقبل أن يمضي إلى مكانه استدار إليه مستطردًا:

- بياض، شكرًا لك.

رافقت شمسَ الصبيحة الحارة رياحٌ شديدة، الأمر الذي أزعج راجي ورجاله، تقدمهم الدليل مؤكدًا أن هذه بوادر عاصفة رملية ولكنها بعيدة تمامًا وسرعان ما ستهدأ الأجواء، فبحر الرمال دومًا ما تحدث فيه تلك التقلبات، أخبرهم أنه كان بحرًا في غابر الأزمنة، بحر حقيقي به أسماك وحيتان وحوريات ما زالت هياكلها العملاقة موجودة في عدة أماكن، كان يقسم إنه رأى في أحد الكهوف رسومًا لتلك الحوريات، ومعظم القصص كان يعترف

أنه ورثها عن آبائه وأجداده، ومع ذلك لم تثِر أي شيء داخل نفس راجي الذي كان يستمع إليه، وحين سئم ثرثرته وتلك الحكايات سأله:

- هل بقي الكثير لنصل إلى ذلك المكان؟!

- لا يا سيدي، لم يتبقَّ سوى القليل، إنه أمامنا مباشرة، عند ذلك التل الكبير.

أوقف راجي جواده والتفت إلى رجاله قائلًا:

- حسنًا، سنفترق هنا. سنقسم أنفسنا إلى فريقين. مراد، خذ معك تسعة من رجالنا وخمسة عشر من رجال الحكمدار واذهب إلى الغرب، قم باستكشاف المنطقة وابحث عن أي دليل قد يقودنا إلى كهوفهم أو مخيماتهم، وأنا سأقود البقية شرقًا ونجتمع مرة أخرى عند ذلك التل الصخري البارز، فهناك وقعت المجزرة.

بدأ الرجال في التحرك كما أمر، بإيماءةٍ ودَّع بياض القرش سعد الذي سيذهب مع الفرقة الأخرى إلى الشرق، في حين أشار راجي للدليل بالتقدم، قضوا وقتًا طويلًا يجوبون الكثبان الرملية بحثًا عن شيء يفيدهم قبل العودة إلى نقطة الالتقاء، بخطوات بطيئة راحت الجياد تنزل إلى السهل المنبسط، تُرك حارسان يراقبان المكان في أعلى نقطة، ليس هناك أي شيء، فقط بقع داكنة في مواضع شتى، ترجَّل عن صهوة حصانه وكذلك فعل كل رجاله، راحوا يتفحصون كل شيء، ليست هناك بقايا، لا عظام، لا أسلحة، لا ملابس، لا شيء سوى دماء جافة، رفضت اليابسة محوها على الرغم من مرور أشهر، كان راجي يحاول تخيل ما حدث وفق شهادة الناجين الثلاثة، تجول برفقة الدليل متفحصًا كل شبر حين اشتدت الرياح فجأة، وصاح أحد الرجلين أعلى التل:

- العاصفة تقترب. علينا الرحيل.

تطلع إلى القائل بصمت ثم عاد ببصره إلى الدليل، كان الرجل يجثو على ركبتيه ويتفحص شيئًا ما، توجه إليه ووقف إلى جواره، اشتدت الرياح وصار الجو عاصفًا محملًا بالأتربة، والدليل ينبش الأرض بسرعة، وفارس التل يصيح: «علينا الرحيل». صفير الرياح يصم الآذان، وحبات الرمل تلسع وجوه وأجساد الجياد فتوترت وراحت تصهل، وأخيرًا أخرج الرجل ما كان يريد، عظمة فخذ كبيرة يبدو أنها لحصان، تفوح منها رائحة عفنة تزكم الأنوف. أخذها راجي من الرجل بعد أن خلع قفاز يده اليمنى وراح يتحسسها، ضاقت عيناه، وأصابعه توقفت عن الحركة، والرجل الضئيل يؤكد مخاوفه بصوت مرتفع:

- سيدي، إنها آثار أنياب كبيرة واضحة.

لم يجِبه راجي المستغرق في التفكير، وبياض القرش ينادي في رفاقه بصوته الأجش:

- سنهلك إن بقينا هنا.

وقال الدليل بنبرة مترددة:

- سيدي، يجب علينا ألا نوجد هنا، سنكون في قلب العاصفة بعد قليل.

- كيف لدليل مثلك ألا يعرف متى تهب العواصف، وأي اتجاه تسلك.

قالها راجي وهو يضع العظمة داخل جراب من قماش مخملي، والرجل يتمتم متوترًا:

- سيدي، أنا لا أتحكم في اتجاه الرياح والطقس.

رفع راجي بصره إليه غاضبًا، في تلك اللحظة التي وصلت فيها العاصفة الرملية، صهيل الخيل ضاع وسط هدير العاصفة، ركضت مبتعدة على غير هدى، بصعوبة بالغة نادى رجاله:

- اثبتوا وارفعوا ألثمتكم فوق الأنوف، حاولوا ألا تفترقوا.

ابتلعتهم الغبرة. وراحوا يتخبطون، يسقطون وينهضون، يتفادون ظلالًا لا يعرفون ماهيتها، والهواء يتلاعب بأجسادهم ويتلذذ بإسقاطهم ودفعهم، الظلام صار يسيطر ويهيمن، والريح تعوي أكثر، وكأن الشمس لملمت ضياءها ورحلت خائفة، كانوا ينادون بعضهم بعضًا من دون جدوى، فضَّل الكثير منهم غلق فمه حتى لا يمتلئ بالتراب، والعاصفة بدت أبدية لا نهاية لها، يسقط أحدهم ويتدحرج ليرتطم بصخرة، وآخر يتشبث بالأرض بكل قوته والريح تجذب عباءته حتى ظفرت بها، وقْع أقدام الخيل الهاربة تَمازَج مع صيحات غريبة حتى ارتطم شيء ما بأحدهم فصرخ متألمًا، من كان قريبًا منه سمع تمزق لحمه وتكسير عظامه، مما جعله يسحب البندقية عن ظهره ويشهرها محاولًا اقتناص أي شيء يتحرك، بصعوبةٍ كان يفتح عينيه من جراء حبات الرمل، وعلى رمقٍ من ضوء نهار غائب رآه يقترب منه راكضًا، وربما كان يطير هنا وهناك، ارتعشت يداه؛ كان خائفًا وذلك الشيء قادم مندفعًا نحوه، وأطلق في اللحظة التي اصطدم به فيها ذلك الشيء.

صوت الطلقة كان كهزيم الرعد، صم الآذان على الرغم من الجو العاصف، مر وقت ودوت طلقة ثانية وثالثة، وقع حوافر خيل جاءت من الجحيم، صرخات وإصابات وتتابعت الطلقات النارية، صهيل خيول خائفة، وأنات احتضار وألم، معركة هادرة تدور وسط العاصفة، وبياض القرش هائم لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، كان خائفًا يرتجف، شَعر بملك الموت يمر إلى جانبه، حاول الركض ولكن قدميه لم تسعفاه، ارتطم به حصان يفر من

الموت أيضًا، ظل ملقى على وجهه أرضًا غير قادر على النهوض، حاول مقاومة ذلك الظلام الذي أمسك برأسه لكن من دون جدوى، استسلم مجبرًا. صخب وصليل دام طويلًا، حتى بدأ هبوب العاصفة يَخفت، وحين بدأت تنقشع رويدًا كان السكون قد صار ملك الخواء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عقرب أسود لامع خرج من بين الرمال، ركض يمينًا ويسارًا، الشمس مشرقة كعروس تجهزت لعُرسها، وجدار العاصفة مضى مبتعدًا في الأفق البعيد، أخذ يتجول فوق الرمال متبخترًا بذيله الملتوي، كُثبان لا نهاية لها، يبدو أنه فقد الطريق إلى جحره أو ربما يبحث عن وجبة تسد رمقه بعد العاصفة الهوجاء، خاض بحر الرمال بنعومةٍ يصعد ويهبط ثم توقف. أجساد ملقاة هنا وهناك، بعضها دُفن تحت الرمال لا يظهر منها سوى الأقدام والأيدي والدماء، برك من رملٍ أحمر قانٍ، بنادق متناثرة وسيوف مطمورة، وكأن تلك البقعة من الأرض كُتب عليها أن ترتوي بالدماء، تجول العقرب بين الجثث، جميعهم موتى، فرسان السلطان ورجال الحكمدار، كذلك العديد من خيولهم قضت نحبها، اعتلى العقرب أحد الكثبان وسط الساحة، ربما كان يتساءل عما حدث هنا، أي شيء قد فعل بهم هذا؟! واهتزت الأرض من تحت أرجله الست، إنها ترتفع به، حاول التشبث بأي شيء والرمال تنزلق لأسفل كشلال جارف من رمل، أخيرًا استطاع أن يمسك بقطعة جلدية سميكة، والآن استوعب الأمر. كان يقف على صدر عملاق أخذته نوبة سعال شديد وراح يبصق ويشهق، دام ذلك لبعض الوقت حتى هدأ، جلس على ركبتيه وأخذ يمسح وجهه وينفض الغبار عن لحيته الكثة، وبعدها ظل ساكنًا لبرهة، وأثناء ذلك سقط العقرب أمامه، قفز واقفًا بسرعة من شدة فزعه، تراجع خطوة للوراء وفرك عينيه بقوة، ثم فتحهما باحثًا عن العقرب البائس الذي ظل يركض بين الجثث. شعر بيدٍ باردة تعتصر قلبه، تلك أجساد أناس يعرفهم، رفاقه في درك الحكمدار وخيالة السلطان، مشى بينهم والذهول يعتصر عقله، لا يصدق ما يرى ولكنها حقيقة، تمتم:

- ربما هذا حلم لعين.

لطم وجهه مرتين وشعر بالألم، نعم، إنه حي وهذا واقع وليس حُلمًا، جال بين القتلى يتفحصهم، هذا قُتل بالبارود وهذا طُعن حتى الموت، وتدٌ خشبي استقر في معدة آخر، إنها مجزرة، سيف رُشق بمنتصف ظهر أحد الفرسان، العجيب أنه من نفس نوع السيوف الخاصة برجال السلطان، جثا على ركبتيه وقلّب الجسد، كان راجي وقد اخترق السيف صدره، عيناه مفتوحتان جامدتان، وجديلة لحيته الشيباء تبدل لونها، الكثير من الدماء لفظها فم الرجل قبل أن يموت، حك صلعته بقسوة ورفع رأسه للسماء ثم عاد ببصره إلى بقية الجثث، الكثير من الخيل ميتة وقليل منها يحتضر، مراد أيضًا فارق الحياة وحصانه يجثم فوق صدره؛ أصيب برصاصة مميتة في الرأس. اللعنة،

هؤلاء رجال الفرقة التي ذهبت شرقًا، كيف أتوا إلى هنا؟ كان معهم سعد. نعم، كان معهم. كان ذاهلًا خائفًا يرتعد لا يفهم ما حدث. كل ما يذكره العاصفة ثم صوت البواريد، أخذ يتفحص الموتى ويركض بين جثثهم بحثًا عن صاحبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لماذا خُلقت وجئت إلى هذه الدنيا؟ لماذا كُتبت عليَّ المعاناة؟ أنا الوَحش المريع، بياض القرش، قاتل ومجرم أراد التوبة عن أفعال ارتكب بعضها كُرهًا، كل ما أردته أن أعيش مثل بقية البشر، أن أكون إنسانًا ذا قيمة ومكانة، والآن أصبحت وحيدًا في تلك الصحراء اللعينة. كان يُحدث الشمس الغاربة، لا يدري كم من الوقت مر عليه وهو جاثٍ على ركبتيه. أعياه البحث عن سعد أو أيٍّ من الأحياء، كان قد أحصى الجثث: ثلاثة وأربعون رجلًا من بينهم الدليل، ولا أثر لسعد والبقية، آثار حوافر الخيل الفزعة منتشرة حول المكان، ربما ركب صاحبه أحدها هو والناجون، ظل قابعًا في مكانه لعلهم يعودون ولكن الوقت مر ببطء ولم يأتِ أحد.

جاء الليل ببرده الذي ينخر العظام، وتحول الصهد إلى صقيع ينتاب جسده، سحب من إحدى جثث فرسان السلطان بردتها الحمراء، تلك التي تميزهم عن بقية رجال الحكمدار، التحف بها وجلس بين الأموات، صمت رهيب وشعور بالخوف لم يزُره منذ زمن بعيد، وصوت من الماضي يصم أذنيه: «أنت وَحش يا بياض. أنت قاتل عديم الرحمة أيها الضخم». كان يرتجف وقد وضع يديه على أذنيه وأزيز الريح يعبث بالرمل حول الأجساد الخاوية من الحياة، استجمع قوته ونهض يبحث بينهم حتى وجد قربة ماء، شرب حتى ارتوى ونفدت القربة، أراد النوم ولكنه خشي ألا ينهض مجددًا، الموت. لماذا نموت ولماذا يجب عليَّ أن أموت هنا؟ جميعهم كانوا أحياء قبل نهار، هل كان الموت يسير بيننا طوال هذا الوقت؟ لماذا اختارهم؟ راجي، مراد، وغيرهما من الرجال، وسعد الذي لا أثر له. غفا واستيقظ على عواء بعيد يقطع سكون الكون، لا بد أنني أحلم، قبض على فأسه بقوة وعيناه تجولان بحثًا في المكان، الظلام سيد المكان وهلال وليد أخجل من أن يضيء تلك البقعة المشؤومة. وعاد العواء، كان أقرب هذه المرة أو هكذا بدا له، زحف على بطنه بين القتلى، كان يريد الحصول على إحدى تلك البنادق، لن تكون نهايته هكذا أبدًا، لن يكون طعامًا للذئاب. استجمع شجاعته ونهض يركض نحو بندقية راجي المذهبة، ألقى بفأسه والتقطها. دار على عقبيه مصوبًا للفراغ، لا يستطيع السيطرة على أنفاسه المتلاحقة، شعر بحركةٍ خلفه، تلفت ولم يجد شيئًا، ظل يجول ببصره في المكان، محاولًا تحديد مكان ذلك اللاحم المفترس الذي جاء ليقتات على القتلى، حدد هدفه وضغط الزناد ولكن لم تنطلق الطلقة، أخذ يتفحص البندقية ويقلب فيها بسرعة، ينقل بصره بينها وبين... مهلًا أين ذهب ذلك الشيء؟

قضى ليلته بين الموتى، يتحسر علي حظه العاثر، ليته تعلم استخدام ذلك السلاح، تلك البنادق اللعينة بدلت أساليب الحرب وصار الجميع سواسية أمامها، كان يحاول أن يُعمرها بالبارود كما رأى الجند يفعلون، قليل من مسحوق البارود وطلقة جديدة ثم يُدخل ذلك السيخ في الفوهة ليثبت المحتوى جيدًا، هكذا إذن. حاول أن يجرب الإطلاق وفشل الأمر أيضًا. الأمر الذي زاد من توتره وقلقه، علقها على ظهره وظل جالسًا ممسكًا بفأسه حتى بدأ الليل يتقهقر أمام ضياء الفجر. نهض وأخذ سيف راجي ذا المقبض الذهبي وقَبيعة من العاج المنحوت على شكل صقرٍ باسط جناحيه لتحكم إمساك السيف، عمامة أحدهم ستفي بالغرض لحفظ صلعته من الشمس الحارقة، وقربة صغيرة ممتلئة بالماء ستكون كل زاده، ارتقى التل وألقى نظرة طويلة على القتلى، كان قد قرر ألا يضيع مجهوده وما تبقى في حياته ليدفنهم، ستتولى الصحراء ونسورها وذئابها الأمر. أما هو فعليه العودة إلى كَفر البردقوش لعل سعد اتخذ سبيله إلى هناك أيضًا.

الشمس دليله الوحيد. استطاع تحديد الشمال، ويذكر أن الخندق لم يكُن بعيدًا كل هذا البعد عن المكان الذي نزلوا إليه، ولكن العاصفة بدلت كل المعالم التي يذكرها. كان يجر قدميه فوق الرمال الحارقة شاعرًا بالجفاف والإرهاق، لا ظلال يأوي إليها في هذا الجحيم السرمدي، أخيرًا قرر الجلوس إلى صخرة وحيدة مثله، أغمض عينيه مسندًا ظهره إليها وبعد قليل سمع دبيبًا يقترب من خلفه، نهض ليرى، فإذا بجواد أحمر جامح ينطلق مارًّا بجواره، لم يعرف كيف يتصرف، نقل بصره ليرى ممَّ يجري ذلك الفحل الذي ينتمي لخيول فرسان السلطان، الصحراء خاوية والجواد يبتعد عنه أكثر حتى اختفى في سراب الظهيرة.

كان قراره باتخاذ الطريق الذي جاء منه الحصان أمرًا ليس بصعب، كان يبحث عن أي أمل، على الرغم من يقينه أن ذلك الجواد كان يركض فزعًا، فإن شيئًا بداخله جعله يعود أدراجه، لعله يجد أحد الأحياء وربما يكون هناك من يحتاج لمساعدته، لعل سعد هناك وهذا سبب كافٍ ليسير في ذلك الطريق، لطالما كان يعتبر سعد رفيق عمره، قضيا معًا سنوات بالسجن، كان مجرد برغوث يستقوي عليه السجناء حتى قرر هو حمايته، كانا بائسَين بحاجة إلى بعضهما دومًا، رفيقين في الألم والظلم الذي تعرضا له من الدرك، ولكن بياض كان لا يتوانى عن إظهار قسوته إذا تحتم الأمر، وذلك ما جعل الجميع يخافونه ويحترمون سعد لأجله، شعور بالمسؤولية حمله بياض على عاتقه نحو صاحبه الضعيف، هو الذي جاء به إلى هنا وعليه أن يجده مهما كلف الأمر.

كان من السهل تتبع الطريق الذي أتى منه الحصان، المسافة طويلة ولكنه تحامل على وجع مفاصله وعطشه وجوعه، يقين نما بداخله كشجرة لبلاب تتسلق حتى عقله، تلتف حول رأسه وتثبت أغصِانها في ثنايا صلعته أسفل

العمامة، بعد ساعة من السير وجد منحدرًا رمليًّا تنتهي عنده الآثار، الأرض الجدباء ممتدة في الأسفل، تتوسطها تلال صخرية بعيدة، كان في أعلى نقطة وكل شيء أسفله ضئيل جدًّا، ارتفاع شاهق ولا سبيل للنزول سوى... تعثر فخانته قدماه فسقط، راح يتدحرج على الرمل بقوة مندفعًا لأسفل. طاحت عمامته وأفلت فأسه محاولًا التشبث بأي شيء من دون جدوى، أغمض عينيه ثم ترك نفسه لانزلاق عنيف.

تجربة موجعة، نهايتها الاصطدام بالأرض الصلدة بقوة، ظل راقدًا على ظهره محملقًا في السماء لبرهة ثم انفجر ضاحكًا، وسرعان ما صار الضحك بكاءً من شدة الألم، كان لا يذكر متى بكى للمرة الأولى. البندقية المذهبة إلى جواره، تحسس جسده ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام، سيف راجي ما زال بحوزته، فقط جرح بسيط بجنبه الأيمن يقطر دمًا، تحامل على آلام أضلعه ونهض بصعوبة مستندًا على البندقية، كان يهتز وقدماه لا تقويان على حمله، خشي أن يقع فأغمض عينيه للحظة وأخذ نفسًا عميقًا آلمه وحدث نفسه:

- ما زالت في العمر بقية يا بياض.

وإن كانت كلمات عزاء للنفس إلا أنه فتح عينيه ونظر خلفه للمنحدر الرملي الناعم، ثم رجع ببصره إلى الأرض المنبسطة أمامه وبدأ يتحرك مستندًا على بندقيته، مشى ببطءٍ شديد كحلزون يركض فوق عشب زلق.

كان يسير باتجاه الشمس الغاربة حين رأى جسدًا ملقى على وجهه، ملابسه تؤكد أنه أحد رجال الحكمدار، حث خطاه متوجعًا ولما اقترب منه عرفه؛ إنه سعد، نعم هو، هذا قوسه ذو الشرائط الحمراء. جر قدميه جرًّا وما إن وصل إليه حتى نزل على ركبتيه ممسكًا بظهر صاحبه، قلبه بروية تتناسب مع ألم ساعديه قائلًا:

- سعد، استيقظ. سعد، لا تمُت يا صاحبي.

رجَّ جسده الضئيل وهو يحدق في وجهه الأسمر الشاحب المغطى بالغبار الأصفر، فتح سعد عينيه بوهن متأوهًا وبياض يقول فرحًا:

- أأنت بخير؟

- إن ظللت ترج فيَّ هكذا لن أكون بخير.

- لا تؤاخذني يا رجل، لقد بحثت عنك كثيرًا، كنت على يقين أني سأجدك حيًّا.

جال سعد ببصره في أرجاء المكان:

- يبدو أننا ابتعدنا كثيرًا عن رفاقنا.

- لم يعُد الأمر مهمًّا، لقد ماتوا جميعًا.

كان صوت بياض كئيبًا حزينًا، وطال الصمت بعد كلمته، ثم أردف:

- لا أعلم كيف يحارب هؤلاء الرجال في قلب العاصفة، إنهم سحرة أو صنف من الشياطين.

- لا أعرف يا بياض. كل ما أذكره أنه حين قامت العاصفة كنا بالقرب منكم. سمعنا صراخًا شديدًا وقد قرر القائد مراد أن يدخل إلى العاصفة لنجدتكم، ولكن وابلًا من البارود حصد معظم الرجال، لم أجد سبيلًا سوى الهرب عكس اتجاه الريح، وحين انتهت العاصفة كنت قد ابتعدت كثيرًا، ووجدت أحد الرجال في الأفق، تبعته ولكني لم أستطِع اللحاق به. وبعد فترة رأيته يا بياض، لقد هاجم حصاني.

- من؟

أجاب سعد بعد أن عض شفتيه وهو يشيح بوجهه:

- ذئب ضخم لم أرَ مثيلًا له. كان يطاردني، استطعت الفرار منه ولكن الحصان لم يستطِع تسلُّق الجرف وأنا على صهوته، ألقاني أرضًا وركض مبتعدًا.

- أنا أيضًا أحسست به يحوم في المكان، كان يتنقل بين جثث القتلى في الليل. ولكن ماذا علينا أن نفعل الآن؟

- كل ما أعلمه أنني اكتفيت من هذا الأمر يا بياض، انظر؛ معي صُرة من الدراهم الذهبية والحلي، تكفي لأن نبدأ حياتنا من جديد في أي مدينة، وربما نذهب إلى مملكة الساحل فلا أحد يعرفنا هناك.

- من أين أتيت بها؟

سأل بياض ولم يُجب سعد فتابع الضخم بسؤال آخر:

- هل سرقتها من الفرسان؟

- وهل تنفع النقود الموتى؟ حتمًا كان ذلك الذئب مجرد طليعة لجيش القتلة، أخذت ما أستطيع حمله، تلك البندقية وبعض الحلي من خواتم وقلائد، لملمت ما أستطيع حمله من أشياء لن يحتاجوها، أوليس هذا ما فعلته أنت بسيف القائد راجي؟

- كنت سأعيده إلى كَفر البردقوش.

اقترب منه سعد ونظر بعينيه وقال بصوت عميق:

- آنت مسكين يا بياض. تعيد ماذا يا رجل؟ انسَ أمر كَفر البردقوش الملعون هذا تمامًا ولنرحل عن هنا.

- ماذا لو طاردنا رجال الحكمدار؟

- لن يجرؤ أحد على عبور تلك الصحراء. حتى نحن ما زال أمامنا وقت لنخرج من بحر الرمال هذا، أو نبقى فيه للأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4- البرغوث ملكًا

عاد سعد إلى كَفر البردقوش في اليوم الثامن من خروج الفرقة، وحده على صهوة جواد حربي منهك. وسم صدره وفخذه بعدة خدوش، كمن نجا من براثن قطيع أسوِد، عبر بوابة النخيل أمام نظر الدرك وركب من التجار الخارجين من الكَفر، وجهه مغطى بالدماء الجافة كجفاف شفتيه المشققتين من قلة المياه، عضده ملفوفة بضمادة من قماش ملوث بالدم والغبار، اتخذ دربه عبر الطريق الرئيسي للقرية، والناس من كل حدب يأتون نحوه، بخطوات بطيئة واهنة اتخذ الحصان سبيله وانتشر الخبر كالسيل بين المنازل، أما هو فكان صامتًا كالوجوه الملتفة حوله، الأعين جامدة تتطلع إليه بخوف. ومئات الأسئلة تدوي في العقول، مر بينهم متهاديًا غير مبالٍ بأشجار الفضول التي نبتت على جانبي الطريق، وقرب ساحة السوق كانَ رشوان ومجموعة من الدرك في انتظاره، أمسك أحدهم بلجام مطيته وقادوه إلى قصر الحكمدار شاهين.

وقف سعد ساكنًا في منتصف القاعة، بينما شاهين ينزل الدرج وعيناه تتفحصانه، بخطوات واسعة أصبح أمامه، أخذ يتطلع إليه لبرهة ورشوان يمنحه إبريق ماء رفعه سعد ليروي ظمأه، كان يشرب والماء يسيل منسابًا على لحيته النامية ورقبته المتسخة بالدماء والتراب، شارد الذهن لا يدري ماذا يقول وماذا عليه أن يقص على مسامعهم، أنزل الإبريق عن وجهه فالتقت عيناه بعينَي الحكمدار الذي تفحصه جيدًا قبل أن يسأله بنبرةٍ يشوبها قلق جلي:

- ما الذي حدث؟

- قُتل الجميع.

ضاقت عينا الحكمدار وعُقد حاجباه الأسودان:

- فرسان السلطان!

- فتكوا بهم أولًا.

رجفت عينه اليسرى ومال بجسده للأمام هامسًا بخفوت:

- من هؤلاء؟

- جاءوا مع هبوب العاصفة، ولدوا من رحمها، لم يأخذ الأمر منهم سوى زمن مرورها، من بنادقهم انبثق البرق ودوَّى الرعد، كانوا يمتطون ذئابًا بحجم الخيول.

جلجلت ضحكة شاهين فجأة، رددتها الجدران الرخامية ونقلتها إلى حيث تقف رقية، التي جاءت مهرولة لترى زوجها الذي كان منذ لحظة يضحك مقهقهًا، تبدلت حاله في لحظة، صار غاضبًا كما لم ترَه من قبل، انقض على الشاب المصاب وأمسك عنقه بيده اليسرى، لم يتراجع سعد بل ظل جامدًا غير مبالٍ، لم تؤلمه أظافر شاهين المغروسة في رقبته، بل ظل محدقًا في وجهه، وهو يحدثه بنبرة هادئة منخفضة أشبه بالهمس:

- هل تظن أني سأصدق حكايتك الساذجة هذه؟ أنت واهم يا هذا. اروِ ما تريد وفي المرة القادمة التي سأسألك ستجيب بالحقيقة. هيًّا احكِ.

- إنها الحقيقة يا سيدي.

نظر شاهين في عينيه، بئر عميقة مياهها آسنة، أفلت عنقه وابتسم له قبل أن يربت على كتفه قائلًا بصوت مرتفع:

- حسنًا، أخبرني بالحقيقة كاملة منذ رحيلكم عن الكَفر حتى عودتك.

- كما قلت لك سيدي، كان وقتًا عصيبًا وكنا في معركة مع الموت نفسه، أشباح تعيش في العاصفة الرملية، قاتلنا ببسالة ومهارة، ولكنهم كانوا أشد منا بأسًا، استطعت الهرب أنا وآخرون، ولكنهم طاردونا ورأيتهم رأي العين.

- من؟

- الذئب ورجاله، لقد رأيته وطاردني، إنهم كثيرون ولديهم عشرات بل مئات من الذئاب، يسكنون الوادي الصخري في الغرب من بحر الرمال.

تراجع شاهين بضع خطوات للخلف، وألقى بجسده على كرسيه وعلى وجهه حلَّ شيء من جمود على الرغم من السخرية البادية في كلماته:

- أتدري في أي يوم نحن؟ أو ما هو اسمك وما اسم قائد الفرسان؟

انسابت دمعة من عين سعد وهو يتحدث بنبرته الجامدة:

- أنا سعد بن علي وأشتهر بين رفاقي باسم سعد البرغوث، وقائدي راجي، اسمه الأمير راجي. وأنا لست بمجنون أو أهذي، أقول لك الحقيقة سيدي. لقد رأيت الموت مرارًا بل طاردني ولم يفلح في الفتك بي. الجميع أموات وإن نجا أحد فسيشهد بصدق كلامي.

- ألم تقُل إن هناك ناجين آخرين معك؟

- اختلفنا بين العودة إلى هناك والبحث عن أحياء وإكمال المسير إلى هنا، ولم يُمهلنا الذئب فرصة، هاجمنا أثناء استراحتنا وافترقنا. أظنهم ماتوا أيضًا.

- أرى أنك تحمل بندقية أحد فرسان السلطان، على الرغم من كونك نَبَّالًا كما أخبرني الدوِيدار رشوان.

- إنها بندقية الأمير، كنت أقاتل إلى جواره وأنقذني من الموت مرارًا، لقد ساعدنا بعضنا بعضًا حتى النهاية.

- إذن أنت البطل الوحيد الذي خرج حيًّا من المعركة.

نبرة تحمل سخرية واضحة، لم تثِر أي شيء في نفس سعد الذي ظل صامتًا، مما جعل الحكمدار يوجه حديثه إلى رشوان:

- اجعل عَشاب الكَفر يداوي جراحه وامنحه غرفة في منزل الضيافة الخاص بي. وأخبر ذلك المعتوه قائد الدرك أن يزيد من الحراسة حول المداخل، ويضع دوريات على الطريق الجنوبي.

أومأ رشوان موافقًا، بينما ظلت نظرات شاهين مثبتة على سعد حتى خرج من القاعة، لأكثر من ساعة بقي جالسًا على كرسيه، تتفقده رقية بين الحين والآخر من أعلى، كانت تريد مشاركة أمينة ما سمعته ورأته ولكن الأخيرة تأخرت في العودة من منزل عائلتها، قطعت الطريق من الشرفة إلى سريرها عشرات المرات، كانت تحاول فهم ما يحدث، الأمر حقيقي إذن، هناك جيش بالصحراء يقوى يومًا بعد يوم، ألهذا يبني شاهين تلك القلعة فوق التل؟ بماذا همس لذلك الجندي حين أمسك برقبته؟ يبدو أن الأمور ستتطور في الشهور القادمة، أن يموت رجال ذوو شأن لدى السلطان سيثير هذا حفيظة الوالي في مدينتها. كم تشتاق لمدينة البوغاز والبحر المسحور، تلك المدينة التي ولدت وكبرت فيها، ليت باستطاعتها العودة إلى هناك، ونسيان الكَفر وكل تلك الكوابيس والحكايات عن الذئب وعصابته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مساء اليوم التالي خرج شاهين في جولته الليلية على الرغم من برودة الجو، راقبت خروجه من البوابة وعادت إلى الفراش، ليس هذا زوجها الذي حفظت كل أفعاله وتصرفاته، لاحظت التغيير الواضح عليه، كان مشغول البال صامتًا طوال الوقت. لم يطلبها بوقت قيلولته كما كان يفعل ولم يتناول الغداء، فقط اكتفى بإبريق من نبيذ العنب، وبينما هي غارقة في التفكر جاءتها أمينة، طرقت الباب بلطف ونادت:

- سيدتي رقية، هل ما زلت مستيقظة؟

- نعم يا أمينة، ادخلي.

- عفوًا يا سيدتي، ولكن فور عودتي من بيت عائلتي، أمرني رشوان بالذهاب إلى بيت الضيافة مع بعض الخدم، لتجهيز غرفة لذلك الجندي المجروح.

الجملة الأخيرة جعلتها تعتدل في جلستها بالفراش محملقة في أمينة التي اقتربت منها قائلة:

- أتعرفين يا سيدتي؟ تذكرتك حين سمعت الشاب يحكي لرشوان والعَشاب أن الذئب الذي طارده كان ضخمًا، ولونه بُني يميل للذهبي، مثل ذلك الذي رأيته في الحلم. عندي الكثير من الحكايات التي قد تروي فضولك يا سيدتي.

- احكي يا أمينة، هاتي ما عندك.

أنهت الخادمة حديثها الذي لم يُرضِ شغف رقية، بدت خيبة الأمل على تقاسيم وجهها وتخللت نبرة صوتها:

- أهذا كل ما عندك؟ لقد رأيته يحكي هذه القصة بنفس التفاصيل أمام شاهين، أتعرفين يا أمينة؟ أظن أن للقصة بقية وأريد أن أعرفها.

- هل تعلمين يا سيدتي أن قائد الفرقة العسكرية السلطانية، ذلك الرجل صاحب اللحية المضفرة، ابن عم السلطان أو شيء من هذا القبيل، المهم أنه من العائلة الحاكمة هناك في العاصمة.

قاطعتها رقية:

- السلطان غازي هو الرجل الأشرس والأكثر شرًّا على هذه الأرض، ولا أعتقد أن ذلك الأمير الميت في الصحراء هو قريب له، ألم تسمعي بما فعله منذ سنوات حين قتل كل ذكور عائلته والعجائز من النساء، كان ذلك الفعل سببًا في حصوله على العرش، لقد قضى على إخوته وكل أبناء عمومته لينفرد بالعرش ولتكون سلالته هي الوحيدة الباقية من بعده.

مطت أمينة شفتيها:

- الناس تتحدث كثيرًا، وخبر ما ألمَّ بفرقة صائدي الذئاب ينتشر في القرية وحكايات الدرك لا تتوقف. كل شخص لديه حكاية، ولكنهم اجتمعوا على أنه قريب للسلطان، يكفي أن أسأل أحدهم سؤالًا فيجيب باستفاضة. في الصباح سيكون الكَفر كله قد عرف بالقصة، سيضيف الناس بعض الإثارة على الأحداث، فمنذ الآن بدأت المخاوف من هجوم وشيك على الكَفر، وحكايات عن قبائل غابة الظلال التي ستغزو المملكة بالتحالف مع مملكة الساحل، وسنسمع المزيد والمزيد من تفاصيل القصة حسب خيال كل شخص. ولكن الرجل المصاب يقول الحقيقة ويؤكد ما رُوي من قبل عن تلك القافلة التي نُهبت منذ أشهر.

- وكيف عرفتِ أنه يقول الحقيقة، لقد رأى الموت، والعَشاب أكد أن الرجل تعرض لصدمة قوية، كما أن الآثار على جسد الحصان آثار سَبع، والبندقية التي عاد بها على مقبضها آثار أنياب أيضًا. أتعرفين يا أمينة، أريد مقابلة ذلك الشاب.

- ماذا؟

- كما سمعتِ. هل أكررها مرة أخرى؟!

- ولكن، لن يسمح سيدي شاهين بذلك.

- لن يخبره أحد.

- إن عرف سيقتلني. لا أستطيع مساعدتك.

- ستساعديني. هناك أمور مريعة ستحدث ووحدها المعرفة ستمنحنا النجاة.

- أنتِ لا تفهمين الأمر يا سيدتي. هناك حراس على منزل الضيافة، ومنزل رشوان قريب منه.

- هل يحتجزونه؟

- بدا لي الأمر هكذا يا سيدتي.

قضتا معظم الليل تتحدثان وتدبران أمر مقابلة الجندي مع رقية، التي بدت عازمة على ذلك الفعل، يحركها الفضول والرغبة في تفسير كوابيسها العجيبة عن الذئب، فذلك الجندي الجريح هو الوحيد الذي رآه وعاد حيًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان من الغرابة أن يزور الحكمدار بيت الضيافة في هذه الساعة، فُتحت البوابة واستقبله الدرك بتبجيلٍ يليق به، دلف إلى المنزل متوجهًا إلى غرفة سعد من دون أن يحدثهم، لم يطرق الباب، دخل وأغلقه خلفه بهدوء، على ضوء المصباح الخافتِ رآه نائمًا متكورًا على نفسه، سحب كرسيًّا وجلس إلى جوار الفراش قائلًا:

- أعلم أنك مستيقظ، وخائف، ربما ليس مني ولكن من شيء سيئ حدث هناك بالفعل. وأيًّا كان ما يخيفك فلن يكون أسوأ مني حين أغضب عليك، قاع تلك البحيرة هو مقبرة لكل من كان غبيًّا بما يكفي ليعصي أوامري، ولكن دعني أعلمك شيئًا يا فتى؛ لا شيء يُنجيك سوى الحقيقة حتى وإن كانت شرًّا. قد يُصدق الناس الكذب ويستسيغونه ويجدون فيه قليلًا من متعةٍ ترضي شغفهم، يحبون ذلك حين نكذب عليهم، وحين نصارحهم بالحقيقة يتمنون لو أنها كذب. لذا سأقول لك شيئًا من الحقيقة التي تعلمها أنت جيدًا؛ تلك القصة عن الذئب وعصابته هي أيضًا من وحي خيال رجل أكلته أسماك البحيرة. اسمع يا هذا واجعل كلماتي محفورة في عقلك، أنا لا أصدقك، ولكني بحاجة لأن تستمر تلك الخرافة عن الذئاب وأشباح العاصفة. من الجيد أن يكون لدى العامة ناجٍ يلقي على مسامعهم خطبة عن أولئك الشجعان الذين هلكوا في بحر الرمال وكيف أنهم قاتلوا ببسالة، أريد أن تكون قدوة للدرك ومثالًا لمن واجه الموت ونجا منه، لمن عاد ليقف بجوار الحق حتى تأتي لحظة النصر. ارتَح وتغلب على أحزانك وبعد غدٍ ستخرج على الناس

لتُكرَّم وتعيد سرد قصتك عليهم. هذا إن لم يعُد أحد من رفاقك، وتذكر أنك ستبقى تحت نظري. افعل ما أريد وستحظى بمكانةٍ لم تكُن تتخيلها قَطّ.

رحل شاهين بمجرد أن أنهى حديثه، ترك سعد غارقًا في وجومه وصمته، كان حديث الحكمدار مُختلفًا عن الصباح، الرجل لا يصدقه لسببٍ ما، أي شخص آخر لم يكُن ليصدق أيضًا. أيام قضاها في الصحراء وحيدًا يعيد ترتيب ما في رأسه، يُقنع نفسه أن لا سبيل سوى العودة إلى الكَفر، أن يعود في يوم من الأيام وينتقم، ولكن الخذلان غلّف قلبه، شعر بذلك الوجع الذي يصيب الوجدان، كُتبت له النجاة ليعيش بسرٍّ سيخفيه ما دامت الروح تسكن جسده، هذا ما يحزنه، حاول أن يبرر فعلته فبكى، كان يأمل أن يداوي البكاء جراحه أو ينسيه ما حدث هناك في بحر الرمال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نستطيع أن نُولد من جديد إذا أردنا، أن نُبدل جلدنا كالأفاعي، أن نتناسى ونتأقلم مع واقعنا الجديد، ولكن حين نأوي لأنفسنا ستطرق الحقيقة عقولنا، وما نخفيه سيبقى يؤرقنا ما دام ضميرنا حيًّا. هذا ما استخلصه سعد في ليلته الطويلة، وإن أراد أن ينعم بحياة جديدة فعليه التخلص من أي شعور بالذنب، أن يُلقي بضميره وكل عواطفه في هوة سحيقة ثم يَردم عليها، أن يفكر في نفسه فقط وينسى ما دون ذلك، هذه حقيقته التي كان يخشى مواجهتها، اكتفى من أن يكون ضحية بائسًا، ما حدث قد حدث وسعد جديد ولد في قلب الصحراء. خرج على أهل القرية من بيت الضيافة مرتديًا درعه الجلدي الممزق، سار بين صفين من الدرك، عيناه مثبتتان على الحكمدار الذي يقف في نهاية الممر، صافحه واحتضنه أمام الجميع، كان جُل أهل القرية حاضرين، كذلك زوارها من التجار والرعاة من القرى المجاورة، لحظات مرت وهو يتجول بعينيه في الوجوه وكأنه يبحث عن أحد ثم بدأ قصته.

خطبته المؤثرة أدمعت الأعين، شجاعة الرجال وقوتهم في قتال غير متكافئ جعلتا الأجساد تقشعر، حكى عن فرسان السلطان وكيف تصدوا هم ورفاقه من رجال الدرك للقوة الغاشمة من دون خوف، وكيف ساند بعضهم بعضًا، وحشية وبربرية المهاجمين وبشاعة فعلهم بالجرحى، ذئابهم التي التهمت الأحياء ومزقتهم لأشلاء، الخوف بدا على الوجوه الممتقعة، وحين توقف عن الحديث ساد صمت مريع لم يفكه سوى كلمات موجزة محفزة من الحكمدار. بدا الرجل فخورًا أكثر منه حزينًا، جمله القصيرة ألهبت حماستهم وأثارت رغبة في الثأر، ولكن قبل الثأر، عليهم جميعًا العمل من أجل حماية الكَفر، أن يتم بناء الحصن وسور خارجي جديد يكون أمام حائط النخيل، على البلدة أن تصبح حصينة، سيشيد قنطرة من قصره تمر فوق البحيرة وتصل إلى القصبة، وكل من سيشارك في البناء سيحظى بمنزل جديد في تلك الأرض التي خصصها لبناء «حي الحكمدار» كما أسماه، وسينتدب وفدًا من أهل القرية وحكمائها، سيذهب إلى السلطان للتعزية وطلب العون،

رحلة سيقوم بتمويلها بنفسه من أجل الحصول على الدعم الكافي لإتمام مدينته، أحلام راقت ولاقت استحسان الجميع، وما لبثوا أن انفضوا عائدين إلى أعمالهم وفي نفوسهم الكثير من الأفكار والأحاديث التي ستستمر خلال ليالٍ وأيام قادمة.

دَخل سعد إلى الحصن ممتطيًا حصانًا أبيض مرقطًا ببقع بنية، رافقه رشوان وبضعة رجال من الدرك، كان استقبال زملائه له عبارة عن مزيج من الفضول لمعرفة ما حدث وفرح وحزن. نزل عن صهوة مطيته وأمضى بعض الوقت يغوص بين الأيدي والصدور الفرحة بعودته، أسئلة عدة أُلقيت على مسامعه ولكنه لم يُجب أي أحد منهم، نادى كبيرهم بأن يتركوه ليرتاح:

- إنه هنا الآن وسوف تملون من قصته. دعوه يرتاح الآن واعلموا أنه تمت ترقية سعد بن مرزوق، ورفع رتبته إلى قائمقام حصن التل.

ماذا فعل ليحصل على تلك الرتبة؟ هل النجاة من الموت تستحق ترقية؟ وكيف يحدث هذا من جندي نَبَّال إلى قائمقام دفعة واحدة؟! تهامسوا بالأسئلة فيما بينهم وسعدٍ يمر بينهم متجهًا إلى غرفته الجديدة في مركز الحصن، كان يسير متجاهلًا إياهم حتى ظهر سلَّام في طريقه بوجهٍ شاحب، وقفا قبالة بعضهما بعضًا وذلك الأخير يسأله:

- أين بياض يا سعد؟

لم يجِبه، فقط أزاحه عن طريقه برفقٍ من دون أن ينطق واتخذ طريقه إلى الدرج، كانت الغرفة جيدة بها فراش كبير وصندوق لحفظ الملابس، كرسي ومنضدة عليها بعض الأوراق ومحبرة، شموع حديثة وقنديل لم تمس زيته النار، ضوء النهار كان يغمر الغرفة من خلال نافذتين متقابلتين تطلان على جانبين مختلفين من ساحة القلعة، وقف مستترًا بالظلال راميًا بصره نحو الجند بالأسفل، مجتمعين في الأركان والعمال ما زالوا يشيدون الأسوار، أحد الدرك يسحب حصانه الأرقط إلى حظيرة الدواب، وهناك الخيام حيث كان يبيت، ذكريات عدة مرت بذهنه قبل أن يلقي بها من النافذة، قلب الوريقات الموضوعة أمامه، لا يعلم ما فائدتها إن كان لا يعرف الكتابة والقراءة. ظل على تلك الحالة لبعض الوقت قبل أن يصيبه الملل وينهض متأففًا، تأكد من إغلاق الباب جيدًا وتوجه إلى صندوق الملابس، كان كنزًا حقيقيًّا؛ ملابس من كشمير وكتان مطرز وحرير، عباءة سوداء ودرع جلدي مدبوغ جيدًا، ليس كالذي منحوه إياه قبل الرحيل. تلفت حوله ثم مد يده إلى داخل بنطاله وأخذ يحركها قليلًا ثم أخرج صُرة بُنية، فتحها ليتأكد أن كل شيء كما هو، الدراهم الذهبية والخواتم وحلي فرسان السلطان. أخذ يتأملها ويقلبها بين يديه، شرد لبرهة ففاجأته طرقات بالباب، فزع وأعاد الدراهم إلى الكيس مرة أخرى وبسرعة دسها في صندوق الملابس، وقال بصوت جَهْوري:

- من بالباب؟

- سيدي، جئنا إليك بالغداء.

أغلق الصندوق واعتدل واقفًا مانحًا الإذن للخادم بالدخول، كان يحمل بين يديه إبريقًا نحاسيًّا بينما تبعه آخر يحمل مسطحًا من البرونز وضع عليه عدة أطباق من الخزف، وضعوا ما أتوا به فوق المنضدة وسألوه إن كان بحاجة لشيء آخر، أجابهم بإشارة نفي وعيناه تتفحصان الأطباق، ما إن خرجا حتى اقترب من الطاولة وأخذ يتشمم الرائحة الزكية، طاجن لحم بالخضراوات ومرق وعسل وخبز طازج وفاكهة، كل هذا كان كافيًا ليضحك كما لم يضحك من قبل، وبدأ في الأكل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النساء وحدهن قادرات على سبر أغوار الرجال، ليس كل الرجال ولكن على الأقل معظمهم، كان شغف رقية قد وصل ذروته مع ترقية ذلك الشاب من قِبل زوجها، صار مُهيبًا بين الناس، وفشلت كل محاولاتها للقائه وسماع القصة منه، كل الأعين نقلت إليها كيف أصبح سعد، الذي لم يعتَد الجند على طريقته في التعامل معهم، لا يتحدث كثيرًا ولا يبدي اهتمامًا بمطالبهم، بل فرض عليهم ساعات دوام أكثر، وتدريبات شاقة أجهدتهم، وكل ثرثار يأتي على ذكره أو يتناول سيرته يُرسل للعمل في السور الخارجي الجديد، كل صباح يأتي لمقابلة شاهين، يفطران معًا بينما يقص على مسامع سيده تقريرًا يوميًّا. تعجبت من ثقة زوجها به، معجب بشدته وقوته في التعامل مع أي أمور طارئة، ولكن شاهين يضمر شيئًا، وذلك البرغوث كما يطلقون عليه يساعده فيه. حال الكَفر تبدلت كحال عشيرها، صار أكثر غموضًا والابتسامة والتهكم والسخرية دائمًا حاضرة في مجلسه، العمل يسير بشكل أفضل والحصن يعلو بعلو السقالات الخشبية والروافع، وأعمدة القنطرة الحجرية المارة فوق البحيرة بدأت في الارتفاع. تنقل لها أمينة كل ما يدور في الكَفر، يومًا تخبرها أن الدويدار رشوان رحل إلى مدينة البوغاز لشراء كلاب صيد وبعض العبيد، وفي اليوم التالي تقص على مسامعها حكايات عن نسوة القرية وهؤلاء الغرباء الذين جيء بهم للكَفر، أسر كاملة منحها عز الدين منازل جديدة قرب البحيرة، حين سألته عنهم قال إنهم أهل البوادي وقد وجد من الأفضل لهم أن يتركوا البداوة وينتقلوا إلى حيث تُعمر الأرض، ينوي أن يصبح كَفر البردقوش مدينة عظيمة تضاهي المدينة الزرقاء ذات يوم.

ذات يوم وبعد تفكير عميق أقنعت زوجها بضرورة إضافة لمسة أنثوية على الخدم، وبدء تجهيز بيت الحكمدارية بما يليق بقصر حاكم حقيقي، أرسلت في طلب أشهر نخاس بالمدينة الحمراء وتجار الحرير والعطور والزينة، وأمرت أن ينسق البيت بأثاث جديد كما صار العمل على تجميل الحديقة وبركة الماء أمرًا لا بد منه، وأذيع الخبر مرة أخرى في القرى المجاورة عن

طلب كَفر البردقوش لرجال حرفيين وصنايعية مهرة، وجند سيكونون إضافة لجيش الحكمدار.

استغرق الأمر شهرين، واجتمع العمال كقبيلة نمل دأبت على الانتهاء السريع من أمر قصر الحكمدارية. دُهنت الحوائط بالجير الأبيض، وعُلقت الثريات الجديدة، وفُرشت الأرضيات الرخامية بسجاد جيء به من البوغاز، بركة الماء صارت حوضًا رخاميًّا تتوسطه نافورة لم تعمل بعد، وقُلمت الحديقة وزُرعت بها صنوف جديدة من الورد والأشجار، وتدلت على اليمين من واجهة القصر راية كبيرة صفراء تتوسطها زهرة بردقوش خضراء، وفي الأفق القريب بدا الحصن بأبراجه غير المكتملة والمحاطة بالسقالات، وأعمدة القنطرة بدأت في التقوس استعدادًا لالتقاء وشيك. في البهو الكبير استقبلت النخاس، شخص سمين قصير وله أنف معقوف، يرتدي عباءة حريرية مزركشة بألوان زاهية، عرض عليها ست فتيات جميلات، تفاوتن في الشكل والطول والحجم، فحصتهن بنظراتها وتركت أمينة تفتش في شعورهن وأجسادهن، أمرهن النخاس أن يتعرين تمامًا، قالت لا داعي لهذا ولكنه أصر ليثبت لها أن بضاعته لا مثيل لها، أسهب في الحديث عن مفاتنهن. كان الاختيار صعبًا ولكنها اختارت اثنتين هما الأجمل، ورحل النخاس محملًا بكرم زوجة الحكمدار. عقلها كان يعمل أكثر من اللازم وما تُقدم عليه يحتاج الكثير من الصبر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- إذن سميرة اسم الفتاة السمراء ذات الشعر المجعد والجسد المشدود، أما الأخرى ذات الجسد المكتنز والأرداف المكورة والشعر الأحمر الأهوج فهي «روزاليندا»، أمينة قومي بتطييبهما وتجهيزهما وتعليمهما ما وجب عليهما فعله. ما زلت محتارة في أمرهما، أيتهما أرسل إلى القائمقام؟

- أعتقد أن السمراء ستفي بالغرض يا سيدتي.

- خطأ. بعض الرجال يحبون المرأة وافرة الجسد، ولذلك أميل لإرسال «روزاليندا».

- هل لي أن أسألكِ يا سيدتي رقية؟

- بالطبع.

- أراكِ تهتمين بشؤون سيدي القائمقام منذ فترة، هل لهذا علاقة بأحلامك أم أن هناك شيئًا تطمحين إليـ...

رمتها بنظرة حادة:

- أكملي يا أمينة، لماذا توقفتِ؟! دعيني أخبرك أمرًا؛ النساء فقط قادرات على الولوج إلى عقول الرجال. سيدك الحكمدار يريد السيطرة على الرجل

ومعرفة كل ما سكن خلده، وإن كنتِ تظنين أني أفعل هذا لأجل غرض ما بداخلي فأنت مخطئة، ولن أسمح لك بالحديث هكذا مرة أخرى، لا تنسي من أنتِ ومن أنا يا أمينة. البلدة تكبر ويجب أن أحظى بمكانتي كزوجة للحكمدار وأن أساعده في الحكم، ولكي يستتب الأمر له ولنا جميعًا يجب أن يكون حوله رجال مخلصون، والسبيل لمعرفة مدى إخلاصهم بعرض كل ملذات الدنيا عليهم. لذا سأرسل له «روزاليندا» تلك الصهباء.

- الأمر لك يا سيدتي.

- من الجيد أنك تعرفين أن الأمر لي، ولذلك سأحتفظ بسميرة كخادمة خاصة بي، أما أنتِ يا أمينة فمنذ هذه اللحظة دورك سيقتصر على ترتيب المنزل والإشراف على الخدم فقط. والآن اذهبي واحرصي على أن تستحما بالعطر وأرسلي لي من سنرسلها للقائمقام.

شعرت أمينة بالحنق، ضاق صدرها وحاولت قول شيء ولكنها عدلت عنه، خفضت رأسها وهمت بالرحيل فاستوقفتها رقية:

- أمينة، تذكري أنك هنا لأني أريد ذلك.

أومأت أمينة وقالت بصوت منخفض:

- أعرف جيدًا وأعي هذا يا سيدتي رقية.

- جيد. اذهبي الآن.

خرجت أمينة تلوم نفسها، ما كان يجب عليها أن تتمادى في الحديث مع سيدتها، مهما كانت درجة قربهما إلا إنها خادمة، وجب عليها تذكر هذا، والآن بكل سهولة أنهت رقية خدمتها ووكلتها بشيء أقل مرتبة. ظل الموضوع عالقًا برأسها طوال الوقت، أخذت الجاريتين إلى الحمَّام الكبير، وبعد أن تحففتا بدأتا في الاستحمام، كانت تفرك جسد سميرة بقوة من دون صابون، فقط ماء وليف خشن، كانت تشعر بالحنق مما حدث ولم تبالِ بتأوهات الفتاة وعقدت حاجبيها في حين كانت «روزاليندا» تصب الماء الدافئ على جسدها، وتبتسم لها مستغربة مما تفعله تلك السيدة بصاحبتها السمراء، وبعد الانتهاء منحت أمينة ثوبًا حريريًّا لكل منهما، حظيت سميرة بثوب أبيض مطرز بوردات ذهبية، بينما نالت الصهباء ثوبًا أزرق ضيقًا أبرز مفاتن جسدها المتناسق. بعدها قادتهما إلى غرفة رقية مرة أخرى، أدخلت «روزاليندا» أولًا، وحين خرجت جاء دور السمراء التي طال بقاؤها في الداخل، وأمينة تقف على الباب في الخارج تشتعل غيرة وغضبًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوصل الحكمدار إلى منزله واتخذ هو طريقه إلى الحصن، جواده الهجين المبقع يسير بتمهل ورياح الشتاء الباردة تحيط به، تصفر وتتلاعب بأطراف

العشب المرتفع، رأسه عامر بترتيبات الغد وتدريب الجند، وليلة أخرى سيبيتها وحده كالعادة، يستلقي على الفراش محتسيًا النبيذ حتى يداهمه النوم، تلك حياته الجديدة التي لم تأتِ في حسبانه يومًا، مر بجانب البحيرة حين لمح في ضوء القمر ذلك الشيء يخرج من البحيرة ويندس وسط العشب، حث الجواد على الإسراع وفي أذنيه يُعاد حديثه عن تماسيح البحيرة مع بياض القرش وسلّام، وذلك الأخير الذي صار لا يمل من مطاردته والسؤال عما حدث لصاحبهما، كان أمر إبعاد ذلكِ المُغني عن الحصن جيدًا، أرسله ليكون ضمن الدرك الذي يؤمِّن بوابة الكَفر لعله يكف عن سؤاله المرير: «أين بياض؟».

فُتحت البوابات له وعلى ضوء مشاعل تلاعبت بها الريح ترجل عن صهوة الحصان، كان يسير نحو مبناه الخاص ولكنه تراجع عن الفكرة، صعد الدرج المؤدي إلى البرج الجديد بخطوات، أتم الرجال بناءه اليوم، ليمثل البرج الرئيسي للحصن، كان الأكبر والأعلى، ربما سيطلق عليه اسمه ذات يوم كحال كل الأبراج القوية بالحصون والقلاع، من فوقه رأى الكَفر كله يغوص في الظلام، فقط عدد ضئيل من المشاعل البعيدة، والبحيرة تعكس ضوء القمر الفضي المستقر بالجنوب، تلك الجهة التي يبغضها، مر بذاكرته كل ما حدث هناك، والآن يقف فوق أعلى قمة بالكَفر والكل تحته، حتى الحكمدار وزوجته الجميلة، جميعهم في الأسفل ووحده يحكم هذا الحصن. استنشق الهواء البارد وملأ به صدره، ثم نزل متجهًا إلى جناحه، ما إن فتح باب الغرفة حتى تيبست قدماه، ظل واقفًا يحدق في تلك الجنيَّة الصهباء، كانت تجلس على طرف الفراش وعليها ثوب من قماش أسود خفيف، يُبرز كتفيها ونصف صدرها كامل الاستدارة، ضوء الشموع منح جسدها المرمري حُمرة جذابة، شعرها الغجري الأحمر وعيناها الواسعتان تؤكد أنها ليست من عالم البشر، كشذى سحري تخلل رئتيه عبق عطرها الفواح، الغرفة مختلفة أو أنه فتح بابًا على مكان آخر، كان لا يصدق ما يراه ومع ذلك خطا نحوها متوجسًا سائلًا إياها:

- من أنتِ؟ وماذا تفعلين هنا؟

نهضت بغنج واقتربت منه متمايلة، ودارت حوله هامسة برقة:

- «روزاليندا»، اسمي «روزاليندا» يا سيدي، وأنا هدية سيدي الحكمدار لك.

ما حدث بعد ذلك كان أشبه بمعركة شرسة بين مفترسين يريد كل منهما الفتك بالآخر، كانت نعم الهدية، ومن نوعه المفضل الذي كان لا يعرفه، لسنوات ظل ينظر للنسوة فقط من بعيد، يشتهيهن من دون أن يمس إحداهن، من تلك التي كانت ستنظر إلى لص خضراوات وسجين نحيف الجسد ذي وجه هو مورد خام للبؤس والشقاء، الآن يضاجع بكل قوته وقسوته أجمل نساء الأرض، شعر بكونه مَلكًا متوجًا وصوت ارتطام جسده

بردفها اللين يزيده حماسة، منحته الحياة كل شيء بعد أن فقد كل شيء، وما زال هناك المزيد، بالتأكيد هنالك الكثير ينتظره ومجد لم يخطر بباله قَطُّ. تلك الحَمراء كجمرة مشتعلة لم تخمد إلا قبيل الفجر، أنهكته كمن عولج بالكي، انتصرت هي وقادته إلى عالم آخر، وحين أغمض عينيه انسلت من بين يديه لتنهض من الفراش فأمسك بقدمها وسحبها مرة أخرى إليه، احتضنها وهمس في أذنها وهو يستنشق عبير شعرها الناري:

- ابقي هنا، لا ترحلي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5- ما كان وما سيكون

أرض صلدة وعرة وشمس غاربة ستودعهم عما قريب لتنعس خلف الجبال المستقرة في الأفق البعيد، مشيا كثيرًا بمحاذاة المنحدر الرملي، بدا كجدار لا نهاية له، غايتهما الوصول إلى خندق السراب، عرق غزير وصهد خانق، استمر بياض القرش في السير متحاملًا على آلام مفاصله وجروحه، منح صاحبه قوة وأملًا في البقاء على الرغم من قسوة الدرب ووعورته، هكذا كان يفعل دومًا، منذ لقائهما الأول قبل ثمانية أعوام، هناك في سجن البوغاز جيء بفتى صغير لص خضراوات، تربص به الجميع، سخروا منه ونعتوه بالبرغوث، كان بالكاد أتم سبعة عشر عامًا، تحرشوا به وأهانوه حتى ظهر هو، كملاك أُرسل لينقذه من بين أيدي المغتصبين والقتلة، وكانت النتيجة أن شخصًا قُتل بسببه، ظل بياض حينها حزينًا على ما اقترفت يداه، أحس بالذنب لقتله الرجل ولإضافة تلك السنوات إلى أيامهما التي كانت على وشك الانقضاء، شعر بالمسؤولية تجاه صاحبه الوحيد، ولهذا ظل طوال الطريق يحدثه ويحثه على التمسك بالأمل والوصول إلى خندق السراب، ويبدو أن حلمهما كان مجرد وهم بدده قيظ الصحراء، لم يتوقفا عن المسير حتى خيم الليل وجثم البرد على المكان، لا شيء يؤويهما ولا طعام يسد رمقهما، قربة الماء الخاصة بسعد أوشكت على النفاد وبياض تخدرت قدماه، لن يستطيع المشي أكثر من ذلك، حاول سعد إشعال النار ولكنه لم يفلح، صار يضرب الحجرين بعضهما ببعض بعصبية مفرطة، ربت بياض على ظهره:

- هات يا صاحبي، سأفعل أنا.

ناوله سعد الحجرين وهو يشيح بوجهه، كاد أن يبكي:

- سنموت هنا يا بياض، لا أمل لنا في النجاة.

- سننجو يا فتى. لقد نجونا مما هو أصعب من ذلك، سنعود للكَفر ونخبرهم بما حدث.

غمغم ببرود:

- لا أعلم من أين لك بتلك الثقة، وما الفائدة إن نجونا وعدنا إلى كَفر البردقوش، هل سيصدقوننا ونحن نحمل حلي وأسلحة الفرسان؟!

- سنقص عليهم أمر ما حدث.

- لا أحد سيصدقنا يا بياض، ولن يبالي أحد إن كان ما سنرويه على مسامعهم هو عين الحقيقة.

- ماذا تريد إذن يا سعد؟!

- لا أعرف ما أريد يا قرش، كل ما أريده ألا أموت في هذه الصحراء، لا أريد أن أكون طعامًا لوحوشها.

عواء عميق بعيد، جمَّد الدماء في عروقهما، شعر سعد أن قلبه توقف عن الخفقان، ووضع بياض الحجرين بروية على الأرض، وسعد يهمس بخفوت شديد:

- يقولون إن الذئاب تطارد فرائسها لأيام ولعدة أميال، ولا تمل حتى تظفر بما تريد.

نهض بياض متكئًا على البندقية:

- يجب أن نكمل المسير نحو الشمال، وعندما نعبر الجسر سنكون بخير.

قطعا مسافة بعيدة وبدأت الأرض تزداد وعورة، والألم يشتد على بياض، تعثر وسقط على وجهه متوجعًا، هرع إليه سعد وحاول جاهدًا أن يساعده على النهوض وفعل، الخوف كان يحركهما، القرش يلهث وجرح جنبه ينزف، وسعد شرب آخر قطرة ماء في قربته، والمنحدر الرملي بدأ بالانخفاض تدريجيًّا، أمسك سعد بذراع صاحبه:

- لم يبقَ إلا القليل يا بياض، هيَّا يا رجل.

جثا بياض على ركبتيه:

- يجب أن أرتاح. لا أستطيع المواصلة.

- لا تفقد الأمل الآن.

- الأمر لا يتعلق بالأمل، أنا متعب.

استلقى على ظهره وساعده سعد في ذلك وهو يقول له:

- حسنًا، لنسترِح لبعض الوقت وبعدها نمضي في سبيلنا.

أغمض بياض عينيه طوعًا أو كرهًا، نام وترك سعد وحيدًا، لا شيء يفعله سوى المراقبة والترصد لأي قادم، وبعد أن نجح أخيرًا في إشعال النيران جاءت ريح باردة وأخمدتها، صار الظلام يهيمن وجسده يرتجف، قبضت أصابعه المتوترة على البندقية، كان من الغباء اختيار تلك الأيام التي لا قمر فيها لخوض تلك الرحلة، غمغم وقد ضاقت به الدنيا:

- اللعنة على ذلك الدليل الضئيل، وراجي ومراد والحكمدار.

ظل جالسًا مسندًا ظهره إلى كتلة صخرية كبيرة، محملقًا في الظلام يعبث في ثنايا البندقِية ويقلب كيس النقود والحلي بين يديه، أرهف السمع وصار

ينصت متحفظًا، صوت طرقات هادئة، شيء يقترب بخطوات بطيئة، نهض مسرعًا ورفع البندقية منتظرًا القادم من العتمة، كان أحد أحصنة فرسان السلطان، بائسًا آخر مثلهما، هاربًا من براثن الموت، وهذا ما تأكد منه سعد حين اقترب الجواد، هناك عدة جروح في صدر الحصان، الأمر الذي جعل سعد يطيل النظر في الظلام من خلفه، جذب لجام الجواد بلطف وقال له:

- اهدأ يا صاحِ. أنت سبيل نجاتنا ونجاتك مقترنة بنا.

صهيل حزين كان الجواب الوحيد على كلمات سعد.

سحبه إلى حيث ينام بياض، وهناك لاحظ أن الحصان مصاب بجرح آخر في فخذه يؤثر على مشيته، تفحص الجراح مكتئبًا، الدماء دافئة، صهل الجواد الفزع متوترًا، ليس من أصابع سعد التي تمر على الجروح، ولكنْ لشيء ما قادم، أدار أذنه وارتعش جسده، لم يكُن سعد بحاجة ليعلم سبب توتر الحيوان، الوحوش التي هاجمته آتية في أثره، ظل واقفًا للحظات يتأمل صاحبه المغشي عليه، انحنى ليوقظه وعدل عن الفكرة، تراجع وراح يتحرك بعصبية يمينًا ويسارًا أمام نظر الجواد الجريح، لكز صدر بياض مرتين مناديًا إياه حتى بدأ يغمغم مستفيقًا، ساعده في الجلوس مستبشرًا:

- من الجيد أنك استيقظت، هيَّا سنذهب.

تمطى بياض متألمًا وقال بصوت يسيطر عليه النوم:

- ماذا؟ الآن؟

- انظر ماذا وجدت، دعنا لا نضيع الفرصة.

لم يمضِ كثير من الوقت حتى كانا يصعدان المنحدر الوعر، سحبا خلفهما الحصان الجريح مجبرين إياه على الصعود، قطرات من دمه كانت ترسم الطريق خلفهما، وبمجرد صعودهما بزغ الفجر في الأفق البعيد، النجاة صارت قريبة ولكن الجواد ارتجف؛ صهل ورفس بقائمتيه الخلفيتين الهواء، كانت حركة مفاجئة جعلت بياض يدفع سعد بعيدًا خوفًا من أن يصيبه الحافر، تلقى هو الركلة بدلًا من صاحبه الذي جُرح رأسه من أثر اصطدامه بحجر، وعلى ضوء الفجر المنبثق من رحم السماء رأى ذلك اللعين يركض مبتعدًا، كان بياض يشهق بصعوبة غير قادر على التنفس، يتلوى متألمًا وسعد يتحسس جرحه ودماءه التي لا تتوقف، سالت على وجهه بغزارة، نهض ممسكًا برأسه والدم يسيل بين أصابعه، كان يشعر بدوار شديد بينما يسير نحو بياض، أجلسه وأخذ يطمئن على حالته، الركلة لم تكُن قوية بما فيه الكفاية لتقتله، بعد انتظام أنفاس بياض ساعده سعد على النهوض، صرخ بياض متألمًا، بدا أن أحد ضلوعه قد أصيب بكسر، استند على صاحبه كحائط آيل للسقوط يمنعه وتد ضعيف، حثَّا الخطى مبتعدين ومن خلفهما بدأ الظلام

يتراجع رويدًا، سيهلكان حتمًا. سقط بياض مرة أخرى جاذبًا سعد معه، ظلّا مستلقيين لبرهة حتى لمحاه، رأياه يبرز من المنحدر، أذن منتصبة وذيل مرفوع وفراء ذهبية تلمع تحت ضوء النهار القادم من بعيد، كانت المسافة بينهم تقل رويدًا، فقفز سعد وأخذ يصيح ملوحًا بالبندقية محاولًا إفزاع الذئب ذي الخطوات الظافرة الهادئة، توقف والزبد يسيل من بين أنيابه وبعدها رفع رأسه للسماء مطلقًا عواءً طويلًا، حاول بياض الوقوف محدثًا صاحبه الخائف:

- يبدو أنه ينادي بقية القطيع يا سعد، هيَّا لنذهب.

ساعده سعد على النهوض وهو يسمعه يكمل بكلماته الكئيبة المرتجفة:

- سننجو إن آمنا بذلك وتكاتفنا.

لم يُجِبه سعد بل ظل يحدق في وجهه بنظرات جامدة، فحدثه مرة أخرى:

- سعد، ماذا بك؟ هل تستسلم الآن يا سعد؟ ما زالت أمامنا فرصة للهرب.

تمتم سعد هامسًا وهو يميل على أذن صاحبه:

- نعم، هناك فرصة وحيدة للهرب وهي أن يبقى أحدنا هنا.

مع آخر حروفه كان نصل خنجره يُغرس في فخذ بياض، كان الأمر مفاجئًا، ولم يكُن هناك مجال للكلمات، جحظت عينا بياض وأمسك بتلابيب سعد بقوة غير مصدق لما يحدث، سحب البرغوث نصله لتتفجر الدماء من فخذ صاحبه الذي صرخ متشبثًا به، فرفع سعد خنجره للأعلى، كان ينوي طعنه مرة أخرى، ولكنه عدل عن تلك الفكرة وهو يركل الساق المصابة لبياض، سقط الأخير بعد أن أفلته، تراجع للخلف محملقًا في وجه بياض الذي تهاوى أرضًا، التقى بصراهما بنظرةٍ لم تدُم طويلًا. أمام عينَي بياض المثقلتين بالدمع استدار سعد وراح يركض مبتعدًا على درب الحصان الهارب من الموت، لم يلتفت وهو يسمع صراخ بياض وزمجرة الذئب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سميرة، غزال جامح اتخذ من منزل الحكمدار مرعى، سُمرتها الذهبية وشعرها المجعد أثارا فيه شيئًا ما، كان يستمتع برؤيتها بين الحين والآخر، كل صباح يهبط الدرج مناديًا إياها، فتأتي متبخترة تقدم ساقًا على ساق وتتمايل بخصر منخفض. ملامحها الناعمة وشفتاها الرقيقتان، جعلته يشتهي لمس وجهها الصغير، لما يقرب من شهر ظل على تلك الحالة، على الرغم من أنه كان يُبدي اهتمامًا بالغًا بوجودها، لم يدُر بينهما أي حديث طويل على الرغم من شغفه بمطالعتها، وفي ذلك اليوم كان مستاءً من رقية التي صارت تتعلل كثيرًا كلما اقترب منها، الأمر الذي بدأ يزعجه، جلس على كرسيه مناديًا سميرة، جاءت بطلتها البهية حاملة بين يديها عصيره المفضل، ما إن اقتربت منه حتى سألها:

- من أي البلاد أنتِ؟

كانت المرة الأولى التي يحدثها، فأجابته وهي تملأ له الكأس:

- كنت صغيرة حين أخذوني من موطني، الذي لا أعرف عنه شيئًا سوى ذكرى باهتة، عشت لفترة بمدينة البوغاز وبعدها اشتراني رَب عمل بالمدينة الحمراء، خدمت بمنزله فترة قبل أن أُهدى لأحد نبلاء البوغاز، وبفعل زوجته الشريرة تم بيعي لأحد النخاسين.

تمتم وهو يتفحص تعرجات جسدها الممشوق:

- يا لها من قصة مؤثرة، يبدو أنك أثرتِ غيرة تلك الزوجة الأخيرة.

- كانت جميلة، تفوقني جمالًا بالتأكيد، يكفي أنها حُرة وأنا عبدة تباع وتشترى.

- ومن قال إنك لستِ بجميلة.

ألقى جملته الأخيرة ويده اليسرى تقبض على مؤخرتها المكورة الجامدة، فزعت وتراجعت مسقطة إبريق النبيذ، صاح فيها غاضبًا وهو ينهض مسرعًا:

- أيتها الغبية! اذهبي.

حاولت أن تمسح بيدها النبيذ عن ثوبه:

- عذرًا، سي شاهين.

فدفعها بغلظة، هرولت مبتعدة وتركته ساخطًا، ينفض عن نفسه ما ألمَّ به، كان مغتاظًا منهمكًا فيما يفعل حين جاءه صوت رقية:

- ماذا بك؟

- تلك الساقطة الغبية، سكبت النبيذ على ثوبي.

كانت تنزل الدرج محاولة إخفاء ابتسامتها:

- ما أعرفه أنك لا تحب النبيذ في الصباح.

نظر إليها وما زال الغضب باديًا على ملامحه، ثم توجه نحوها:

- كانت أمينة أفضل منها في تلك الأمور.

- يبدو أن اختياراتي لا تروق لك.

تجاوزها صاعدًا الدرج:

- نعم، هكذا الأمر، أتعرفين! أصبحتِ مملة يا رقية، كل شيء معك ممل ولا طعم له، حتى اختياراتك للخدم لم تكُن موفقة.

تبعته للغرفة وساعدته في تبديل ملابسه، والتصقت بصدره برقة ودلال وهي تقول له: - هل صارت رقية مملة الآن؟

ابتعد عنها وأكمل ارتداء عباءته، فجاءت من خلفه واحتضنته واضعة رأسها على كتفه:

- هكذا الأمر إذن، سئمت وجودي.

انسل من بين ذراعيها:

- لم أعُد أفهمك يا رقية.

- من الذي لا يفهم الآخر يا شاهين؟ أنت تقضي النهار في الخارج بين الحصن وبيت الضيافة، تستمع للناس وشكاواهم وتستقبل الوفود من القرى الأخرى، وقت القيلولة الخاص بنا لم يعُد له وجود، وفي المساء تخرج وتتسكع على شاطئ البحيرة مع أصدقائك المقربين ورجالك، أليس هذا ما تفعله؟ أمسيت أنا مجرد جارية تفرغ شهوتك بها وتستلقي للنوم بجوارها، هذا كل ما في الأمر، لم تعُد زوجي الذي أعرفه، أو أن هناك امرأة أخرى استحوذت على عقلك.

كان على النقاش أن يتوقف عند تلك اللحظة، نظرة صارمة أسكتتها، وظل يحدق بها لبرهة ثم خرج وصفق الباب خلفه من دون أن ينطق بشيء، وبعد قليل سمعته يسب أحد الخدم أمام البوابة، راقبته من النافذة وهو ينطلق بجواده إلى الخارج، ولم يمضِ الكثير من الوقت حتى جاءتها سميرة، تسامرتا وضحكتا وتحدثتا كثيرًا ثمَ أوصتها رقية بالخطوة التالية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استقبل شاهين وفد السلطان بترحاب وافر، تراص الجند في صفين حاملين البيارق إلى جانب درقات جلدية سميكة، كانوا سبعة رجال من أشراف العاصمة الزرقاء، وعلى رأسهم أحد رجال القصر السلطاني ويُدعى شمس يعرفه جيدًا، تقابلا عدة مرات في مدينة البوغاز وقصر الصيد الخاص بالوالي في البادية، بعد الكثير من المجاملات والتملق وكرم الضيافة، وعند سؤال شاهين عن حال السلطان أجاب شمس باقتضاب:

- السلطان غاضب، وحمَّلنا رسالة خاصة لك، يقول إن لم تأتِ برأس زعيم المتمردين إلى القصر الأزرق، سيكون عليك السفر إلى الباب العالي للاستجواب. في كلتا الحالتين ستذهب إلى المدينة الزرقاء، فاختَر طريقك بحكمة، لقد أرسل لك السلطان الكثير من المال والمساعدات لتبني حصنك ومدينتك التي تريد، وفي المقابل لم تفعل شيئًا. مضى ما يقرب من ثمانية أشهر حتى الآن منذ الهجوم على القافلة الأولى، وخمسة أشهر وأكثر منذ قُتل الأمير راجي وفرقته.

- لقد كان رجالي هناك أيضًا وماتوا جميعًا، وكذلك الكثير من الخيل والسلاح ذهبت هباء، ليس السلطان وحده من خسر يا سيد شمس.

ابتسامة شمس باهتة، واضحة، وفُهمت أكثر حين قال:

- سمعنا أن شخصًا واحدًا عاد من هناك.

- نعم، القائد سعد بن مرزوق وهو من أشد رجالي كفاءة ويحفظ الصحراء عن ظهر قلب، وهو الوحيد الذي بارز الذئب وعاد حيًّا، وقد عهدت إليه ببناء جيش كبير متعدد الفرق والأسلحة.

- أين ذلك الرجل؟

- أرسلت في طلبه، منذ الصباح يتابع تدريبات الدرك الجديد.

- اسمع يا شاهين، الأمر لم يعد منوطًا بعصابة من قطاع الطرق، هناك رسائل تأتي من الجنوب بأن قبائل غابات الظلال صارت لديهم بنادق يناوشون بها مملكة الساحل، الحرب آتية لا محالة وسلطاننا المعظم بحاجة لفرض السيطرة على بحر الرمال.

- ولكن حدود السلطنة تنتهي عند خندق السراب.

- لن يبقى الأمر كذلك، ولن أخفي عليك سرًّا؛ إن مملكة الساحل صارت ضعيفة تعج بالاضطرابات، وماذا تنتظر من مملكة يحكمها حجابها وسدنتها بينما يجلس طفل صغير على العرش؟ سلطاننا ينوي التدخل في لحظة ما إن تحتم الأمر، فكُن الرجل المنشود يا شاهين واعلم أن القادم يحمل خيرًا وفيرًا لنا جميعًا، وكلما بذلت جهدًا أكبر ستكون مكانتك أعلى، وربما تجد نفسك واليًا على إحدى مقاطعات مملكة الساحل، من يدري؟

إهانة أخرى، هكذا فهم شاهين من حديثه مع صاحب المقام الرفيع، آخر مرة استهزأ به فيها أحد مات في الصحراء ولم يعُد، راجي الذي ألقى له فتاتًا ورحل إلى العالم الآخر، ربما ليس هو بقاتله ولكن ذلك المدعو شمس إن بقي حيًّا حتى اليوم المشهود سيكون أول من يُقتل، ومن بعده السلطان ورجاله وحاشيته، سيكونون إما أسرى أو قتلى، يحلم برؤية رؤوسهم معلقة على أسوار المدينة الزرقاء، تلك الياقوتة التي يحلم بامتلاكها يومًا، سيذيقهم من ذات الكأس التي تجرَّع منها أجداده، حين غزاهم جد ذلك اللعين الجالس على العرش الآن، ودمر ملكهم، وأصبحت مملكة الشمس ومدينة الملوك أثرًا بعد عين، ولم يكتفِ بنو الأزرق بذلك، بل نفوهم إلى هنا؛ كَفر البردقوش، التي يظنون أنه يريد تحصينها.

ستكون تلك البداية لفتوحاته وسلالة حاكمة جديدة تحكم كل الجزيرة العظيمة، حتى مملكة الساحل سيُخضعها لنفوذه ذات يوم، وتسير القوافل

آمنة من المدينة الزرقاء شمالًا وحتى جبل الملكين جنوبًا، مرورًا بغابة الظلال وبحر الرمال.

- سيدي، لقد وصل القائمقام سعد.

صوت رشوان أفاقه من أحلام يقظته، اعتدل في كرسيه وهو يشير لمساعده بأن يُدخل الرجل، أثناء ذلك لاحظ نظرات الوفد إليه، ودخل سعد القاعة بخطوات واثقة، مرتديًا حذاء جلديًّا طويلًا يتناسب مع درعه الجلدي الخفيف داكن اللون، وسرواله الأسود كعمامته، حياهم بنصف انحناءة وشاهين يقدمه لهم:

- ها هو بطل كَفر البردقوش الذي واجه الذئب ورجاله، والناجي الوحيد من معركة بحر الرمال، وهو الرجل الذي جاور وقاتل بجانب الأمير راجي في الميدان، ومنه تعلم الكثير.

تأمله شمس متفحصًا ثم تحدث ببرود قائلًا:

- أتمنى سماع تفاصيل رحلتك المثيرة أيها البطل.

- هل تسمح لي سيدي الحكمدار؟

قالها سعد مستأذنًا شاهين الذي شعر بمكانته الحقيقية في تلك اللحظة، أشار لسعد بالبدء، سرد عليهم القصة التي حكاها من قبل عشرات المرات، أجاب على أسئلتهم باستفاضة، بدا كأنه استجواب لتقييم شخصيته، الحكمدار يملأه الفخر، وصمت سعد عند سؤال أحدهم:

- من أي البلاد أنت وما عملك السابق؟

الزمن توقف، وكأنه كان نسي أين وُلد وترعرع، كل شيء مر أمام عينيه بسرعة، وطيف بياض يقف خلف أشراف السلطنة:

- أنا من مدينة البوغاز. ولدت في حي الكِير الخاص بالحدادين، وكنت أعمل في الميناء حمَّالًا، قبل أن أسجن ظلمًا.

- حمَّال! سجين سابق!

أومأ سعد برأسه وارتسمت على شفتيه ابتسامة ثقة وهو يقول:

- سجنت ظلمًا وعدوانًا، ويبدو أن القدر أراد مصالحتي وتعويضي، هناك قول دارج بأنْ تعمل ما لا تحب حتى تأتي الفرصة لتعمل ما تحب، وحين جاء الخبر بأن كَفر البردقوش بحاجة لرجال ليكونوا ضمن الدرك لم أتوانَ في القدوم، هنا تَعلمت الرمي بالسهام والبنادق، والمبارزة وركوب الخيل، أنا ولدت هنا من جديد وحظيت برعاية الحكمدار ككل زملائي وأهل القرية، وإن كنا ندين لأحد بالولاء والطاعة فهو ذلك الرجل، إنه يرعى مصالحنا جميعًا،

يحكم بالعدل ويبني جيشًا ليكون درع السلطنة الزرقاء ونصلها البتار على رقاب عدوها.

انتفخت أوداج شاهين فشد ظهره بمجلسه وداعب لحيته، تلك هي نوعية الرجال التي يريدها، وليس كالأغبياء الغرقى في قاع البحيرة، كان ينظر إلى سعد بتفاخر وزهو ولسان حاله يقول: «هذا رجلي، صنعته على عيني، ويؤدي دوره جيدًا».

بعد الانتهاء من جلستهم مع الضيوف وُضع الغداء، والذي كان في الحقيقة مأدبة لم يرَ سعد مثلها قَطّ، الحمام المحشو والمرق والضأن المشوي وكبد الإوز المُتبل والمسوى بدبس الرمان، واصطكت كؤوس العصير المُحلى بالبردقوش والعسل.

حوار مرح دار بينه وبين السادة المبتهجين من كرم ضيافة الحكمدار شاهين بن عز الدين، الذي منَّ عليهم بأن جعل جواري حسانًا يتبادلن خدمتهم، أُتي بالصهباء «روزاليندا» رغمًا عنها إلى جانب ثلاث أخريات جلبتهن رقية حديثًا، استبعدت سميرة من المشهد لسبب ما، وتفاجأ سعد بالأمر، وشعر بقدر كبير من المهانة، «روزا» ملكه وحده، وهناك من يعبث معه، عاتبها بالنظرات وأشار لها بالانصراف، فهمت عينيه ولكنها تيبست لبرهة، عليها أن تطيع السيدة رقية. فكر ماذا لو كان الحكمدار هو من فعل ذلك؟ تلك امرأته ولن يسمح بأن يمسها كل ذي روح على تلك الأرض، نقل بصره إلى ذلك الرجل الذي يحكم البر الجنوبي بالسوط والرحمة، هل هذا هو الوجه الذي يريد أن يراه به الجميع، أتريد كسر أنفي هكذا إذن يا شاهين؟ قالها في نفسه ونهض ضاربًا المنضدة بقبضته، في حركةٍ لاحظها بعض الحضور، اتجه إلى حيث تقف فاتنته المسلوبة.

أمسكها من رسغها وجذبها خلفه ليخرجا من القاعة أمام نظر الجميع، وقفا برواق خاوٍ إلا من ظلالٍ هربت من ضياء النهار إلى الزوايا الرخامية الباردة، أوجعتها قبضة أصابعه، فقطعت الصمت الذي نال من عينيه ولسانه، أفلتها وبدا صوته أشبه بالفحيح حين سألها:

- ماذا تفعلين هنا؟

- وجدت أمينة تقف على عتبة بابي بعد خروجك، وأخبرتني بضرورة القدوم.

- لماذا لم ترفضي ذلك الأمر؟

- كيف سأرفض طلب السيدة رقية؟ كما أنني أردت أن أراك مهيبًا أمام السادة!

فوجئت به يقبض على كتفيها ويميل رأسه للأمام قائلًا بنبرةٍ أرعبتها بقدر ما بعثت في نفسها الأمان:

- أنتِ لي.

خضعت عيناها وعضت شفتها السفلية مطأطئة رأسها، وتورَّد خداها بشيء من خجل، وحين اتخذت القرار برفع رأسها والتهام شفتيه، أفلتها قائلًا بصرامة:

- ارحلي الآن.

تركها ومضى في الرواق، وظلت واقفة حتى التفت مميلًا لها رأسه، لوحت له بفرح واستدارت لتصطدم برقية التي كانت تقف قبالتهما بنهاية الرواق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد سعد إلى المجلس مبدلًا بوجهه آخر يضحك، ألقى النكات وسط قصص وحكايات ونوادر يلقيها كل شخص منهم، وحين جاء الدور عليه قص على مسامعهم قصة لم يكن هو بطلها الحقيقي، ولكنه وجد نفسه يصوغها وكأنه صاحب تلك المواقف، مع الغروب أوصلا الضيوف لمستقرهم بدار الضيافة، وصرف الحكمدار الدويدار رِشوان والجند، ولم يبقَ معه إلا سعد، امتطيا جواديهما وانطلقا يجوبان الكَفر، وقرب السوق صادفهما رجل غريب الهيئة، قطع الطريق عليهما من دون قصد ممتطيًا جملًا عظيمًا، تطلع إليه شاهين عاقدًا حاجبيه متفحصًا إياه، كان رث الثياب أشعث أغبر، رآه من قبل ولكن لا يدري أين، صاح سعد فيه بغلظة:

- أيها الأعمى، ألم ترَ أن الحكمدار يمر؟

أحنى الرجل رأسه وحث الجمل على الإسراع، وما زالت عينا شاهين تتبعانه قائلًا:

- لقد صار الكَفر مقصد الكثير من الناس، يأتون من القرى والبلدات المجاورة للتبضع وبيع الأغراض التي يصنعونها.

- الكَفر يكبر كل يوم يا سيدي، وحين نتم بناء الأسوار الخارجية والأبراج ستكون مدينة يقصدها الناس جميعًا، أظن أنه حان الوقت لنقل الحقول خارج الأسوار.

- هذا أول خطأ أجدك تقع فيه. الحقول بالداخل هي حقول الخضراوات، أما تلك التي صارت خارج الأسوار فهي حقول البردقوش وجدار النخيل، وما أنوي فعله حقًّا أن أجعل القرية حصينة ضد أي عدوان، وإن تمت محاصرة الكَفر لسنوات، سيكون معنا غذاؤنا وماؤنا، سيكون الحصن منيعًا بمجرد الانتهاء من القنطرة.

- ومن ذا الذي سيحاصرنا؟

- لا أحد يعلم الغيب، ربما مملكة الساحل أو السلطان، وربما الذئب.

كلمته الأخيرة كانت تحمل قدرًا من السخرية، هكذا بدت لسعد الذي قال بهدوء:

- إذن نحن بحاجة لخندق كالذي يحيط بمدينة البوغاز، سيكون ذلك أكثر مناعة.

- من الجيد أنك بدأت تفكر، قُل لي، هل تلك الصهباء هي السبب فيما أنت فيه الآن؟

عقد سعد حاجبيه ورمق شاهين بنظرة فهم مغزاها، فاستطرد متهكمًا:

- إنها جمرة ملتهبة. أحمق من ينكر أن الجميلات سبب كل بهجة. النساء هن الحياة، قادرات على أن يجعلن حياتك جنة ونعيمًا أبديًّا، أو موتًا وجحيمًا لا قعر له. أتعلم أن زوجتي هي ابنة الأكرم سعيد البندقداري شهبندر تجار البوغاز، مات منذ سنوات، كان رجلًا طيبًا ولكنه ساذج وغبي كابنته الحمقاء، الفوز بها كان حلمًا ورغبة ملحة، ولكنها بالنهاية ليست سوى امرأة جميلة علقت بعقلي واستحوذت عليه، قد تكون مناسبة كزوجة حكمدار أو والٍ وربما سلطان، ولكن هناك أمورًا كثيرة لا نراها إلا بعد فوات الأوان، النساء قادرات على قلب مزاجك رأسًا على عقب وقتما يردن، لديهن قدرة عجيبة على قلب الأمور وتعكير صفو الحياة، ولقد رأيت تعاملك اليوم مع «روزاليندا» أوليس هذا اسمها؟ كان من الخطأ أن يُؤتى بها إلى مجلس الضيافة، من الجيد أنك فعلت هذا معها، احتفظ بها لنفسك وسأجعل زوجتي تجد بديلًا عنها، كما وجدت الأخريات.

غمغم سعد كاظمًا غيظه:

- هذا كرم ولطف منك سيدي.

هز شاهين رأسه واستنشق هبوب نسمة باردة، قال بعدها:

- خذ حذرك ولا تقع في الحب، ذلك الشيء الوحيد الذي يهزم الرجال. حتى إنه يوصف بالوقوع وهو السقوط الذي لا نهوض بعده، كلهن سواء.

- سأعمل بنصيحتك سيدي الحكمدار.

- دعنا من هذا الحديث. كم صار لدينا الآن من الرجال؟!

- ثلاثمائة فارس، ومائتان من رماة البنادق، وألف وخمسمائة من المشاة والرماة.

- ما زال العدد قليلًا.

- قليل؟! سيدي، إن كل هؤلاء لا يؤدون شيئًا سوى التدريب والأكل، والدوريات كلها من الحرس القديم.

- وماذا عن فرق الصيد؟

- الكلاب تأقلمت بشكل جيد.

- عظيم. مع قدوم الخريف ستكون لدينا مهمة كبيرة، اجعل الجميع مستعدين، والآن عد إلى نارك المشتعلة في الحصن، ودعني أبحث عن أنيس آخر لهذه الليلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شاهدتهما أمينة، كانت سميرة تتلوى فوقه كأفعى، تستند بكلتا يديها على صدره، جذبها إليه من شعرها بقسوة، قبَّلها بنهم، يداه راحتا تتحسسان جسدها المتعرق نزولًا إلى خصرها حيث أمسكها وثبَّتها فوق صهوته، أنفاسهما وتنهيداتهما الخافتة تكاد لا تتجاوز باب الغرفة حيث تتلصص عليهما، اكتفت بهذا مشمئزة خائفة أن يلحظها أحد، تلك العاهرة تضاجع الحكمدار، خائن ككل الرجال، لا يروي ظمأهم شيء، دومًا عطشى، ما ذنب السيدة رقية أن يخونها؟ لأنه الحكمدار يظن أنه يستطيع الحصول على كل شيء؟ أوت إلى غرفتها لا تعلم ما تفعل، هل تخبر السيدة رقية التي أذلتها وأبعدتها عن خدمتها؟! ستكون تلك فرصة لتحظى بمكانتها مجددًا، أم تسكت ولا تقول شيئًا وتدع الحكمدار يضع بذرته داخل تلك السمراء، سيكون انتقامًا رائعًا من تلك المدعوة سميرة وصدمة لن تتخيلها السيدة رقية. كانت تهم بالصعود إلى حيث غرفة الزوجة المسكينة حين اصطدمت برشوان، أفزعها وجوده، وظلت تحدق بوجهه الأبنوسي اللامع بفعل ضوء القنديل القريب من الباب، ظلت جامدة تحدق فيه حتى تحدث هو ساخرًا:

- هل رأيتِ عفريتًا يا أمينة؟

تلعثمت وحاولت أن تقول شيئًا ففشلت فاقترب منها متابعًا:

- يبدو أن تماسيح وأسماك البحيرة ستحصل على وجبة دسمة قريبًا.

- ماذا تقصد؟

- ماذا لو علم الحكمدار بأنك تتلصصين عليه؟ وأنك كنتِ بصدد إخبار السيدة رقية بما رأيت؟

ارتجفت، شعرت أن ساقيها لا تقويان على حملها وتفجرت آبار العرق من مسامها، استندت على المنضدة بأطراف أصابعها:

- لم أكن لأفعل هذا.

- بالطبع لن تفعلي، أنا هنا لأتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام. أمينة، أنتِ تخدمين في هذا المنزل منذ السيد المقتدر رحمه الله، وكافأك الحكمدار شاهين بالبقاء هنا، دومًا ما يقول إن أمينة اسمها من صفاتها،

وأرجو أن يكون كذلك، وأن يكون ولاؤك لولي نعمتك وليس لامرأة متقلبة المزاج طردتك واستبدلت بك عاهرة محترفة. ما تحمله الأيام والسنوات القادمة خير كبير يجب ألا يفوتك منه شيء. فكري جيدًا وتأملي دومًا سطح بحيرة البردقوش لتعرفي الفرق بين الحياة والموت، والآن اذهبي إلى غرفتك.

تركها ترحل وبقي هو واقفًا أسفل الدرج يتأمل انبثاق الفجر في السماء المظلمة، ظلت جالسة متكورة على نفسها حتى الشروق، تفكر فيما قاله الدويدار رشوان، ذلك العبد الأسود الذي هددها منذ قليل، كلب سيده المطيع، لا يتورع عن فعل شيء يأمره به سيده، كان مخيفًا يخشاه الجميع منذ أتى لخدمة شاهين، لا أحد يعلم من أي أرض أتى، ولكنه مهيب مبجل ما إن حلَّ بمكان ساد الصمت، عليها أن تخشاه، على الرغم من سنوات مجاورتهما لبعض في ذلك البيت، فإنه لن يتردد في كتم أنفاسها أو تقطيع أوصالها إن أمر الحكمدار. انتفضت حين سمعت صوته ينادي رشوان، تلصصت من خلف باب حجرتها فرأته ينزل الدرج بكبرياء، جاءه مساعده وطلب منه أن يعد الخيل للخروج، لا تعلم لم قررت فتح الباب والخروج بينما يمر بجوار باب غرفتها، فزينت وجهها بابتسامة صباحية محدثة سيدها:

- سيدي الحكمدار، هل أعد لك الفطور؟

تطلع إليها رشوان بنظرات جامدة في حين قال الحكمدار من دون أن ينظر إليها:

- سأستحم ريثما تجهزينه، اجعلي تلك الفتاة تعده معك.

- تقصد سميرة، سيدي؟

- نعم، وهل هناك غيرها؟

جلس على رأس المائدة وأمينة ترص الأطباق، بيض وعسل وقشدة وزبدة، وطبق كبير من الفاكهة، وخبز ساخن وكوب من الحليب المُحلى بالكرز جعله يسأل سميرة بهية الطلة:

- منذ متى والحليب يُوضع على مائدتي في الصباح؟

أجابته بسرعة:

- إنه للسيدة رقية، قالت إنها ستفطر معك اليوم.

تبادل نظرة خاطفة مع سميرة، ثم وجَّه حديثه لأمينة قائلًا:

- أخبريها أني لن أنتظر أكثر من ذلك.

في تلك اللحظة كانت رقية تهبط الدرج بهدوء، ترفل في ثوب أسود زادها جمالًا، جميلة راقية لخطواتها شموخ الملكات، المسكينة لا تعرف أنه يخونها، من يخون ذلك الجمال لا يستحقه، كان هذا لسان حال أمينة التي سحبت كرسيًّا لتجلس سيدتها التي حيتهم بابتسامة مشرقة، لتميل على خد شاهين وتُقبله أمامهما، مد يده واقتطع من الخبز غير مبالٍ بفعلتها:

- والآن لنأكل.

خرجت أمينة وسميرة وتركتا الزوجين يتناولان فطورهما، كان جامد الملامح منهمكًا في طعامه حين سألته:

- يبدو أنك لم تنَم جيدًا. استيقظتُ خلال الليل ولم تكُن بالفراش.

رماها بنظرة من طرف عينه:

- نعم، رجال السلطان ما زالوا في بيت الضيافة، وهناك العديد من الأمور العالقة، والواجب يقتضي أن ننتهي منها.

- حبيبي، أنت بحاجة إلى الراحة.

قالتها وهي تلمس ظهر يده بأصابعها الرقيقة، كان مستغربًا من فعلها فاكتفى بابتسامة باهتة، ثم ألقى بفمه قطعة خبز مغموسة بالعسل أخذ يمضغها ببطء، ثم أمسك بكوب ماء وشرب. كانت عيناها مثبتتين عليه وهو يحاول التظاهر بالجمود، نهض سائلًا إياها:

- هل تحتاجين شيئًا؟ سأذهب الآن.

- فقط أريد أن ترسل في طلب تاجر الأقمشة، أريد بعض الأثواب لي وللخدم.

لم يُجِبها، نهض مزيحًا الكرسي للوراء، ثم خرج تاركًا إياها ترتشف من كوب الحليب وعيناها تتابعانه حتى أغلق الباب خلفه، نادت أمينة فجاءت مهرولة:

- أمرك يا سيدتي.

- اجمعي المائدة واطلبي من رشوان أن يذبح شاة للغداء.

- سيدتي، هناك شيء أود الحديث معك فيه.

رفعت يدها بإشارة نفي قائلة:

- ليس الآن يا أمينة، اطلبي من سميرة أن تجهز لي الحمَّام.

مرة أخرى أحست أمينة بالضآلة، ذلك الموقف جعلها تراجع جُل أفكارها بينما تنظف المنزل، وداخل الحمَّام المعبق بالبخار استلقت رقية باسترخاء داخل حوض الماء، ويد سميرة الناعمة تمسد جسدها، كانت مغمضة العين

سابحة في عالم آخر، بينما تدندن الفتاة بلحن عذب يتناسب مع خرير الماء المراق على مسام جلدها، كانت تجيد ما تفعل فاستسلمت لها بعد أن جففت جسدها بمنشفة ناعمة، استلقت على الطاولة الرخامية في زاوية الحمَّام، وبدأت سميرة في وضع خليط من الزيوت على ظهرها لتبدأ تدليك جسد سيدتها الفاتنة التي سألتها:

- سميرة، أين تعلمتِ كل هذا؟

- الأيام يا سيدتي رقية كافية لتعلمك كل شيء، التنقل من منزل لآخر ومن دار بغاء لأخرى يوجب عليَّ تعلم كل المهارات الممكنة، لأتمرس وأستطيع إكمال الحياة.

- كم رجلًا ضاجعكِ حتى الآن؟

كان السؤال مباغتًا، ولكن سميرة جاوبت بكل فرح:

- كنت في البداية أحصيهم ثم توقفت.

- لماذا؟

- لأن تلك مهنتي التي فُرضت عليَّ، الأهم من العدد كان الإرضاء.

- وهل إرضاء الرجال بأمر صعب على متمرسة مثلك؟!

ضحكت سميرة ووضعت القليل من الزيت على فلقتي ردفي سيدتها وراحت تمسدهما بشيء من الشدة:

- إنهم كالأطفال وإن اختلفت أشكالهم وطباعهم وحتى قوتهم. جميعهم يحركهم ذلك الشيء المتدلي بين ساقيهم، وعندما يفرغون مما يفعلون ينهضون ويرحلون، وآخرون يستلقون كالأجولة. إن لم يُفعل ذلك الأمر بحب فلا طعم له سوى الاشمئزاز والقرف ورائحة العرق. يرحلون وسرعان ما يعودون مرة أخرى، الشهوة وحدها هي ما يسيطر عليهم.

- هم غيرنا بالتأكيد يا سميرة.

- نعم يا سيدتي، خلقوا لغاية وخلقنا لأخرى. ولكن كما كانت تقول كبيرتنا في الحي الأحمر: «الرجال دومًا بحاجة إلى النساء وكذلك نحن بحاجة إليهم، والمرأة الجيدة هي من تمنح الرجل كل شيء، فإذا فعلت ستضمن أنه سيعود حتمًا إليها، ما دامت تلك التفاحة بين فخذيها نضرة شهية دومًا».

استدارت رقية لتستلقي على ظهرها قائلة:

- نعم، ولكن الحرة لا تمنح ثمارها لأي أحد، كذلك يجب أن يكون الرجال، الزواج ميثاق وعهد يجب ألا يُنقض، هل صادفت الكثير من الرجال الخونة في عملكِ هذا؟

كلماتها أثارت شيئًا من حزن بداخل سميرة التي ذبلت ملامحها وقالت بنبرة خافتة:

- جميعهم كذلك، من لم يخُن بالفعل يجد سبيله بالتغزل والنظرات. إنهم غيرنا تمامًا وربما ليست تلك خيانة، إنها شهوة زائدة وشبق واحتياج لرحيق جديد، الرجال أو معظمهم كالنحل تمامًا يتنقلون من زهرة لأخرى للحصول على كل ما هو شهي ولذيذ، ولكل منهم مفتاح.

بعد الانتهاء جلست رقية أمام المرآة تمشط شعرها، وفي انعكاس صورتها بالمرآة رأت رقية الصغيرة، تلك الفتاة التي تحظى باهتمام الجميع، العمال بوكالة والدها وخدم منزلهم الفخم الكبير، وشرفتها التي تطل على ميناء البوغاز، غناء الحساسين ونسيم بحر رائق، وستائر رقيقة ناعمة تعبث بها الرياح ولا تمنع الصخب البعيد لنوارس بيضاء في سماء وردية، أمها التي كانت تمشط شعرها آنذاك، وتحكي لها حكايات عن بنات تزوجن من أمراء المدينة الزرقاء، وأقيمت لهن مواكب عُرس لا مثيل لها في البلاد، مهورهن خيل وذهب ونفائس من الياقوت والمرجان، صرن أميرات لهن خادمات بعدد سكان حي الولاة، ونعمن بحياةٍ تفيض بالسعادة في قصور شاسعة ذات حدائق غناء، وأنجبن أطفالًا سيصيرون يومًا فرسانًا، تمنت الصغيرة ذلك وفعلت كما علمتها أمها، أن ترسل مع كل طير سابح في السماء ما تتمناه، مرت السنوات وماتت أمها بداء ليس له دواء، بضع سنين وصار والدها يرافق المقتدر بدران الحكمدار، رجل صالح ما لبث أن مات غرقًا لينقذ الشاب شاهين ابن أخيه الذي صار زوجها، تبددت الأحلام وكأن الطير العابر في أعالي السماء، حقق الأمنيات لغيرها، وحظيت هي بالمجيء إلى ذلك الكفر، ربما ما تعيشه الآن كان أمنية لامرأة أخرى تمنت الزواج بشاهين. لا تنكر أنه أسعد قلبها مرات عديدة ولكنه حطمه في المقابل ألف مرة، ابتسمت لنفسها في المرآة وأغمضت عينيها وراحت تتمنى أمنيات جديدة، لعلها تنعكس على زجاج المرآة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6- وجار الذئب

نخيل وشجيرات وحشائش مختلفة أشكالها ومن خلف كل هذا جدران من الصخر، ترتفع حاملة سقف السماء الزرقاء، وشمس نثرت ضياءها فوق بركة مياه صافية، وخرير شلال صغير يتدفق جاريًا، فتح عينيه ليجد كل هذا، ليست الجنة بالتأكيد كما أنها ليست جهنم، هو حلم ميت يأمل بالعودة للحياة، جروحه مضمدة وساقاه مربوطتان، فكر أن يفك ساقيه ولكن يديه أيضًا كُبلتا إلى الخلف بينما لُف جسده بحبال من خيش، تثبته إلى جذع شجرة زيتون عتيقة، بعض ثمارها فارقت الأغصان وتناثرت حوله، كان منهكًا وألم شديد لا يفارق أضلعه، حلقه جاف ومعدته خاوية والأهم أنه لا يستطيع الحركة، بمن يستغيث؟ أول اسم جاء في باله جرفه سيل من حزن، نكَّس رأسه وهو يتذكر ما حدث، ليتنا نستطيع ربط الذكرى بأحجار نلقيها في مجرى نهر الزمن فلا تطفو أبدًا. كان على هذه الحالة حين شعر بظل يقف أمامه، كانت المرة الأولى التي يراه بهذا القرب، عيناه شهلاوان متقدتان يشوبهما صفار وأنف أسود رطب، أذناه كهرمين حادين منتصبين فوق رأسه، كان أضخم من أكبر كلب رآه في حياته بمرتين، فراؤه ذهبية يشوبها السواد، كان حقيقيًّا بالفعل، اقترب منه حتى شعر بأنفاسه الساخنة تلفح وجهه، أغمض عينيه واستجمع شجاعته مغمغمًا بخفوت:

- هيَّا، افعلها، وأنْهِ حياتي.

كررها مرتين وهو يهز جسده الملفوف بالحبال، وفي الثالثة رفع رأسه للذئب بتحدٍّ وصرخ به مجددًا وصدى صوته يدوي في المكان، ولكن الذئب بقي هادئًا يتطلع إليه، لم يُبدِ أي اهتمام، فقط حرك أذنيه في كل الاتجاهات، أما هو فانخفض صوته وانتحب وهو يعيدها مرارًا وتكرارًا مترجيًا إياه أن يقتله، كان يبكي وحين رفع رأسه لم يجد له أثرًا، تبدد واختفى وكأنه لم يكُن.

قضى نهار ذلك اليوم يفكر في كل الاحتمالات وفي أن من عالجه لن يقتله، على الأقل ليس الآن، طال الانتظار وأخذته سِنة من نوم من جراء آلام ضلوعه وجرح فخذه، حين استيقظ كان المكان مظلمًا وصوت حشرات الليل يغمر المكان، الجو بارد وسقف الكهف صار سماء مرصعة بالنجوم، لو كان هذا سجنًا فحتمًا سيصيبه بالجنون قبل الموت، على الرغم من حزنه غنى بصوته الأجش، أغنية عن صياد عجوز فقد سنًّا ذهبية في قاع البحر، رفع صوته بالغناء والجدران الصخرية للكهف تردد صداه، كان يتعمد ذلك لعل أحدًا يسمعه ويأتي، وأغنية حزينة لم يكملها، وتذكر شيئًا فضحك ونادى:

- يا ذئب! يا هذا، يا ذاك، يا رجل، هل هناك أحياء؟ أريد أن أشرب. أنا جائع، أين أنتم؟

وقت طويل قضاه مع نفسه يتذكر مراحل حياته البائسة، لعل تلك النجوم في الأعلى مستمتعة برؤيته هكذا، ربما تنتظر ما سَيُفعل به.

قُبيل الفجر تردد عواء متكرر بالمكان، عشرات الذئاب تعزف لحن النهاية في تتابع فريد، صدى الأصوات ظل يرتفع وينخفض في تناغم حتى تلاشى، صمت مهيب غلَّف الظلام حتى بدأ وهج بعيد يقترب ويبدد الظلمة المحيطة به، رجل طويل يحمل سراجًا أخذ يقترب منه، فحدثه والضوء يغشي عينيه:

- هل سأموت الآن؟

لم يتلقَّ إجابة من الرجل ذي الهيئة الغريبة، وضع السراج جانبًا في مكانٍ بدا مخصصًا له والتفت إليه، كان أشعث الشعر، لحيته كثيفة هوجاء وشاربه كث، وما يظهر من وجهه شاحب قاسي الملامح، ثيابه بالية وغير مهندمة، ربت على رأس ذئبه فجلس، أخذ يعبث في محتويات جعبة من جلد الماعز معلقة على خصره، ثم أخرج سكينًا براقًا، قطع الصمت مستجمعًا شجاعته قائلًا بحنق:

- هل ستذبحني وتطعمني للذئاب؟

لم يتلقَّ إجابة وذلك الشخص يقترب منه، فاستطرد:

- لم أفعل شيئًا لك قَطُّ، وإن كنت تنوي تعذيبي فلا داعي لهذا، أنْهِ حياتي وحسب. لن تتوقف الحياة بموت شخص بائس خانته نفسه، ويبدو أن الجبناء وحدهم يعيشون. فإن كنت أنت الموت فمرحبًا بك.

كلماته بدت صادقة حزينة، ولكن الرجل كان غير مبالٍ بكل ما قاله، اقترب منه شاهرًا السكين وانحنى نحوه، ثم قطع الضمادةً، أزالها وألقى نظرة متفحصًا الجرح بأصابعه الجافة القاسية، نهض وسار مبتعدًا حتى ابتلعه الظلام، لم يمضِ كثير من الوقت حتى عاد، يحمل بين يديه طبقًا من خزف وقنينة، وحين صُب منها على جرحه عرف أنه ليس ماء، الجرح يُكوى بالكحول وصرخته المباغتة ابتلعها وهو ينظر في عينَي الذئب، رمقه بسكون وقام بتحريك أذنيه يمينًا ويسارًا، والرجل يضع شيئًا أخضر لزجًا على الجرح، أتم عمله ونهض، وبياض يقول له مستجديًا:

- أريد مقابلة الزعيم. أريد مقابلة الذئب.

أجابه بقربة جلدية وُضعت على شفتيه، رفض أن يفتح فمه، ولكن ما بها اندفع إليه بقوة، مياه باردة شرب ولم يرتوِ، جذبها الرجل ولملم كل أدواته ورحل مبتعدًا بهدوء يتبعه ذئبه، حتى اختفيا في الظلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي.

جاءه الرجل بطعام. جلس إلى جواره وراح يطعمه من دون أن ينطق، زيتونًا وخبز حنطة جافًّا وزيتًا، كان جائعًا ولم تكُن تلك الوجبة الضئيلة كافية لتسد شهيته، لم يستطِع التفوه وطلب المزيد، مضى حارسه بعد إطعامه، وظل هو على وضعه لا يستطيع فهم أي شيء يحدث، سوى أنه أسير لدى عصابة الذئاب، حين استقرت الشمس بمنتصف السقف المكشوف نادى بصوت جهور:

- أريد قضاء حاجتي، يا هذا، لن أتحمل المزيد.

لم يمضِ الكثير وجاء حارسه، ظل واقفًا للحظات أمامه، التقت أعينهما وكأنهما يتحدثان ثم برز الذئب من بين الحشائش مكشرًا كاشفًا أنيابه، كان يزمجر وبصره مثبت عليه، تمتم بخفوت:

- حسنًا، لا أريد أن أقضي حاجتي، لا داعي لهذا.

ظل الذئب على حالته، فيما اقترب الرجل وراح يحل وثاق بياض، الذي كانت عيناه لا تفارقان الوحش المتحفز، وقد بدت فراؤه كطبقة من شوك سميك، جُذب من ذراعه ليقف وصوت عميق يهمس في أذنه:

- إياك أن ترتكب حماقة.

لوهلة لم يدرِ أهذا صوت عقله أم أن الصامت نطق أخيرًا، هز رأسه إيجابًا، أشار له الرجل بالاتجاه نحو جذع شجرة ميتة، ففهم الأمر وبخطوات بطيئة يشوبها العرج سار وتبعه الذئب الذي ظل واقفًا ينتظره حتى فرغ، حثه على العودة بزمجرة واحدة، فعاد إلى جذع شجرة الزيتون وجلس مسندًا ظهره إليها، ثم أخذ الرجل بطرف الحبل يلفه ويحكم ربطه مرة أخرى، وحين هَمَّ بالرحيل سأله بياض: - متى سَيُبت في أمري؟

وكالعادة، كان الصمت الجواب الأمثل.

أيام مرت وكل شيء يتكرر، يأتي الرجل مرتين يفكه ليقضي حاجته ويربطه مرة أخرى، يمنحه قليلًا من الطعام كوجبة يومية تكفيه لأن يبقى حيًّا، شعر بالبرد والجوع والوحدة، الحر الخانق ورغبته في القفز بذلك الحوض النقي، كل شيء مر بعقله في تلك الأيام الطويلة، راجع نفسه في كثير من الأمور، خلص إلى أن الحياة كانت بسيطة، ولكنه لم يكُن يستوعب تصاريف القدر، صعَّب أمورًا جمة على نفسه وأقحمها في أمور لا دخل له بها، رتب ذكرياته وأحداثًا كان يحسب أنه نسيها، حياة كان يحسبها لا تتجاوز جدران السجن وأسوار المدينة، حتى وهو حر كان سجينًا، أصدقاء السوء وذلك الحي القذر، زوجات خائنات ورجال لا يعرفون المروءة، كان مثلهم حتى قرر ألا يبقى

كذلك، وبماذا حظي؟ خيانة لم يتوقعها قَطّ وغدرًا من صاحبٍ ظنَّه الصديق الوحيد في هذا العالم، طعنه في ساقه وتركه للذئاب.

لأيامٍ ظل الوضع كما هو عليه، يأتي الرجل برفقة الذئب في نهاية كل نهار، يطعمه قليلًا من الزاد الذي معظمه أوراق شجر غريب المذاق، ويتفحص جرحه ويفك وثاقه ليقضي حاجته، وفي مساء كان القمر فيه مَلك السماء، ناثرًا غباره الفضي على كل شيء من حوله، بركة الماء تتلألأ ونسيم حُلو يعمر المكان، جاءه حاملًا طبقًا تفوح منه رائحة زكية وكسرة خبز جاف، جلس إلى جواره وراح يطعمه كالعادة، أكل من دون أن يسأل عن ماهية الطعام، كان شهيًّا وبحاجة إلى تلك الوجبة الدسمة المليئة بالدهن، سقاه هذه المرة حتى ارتوى، ثم مضى حاملًا سبيل الضوء الوحيد في ذلك المكان، كان يحسب أن تلك الزيارة هي الأخيرة في هذه الليلة، ولكنه عاد ومعه ذئبه وسراجه، هيَّأ جلسة لنفسه واستقر الذئب إلى جواره، غفا وبقي ذو الفراء يقظًا فحدثهما ساخرًا:

- لقد اعتدت أن أنام وحدي.

الصمت والوحدة والنوم، وفي الصباح استيقظ كمن نام دهرًا، ليته يستطيع طرقعة جسده، الجلوس لوقت طويل هكذا صار يؤلمه، كان الذئب وصاحبه قد اختفيا، لم يشعر برحيلهما ولا يدري كم لبث نائمًا، بعد فترة وجيزة قدِما إليه، حُل وثاقه ليقضي حاجته، وأثناء ذلك تحدث:

- هل لي بطلب؟ أريد فقط أن أمشي لبضع خطوات، جلوسي هنا لأيام إضافية قد يُنسيني المشي.

زمجر الذئب ففهم الرد، عاد مربوطًا إلى الشجرة، وجرح الغدر بساقه يزيده فوق الألم ألمًا، وبقي الرجل طوال النهار في الجوار على غير العادة، يجمع حبات ثمار من الجانب الآخر للبركة، يزرع أشياء أخرى، يُقلم الأشجار، ثم سبح في نهاية الوقت بالبحيرة، كان يضحك وذئبه يلهو معه ناثرًا الرذاذ في كل الاتجاهات، أين بقيتهم؟ أين قطيع الذئاب والقتلة الأشرار؟ خرج الرجل من البركة، جسده النحيل مفتول يحمل آثار خدوش وجروح قديمة، ارتدى أسماله مرة أخرى، بينما ذئبه ظل ينفض الماء عنه ويحك رقبته بساقه الخلفية، قبل المغيب انبعثت في المكان رائحة شواء، أتاه بقطعة منه بعد ذلك، وبعد أن أنهى إطعامه وسقياه، حدثه بياض:

-ألن أُعرض على قائدكم أو قاضيكم؟ لقد سئمت هذه الحياة، هل أُسقى وأُعلف للذبح؟ أرجوك يا رجل، إن كان لي وقت في هذه الحياة فدعني أستحم، رائحتي صارت نتنة ولم أعتَد هذا، أنا ابن مدينة البوغاز، أحب البحر والمياه.

لم يتلقَّ إجابة، وظل يُحدث نفسه حتى غفا، واستيقظ في جوف الليل وقطيع الذئاب يعوي، لعلهم عادوا من معركةٍ ما، تكرر العواء كثيرًا ثم كان الصمت. ليوم وليلة كان الصمت لا يقطعه سوى خرير الماء، لا أثر للذئب وذلك الرجل، هل رحلا وتركاه هنا وحيدًا ليموت مكبلًا إلى تلك الشجرة. أين ذهبا ولماذا يُفعل به هكذا؟ تمنى أن يأتي رجال الحكمدار أو السلطان أو أي من كان ليحرره، ماذا لو جاء سعد، هل يغفر له ما فعله مقابل أن يفك أسره؟! «لا مبرر لفعله، لن يعود سعد أبدًا وأرجو أن يموت قبل أن ألقاه» هكذا حدث نفسه، كان عطشًا في هذا اليوم الساخن، رأى أشباحًا من ماضٍ سحيق تطوف بالمكان: أمه، أخاه، بثينة الشابة الحلوة من الحي الراقي، سعد وأناسًا لا يذكر أسماءهم ولكنه يحفظ وجوههم جيدًا... والذئب.

خرج من بين الحشائش، وسار نحو بركة الماء، شرب ثم جلس يلعق فراءه، وبقي للحظات قبل أن يختفي مرة أخرى بين الأغصان المتشابكة، هل كان هنا طوال الوقت، أم أنه سراب كهؤلاء الذين مروا من هنا؟ العطش والجوع يفتكان به، الإعياء والألم برأسه وضلوعه، إنها النهاية حتمًا، ما كان عليه أن يثرثر ويتحدث مع ذلك الشخص، ها هو قد رحل وتركه يموت والذئب يراقبه من بين الآجام في صمت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دلو من ماء بارد صُب فوق رأسه جعله يستفيق، بعين متهالكة نصف مفتوحة رآه يقف فوق رأسه، إنه مَلك الموت يغسل جسده من كل ما اقترفه، أراد التحدث ولكنه سقط في هوة عميقة جدرانها سوداء، والضوء في آخرها يبتعد ويبتعد حتى تلاشى.

حين استيقظ كان ممددًا على ظهره، وفوقه سقف من سعف النخيل، يداه مكبلتان فوق صدره وكذلك ساقاه، جال في المكان ببصره، لم يأخذ الكثير من الوقت ليتبين أنه بداخل كوخ خشبي، أثاث بدائي الصنع وسيف راجي على المنضدة، لا يستطيع النهوض وآخر ما يذكره أنه كان جائعًا وعطشًا ويهذي. لم يعُد يحصي الأيام ولا أين هو بالتحديد، ولكنه ما زال حيًّا، وذلك الحبل حول معصمه يؤلمه، مر وقت طويل وهو يحملق في السقف، صرير الباب جعله يلف رأسه ليرى القادم، كان الرجل وبجواره الذئب، الذي قطع الغرفة بخطوتين وصار أمامه، يتشممه متفحصًا، شعر بأنفاسه الساخنة فأشاح بوجهه، ليفاجأ بزمجرةٍ رجَّت كيانه. أغمض عينيه وانتظر الأنياب تنغرس في عنقه ولكنْ تراجع الذئب وجلس إلى جوار صاحبه الواقف من دون أي تعبير على وجهه، تقدم وأخذ يساعده على الجلوس، كان قويًّا على الرغم من نحافته، سحبه بقوة وأسند ظهره إلى الحائط، ابتسم بياض وقال:

- شكرًا لك. اسمح لي أن أسألك، أين أنا وكم مضى على وجودي هنا؟

لم يُجِبه وانشغل في صنع شيء ما موليًا له ظهره، فتابع بياض:

- أنت لست أصم بالتأكيد. كل ما أود معرفته هو: هل سأظل مقيدًا هكذا؟ يا رجل، لم يبقَ بيني وبين الجنون سوى شعرة، أتوسل إليك، أريد مقابلة زعيمكم، أسأله ليبت في أمري.

يوم آخر قضاه في الكوخ وسيق بعدها إلى مربطه الدائم، كان يشعر بالإهانة وضآلة مكانته، صار كالبهيمة، حتى أسوأ أيامه بالسجن كان أفضل من هذه المعاملة، والحركة القليلة التي يقوم بها تجهد ساقه المصابة التي يعرج بها، يراقب الرجل الذي يعمل طوال اليوم، يخيط أشياء ويحمل لفائف ما، الذئب كان غائبًا عن المشهد ولكنه كان حاضرًا في المكان، شيء ما حدثه أنه في مكان ما هنا. عواء جاء مباغتًا كإجابة لفضوله وكالعادة تردد العواء كثيرًا، ثم رآه يخرج من بين الحشائش الطويلة متجهًا للناحية الأخرى. ارتعد من رؤيته وظن أنه ذئب مسحور يستطيع قراءة ما يدور بعقله، خلص إلى أن السبيل الوحيد لمغادرة هذا المكان هو الموت. إلى أين سيذهب إن خرج؟ الكَفر، البوغاز، سعد وذكريات يريد أن يدفنها، إذن ليموت وينتهي من تلك الأوجاع وهذه الدنيا الظالمة، ولتدفن سيرته وينساه الناس، وهل يتذكره الناس حقًّا، من سيبكي فوق قبره يومًا أو يذكر شيئًا عنه؟ نادى بصوت جَهْوري:

- أريد الموت.

تكفلت الجدران بترديدها، ثم نطق بها مرة ثانية، وثالثة وقبل أن ينطق الرابعة جاء الذئب مزمجرًا مكشرًا عن أنيابه يتطاير الزبد من فمه، من خلفه ظهر الرجل، بدا مبتسمًا على الرغم من شعر وجهه الكثيف، حركة شاربه أوحت بذلك، تجاوز الذئب مربتًا على رأسه، ووقف أمامه، طال صمته ولم يكف الذئب عن زمجرته حتى أشار له، وفي عقله صوت يحدثه؛ ماذا فعلت ليكون الجنون عقابي، وبشفتين مرتعشتين بدأ الحديث مع حارسه الصامت:

- أرجوك، أتوسل إليك، أنا لم أفعل شيئًا. أنا شخص ذو حظ عاثر، كل ما في الأمر أني التحقت بالعمل في كَفر البردقوش، وظننت أن العالم ابتسم لي ولكنه ألقى بي إلى بحر الرمال، هلك أصحابي وبقيت وحدي، لقد قتل رجالكم أصدقائي من دون رحمة.

هنا انفجر الرجل ضاحكًا، أخذ يضحك بصوت مرتفع، في رد فعل غريب لم يتوقعه بياض الذي وجل من الأمر، وتابع بنبرةٍ يشوبها البكاء:

- أبلغ قادتك أني جاهز للموت.

يزداد الرجل ضحكًا وتردد الجدران صدى صوته، كان يضحك من كل قلبه، هكذا بدا. تعجب بياض من فعله أكثر، أهو مجنون؟! وحين بدأت نوبة الضحك في الخفوت سأله:

- لماذا كل هذا الضحك؟ ومن أنت؟

أجابه الرجل بصوت متين:

- دافن موتاكم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الأيام التالية كان بياض قاصًّا جيدًا، وكان الرجل وذئبه يستمعان له، قص عليهما أدق تفاصيل حياته من دون أن يُسأل، أخبرهما عن كَفر البردقوش وفرسان السلطان، والحكمدار وفرقة صيد الذئاب، التي ذكرها بنبرة توجس وخوف من الجاثم أمامه، ولطالما كان الضحك في غير موضعه من قصص بياض، لا يعلم سببًا ولم يسمع كلمة واحدة منذ قال الرجل له إنه دافن الموتى، لم يفهمه وخُيل لعقله العديد من القصص الخيالية التي تصلح قصصًا للصبية الصغار. وفي إحدى الليالي أيقظه الرجل بقسوةٍ هامسًا:

- هيَّا، سترحل الآن.

لم يفهم بياض شيئًا والرجل يحل وثاقه، لكزه ليحثه على النهوض، فقام مستغربًا الأمر والرجل يجذبه من يده هامسًا:

- هيَّا، اتبعني، أسرِع.

هرول خلفه متعثرًا بالظلام، خرجا من بين الحشائش إلى ممر رملي مليء بالحصى، الجدران تضيق أكثر، إلى أن خلص إلى حائط صخري كبير، لم يكن هناك أثر للرجل، ابتلعه الظلام، تلفت بياض يمينًا ويسارًا ثم وجد الرجل يبرز من شق في الجدار قائلًا:

- مِن هنا.

بالكاد كان المكان يكفي جسده، أدميت قدماه وخدشتْ جسده الصخور، وهواء عليل يضرب وجهه، خرج إلى العراء، كانت الصحراء الشاسعة، والرجل يقف أمامه، على الرغم من الظلام كان هلال جديد يشع، النجوم تصل إلى الأفق البعيد في زرقة السماء الداكنة، فوجئ بالرجل يأتي من خلفه ويجذب ذراعيه، دفعة في ساقه السليمة من الخلف أجبرته على أن يجثو على ركبتيه، كبل الرجل يده خلف ظهره، وبينما كان يحاول فهم ما يحدث بوغت بوضع قماشة سوداء على عينيه، صاح به:

- ماذا أنت فاعل بي؟

بعد أكثر من ساعة أُجبر على التوقف، قدماه تؤلمانه، شعر وكأنما كان يسير على جمر وشوك، طوال الطريق الوعر لم يتحدثا، على الأقل هو كان ثرثارًا يسأل من دون إجابات، يتأفف ويشكو ولا يجد كلمة تُصبره على تلك الرحلة، فقط توقف بضع لحظات ليتأكد أنه يسير خلفه، صوت خطواته كان يطمئنه على الرغم من كونه لا يعرف إلى أين هو ذاهب. بعد لحظات من توقفهما

فك العصابة عن عينيه، إنهما في قلب الصحراء والرجل يقف خلفه قائلًا بصوته المتين:

- اذهب الآن.

- إلى أين؟

- إلى بلدتك ولا تعُد هنا ولا تخبر أحدًا بما رأيت، أليس هذا بكافٍ؟

- لا أعلم إلى أين أذهب، لم يعُد لي شيء.

- لقد أنجيتك من تلك العصابة الشريرة. اذهب ولا تعُد، وإلا أصبحت طعامًا للذئاب.

- هل ستتركني مكبلًا هكذا؟!

- أعلم أنك تستطيع حل وثاقك بطريقة أو بأخرى.

- أنت تتركني للموت هنا يا رجل.

- بل أمنحك حياة قد لا تستحقها. هيَّا، ارحل قبل أن أعود بك وأخبرهم أنك كنت تحاول الهرب وأمسكتك، والآن اركض ولا تلتفت.

لم يتوانَ عن تنفيذ الأمر، هرول ثم راح يركض بأقصى ما يمكنه، لا يعلم إلى أين يذهب. تعثر وسقط على وجهه، كان يحاول النهوض، ومن دون ذراعيه المربوطتين للخلف كان أشبه بدودة عملاقة خرجت للتوِّ من جحرها، نجح أخيرًا وانتصب واقفًا على قدميه المتورمتين، وجرح ساقه ينزف مجددًا. لم يستطِع رؤية الرجل، الظلام سيد الصحراء الشاسعة التي عاد إليها مرة أخرى ولكن وحيدًا مُكبل اليدين. ذلك الشخص ربما أنقذه ليلقي به إلى هلاكه، ظل واقفًا ينظر، يُقلب وجهه في السماء ونجومها وهلالها الوليد، لا يعرف إلى أين يذهب ولا يعرف كيف السبيل إلى حياة لا يريد العودة إليها.

حجر حاد وكثير من الوقت والمجهود ونجح أخيرًا في فك وثاقه، بقي جالسًا فرحًا، ثم استلقى على ظهره ورفع قدميه الحافيتين في الهواء في حركة طفولية، ما زال الليل قائمًا فوق رأسه والصحراء موحشة، وربما هناك أشباح أو سيتعقبه رجال الذئب فور اكتشافهم أمر هربه، مرة أخرى وقف حائرًا إلى أين يذهب، لم يُفكر يومًا في تعلم طرق السفر والاهتداء بالنجوم، ولكن تلك النجوم كان دومًا يراها فوق منزله، لعلها تشير إلى الشمال وربما الجنوب، المشي من دون نعل يقيه الأشواك والحصى، أمر صعب، وحالما يصل لخندق السراب سيعبر الجسر ويمضي إلى الكَفر. سار مسافة طويلة وحين قرر الجلوس للراحة كان الفجر قد بدأ القدوم من الشرق، في تلك اللحظة اكتشف أنه كان يسير لساعة وأكثر في اتجاه خاطئ، كان بائسًا حزينًا والظلام يتبدد لتشرق هضبة كبيرة صخرية على مرمى بصره، أخذ

يحدق فيها غير مصدق لما يراه، كان الرجل وبرفقته الذئب يسيران، انبطح بسرعة على بطنه وظل يراقبهما خائفًا من أن يراه أحدهما، أو يشعر ذلك اللعين به فيأتي ليغرس أنيابه في رأسه الذي بدا كصخرة على الأرض الجرداء.

انتظر حتى اختفيا، ابتلعهما الجبل، ومر بعض الوقت حتى استطاع استجماع ما تبقى من شجاعته وتحرك، حاول ألا يُحدث جلبة أو صوتًا، تحمَّل بصعوبة الأرض الصخرية الوعرة التي لوثتها قطرات من دمائه، كان يرى هذه الجهة لأول مرة، ممر كبير يكفي لمرور خمسة جمال متجاورة، لا أثر لحرس. فكر بالتراجع والعودة إلى حيث أتى، لو اكتشفوا أمره سيموت حتمًا، ولكن شيئًا ما بداخله جعله يتقدم بحذر متواريًا خلف الجدران الصخرية، بضعة منحنيات في الممر الواسع وصار يقف على حافة الواحة، شاسعة أكثر مما تخيل، استطاع تحديد المكان الذي كان أسيرًا فيه، ثم رأى ذلك الشخص يحمل قُفة مليئة بشيء ما، تابعه ببصره من مكمنه فإذا به يدلف إلى كهف كبير، أمضى قليلًا من الوقت بداخله ثم عاد حاملًا أحد الأجولة التي يعرفها جيدًا، عليها ختم السلطان وشعاره، كان ذلك أحد أجولة المؤن على ظهر الإبل التي رافقتهم في الرحلة الأولى. وقف الرجل لبرهة وظل يحدق في الممر، لا بد أنه شعر بوجوده، بقي بياض مختبئًا لبعض الوقت قبل أن يقرر ما سيفعله، سيدلف مستكشفًا المكان، عليه أن يحصل على سيف الأمير راجي وأي شيء قد يساعده في رحلته الطويلة قبل عودة العصابة من غزوتها، زحف على أربع وراح يتحرك ببطء إلى الداخل ثم توقف، كان الذئب يقف أمامه مستعدًّا للهجوم يزمجر بشراسة، برز من العدم قاطعًا الطريق عليه، كالشاة الخائفة ظل يتراجع حتى باغتته ضربة قوية على رأسه أفقدته الوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7- أبو الدهب

- حسنًا، سأحكي لك قصة شخص وحيد مُصاب، هارب من موت نال من حصانه، تركه جثة تحوم حولها النسور على حافة خندق وعر، اضطر للمضي قدمًا من دون الالتفات، كان يعرف أنهم قادمون في أثره وسيجدونه حتمًا، نجا منهم مرتين بصعوبة وفي الثالثة ساعده القدر، سار فوق الرمال الحارقة لأيام نفد فيها زاده وشرابه، الشمس كانت عدوًّا جديدًا يضاف لقائمة مطارديه، تصبح وقد جاءت من ظهره لتسبق خطاه، وتمسي أمام عينيه بحمرة حمئة، حرقت بشرته الرطبة وشيدت له مدنًا من سراب، بعد عام من التخفي والملاحقة كل ما أراده هو الوصول إلى مملكة الساحل، هذا إن نجا من تلك الصحراء القاحلة، مر بجبل الحيتان، جبل عظيم مكسو بالعظام والهياكل العملاقة لحيوانات كانت تسبح يومًا في هذا المكان، جف البحر ولم يكُن لها أي سبيل للنجاة، استظل به لبعض الوقت، ولكن الموت هنا يسكن المكان، لن يصير مثل تلك الأسماك البائسة، في الليل يسير مستأنسًا بمواطن النجوم وزرقة السماء الداكنة النقية، شعر وكأن عقابه السير بالصحراء إلى الأبد، بات بداخله يقين أنه سيهلك حتى قبل أن يصل إلى حافة اليأس والاستسلام، ذات فجر رأى في الأفق هضبة صخرية بعيدة، برزت له من العدم أو أنها سراب ككل القرى والواحات التي مر بها في الأيام الفائتة. سار إليها على الرغم من مظهرها الموحش، ظنًّا منه أن في كنفها سيكون هناك موت أكيد، إلا أنه وجد في قلبها الحياة.

كنت أنا هذا الشخص وهذه مملكتي، وأحكمها منذ سنين لم أعُد أحصيها، أتعرف؟ كان عليَّ حماية أملاكي تلك التي تراها أمام عينيك، لم يأتِ أحد هنا قبلي ولطالما كان بحر الرمال يموج بالأساطير المخيفة، وتبتلع كثبانه الرملية مئات الهائمين والمسافرين، أطلقوا على هذا المكان واحة الجن أو خَور الذئاب، هضبة الضياع وأرض النسيان، أو سمِّها كما شئت، بقيت مملكتي من دون أن يلوثها البشر بفسادهم وخياناتهم، ظلت بقعتي الطاهرة التي أويت إليها، وبينما كان قومك ينسجون أسطورة جديدة حول جيش من قتلة يمتطون الذئاب، كان جيشي الوحيد هو دهب.

ذئب وحيد غريب، ألقى به القدر على عتبة مملكتي، كان قد مر على بقائي هنا شهر زاد أو نقص لأيام، وصرت آكل أي شيء؛ أوراق الشجر والعشب وحتى الثعابين، لا أنكر أني حين رأيته أول مرة من شدة جوعي تخيلته وجبة قد تكفيني لأيام، وهو كان صغيرًا هزيلًا وما زال يحتفظ بزغب خفيف حول عنقه وبطول ظهره، وجدته يشرب من بركة المياه خاصتي أو نبع الحياة كما أسميها، وحين رآني وقف يزمجر ويستعرض أنيابه الصغيرة ويخدش الأرض بمخالبه الضئيلة، كل ما فعلته أن ألقمته حجرًا وصرخت فيه، صدى الصوت

أخافه فركض خارجًا من المكان، تبعته حتى اختفى بين الصخور بالخارج، كنت أحسب أنه رحل، وفي الصباح وجدته يطارد أفعى محاولًا اصطيادها، ولكنه فشل وجلس فوق صخرة كملك على الرغم من هزيمته يُظهر أنه ما زال قويًّا، أيام مضت وهو لا يفارق المكان، يتسلل ليشرب أو يطارد أي شيء يتحرك، كنت أخشاه ويخافني، أقضي وقتي في بناء سقيفة لي، كوخ صغير أستطيع أن أنعم فيه بالنوم من دون خوف، وذات ليلة سمعت عواءً ضعيفًا يقطع سكون الصحراء، لم أتحرك من مكاني، تكورت على نفسي وحاولت النوم ولم يجدِ ذلك نفعًا، في الصباح كان قد رحل، لا أثر له، تبخر في هجير الصحراء.

بعد الظهيرة جاء، مشى مترنحًا بين الأغصان والصخور حتى وصل إلى بركة الماء، شرب حتى ارتوى واتخذ سبيله للخارج، كان هناك جُرح في ساقه اليسرى، نظر إليَّ بعينين واهنتين وكأنه يريد قول شيء، واستلقى بقية النهار عند سفح الهضبة، لم أستطِع تمييزه بين الصخور ولكنه كان هناك. نائم وحيد مصاب، لم أقترب منه وخرجت للصيد. نصبت بضعة فخاخ وحصدت أخرى، جُلها خاوية كالقفر الذي نُصبت فيه، لم أُرِد أن أعود صفر اليدين، تجولت في التلال الصخرية بحثًا عن صيد من دون جدوى، حتى رأيت هبة السماء، ظبية عرجاء كسرت ساقها ولم تستطِع مجاراة قطيعها الذي مر من هنا، ما زال الروث رطبًا وهي غافلة متعبة، تسللت خلفها بروية، مستترًا بالأحجار تارة وساكنًا إلى الظلال من دون حراك تارة أخرى، لم تكُن المرة الأولى التي أصطاد فيها، رمحي كان بدائيًّا، جذع شجرة مدبب. وكان عليَّ أن أقترب إلى أدنى نقطة ممكنة لضمان صيدها، ورميت... كانت إصابة موفقة للغاية. ذبحتها وأنهيت معاناتها وحملتها عائدًا إلى مملكتي الصغيرة، انشغلت في سلخها وإشعال النيران استعدادًا للشواء. تذكرته فحملت مشعلي وخرجت أبحث عنه، كانت حالته سيئة وهناك دماء على فرائه، لم أقترب كثيرًا منه ولكني ألقيت أحشاء الظبية بالقرب منه وعدت أدراجي.

في صبيحة اليوم التالي ظل باقيًا في مكانه، وفي اليوم الثالث جاء ليشرب من البركة، كانت جروحه ما زالت رطبة، يبدو أنه تعارك مع كائن ما، ربما يكون وَشَقًا أو ذئبًا آخر، ارتوى ومشط فراءه بلسانه ووقف ينظر إليَّ ثم أطلق نباحًا رفيع النبرة وخرج، اختفى ليوم آخر وعاد حاملًا بين أنيابه أرنبًا جبليًّا كبيرًا، وضعه على مسافة مني ورحل، ومن هنا بدأت قصتنا معًا. استأنس وجودي وأحببت فضوله ووجوده، ربما أصيب وهو يحاول حماية مملكتي، أو أنه منع شيئًا ما من أن يصل إلى قلب الواحة، على كل حال صار صاحبي الوحيد في هذه الصحراء الموحشة، إنه يَعي كل كلمة ويفهمني، نتحدث ونضحك كثيرًا، نركض في العراء ونلعب، يدفع عني المخاطر ويساعدني في الصيد، وفي الليالي الباردة يكون إلى جواري. متشابهان؛ لا أسرة ولا قطيع ولا أحد يعكر صفو أيامنا، وحين أرحل إلى الجنوب لمقايضة

الجلود مع قبائل غابة الظلال يرافقني حتى حدود الصحراء ويعود أدراجه ليحمي مملكتنا، وفي النهاية صار أسطورة بفعل قومك، اتهموه وإياي بهتانًا وزورًا، كجده البعيد الذي لم يأكل يوسف. البشر هم البشر في كل زمان ومكان، تُحركهم شهواتهم إلى ما يطمحون، ولا يضرهم إن اتهموا الحيوانات بالقسوة والغدر، وهم أهل كل ذلك وأكثر.

في المرة الأولى التي رأيت فيها قومك صرعى كان دهب من قادني إليهم، وجد العديد من الجثث، مذبحة لقافلة كبيرة من جند وتجار قُتلوا جميعًا، دفنتهم ومنعت دهب من أن يأكل أحدهم، ألم يكُن أولى لقاتلهم أن يدفنهم؟ وظللت لأيام أسأل نفسي لمَ يقتل الناس بعضهم بعضًا؟ على كل حال توجهت بعدها بأيام لكَفر البردقوش، كنت بحاجة لبعض الجذور لزراعتها وبعض الأدوات التي أحتاجها في المقايضة مع أهل غابة الظلال، وحِينها رأيت ذلك الشخص المدعو الحكمدار يمشي بخيلاء وغرور، وفي الكَفر سمعت تلك القصص عن قطاع الطريق الذين استولوا على القافلة، وجرائمهم التي يشيب لها الولدان، أتدري؟ كدت أصدق ما يقولون من كثرة انفعالهم وتلك التفاصيل الصغيرة التي يلقونها على مسامعي عن تلك العصابة، في طريق عودتي كنت أفكر في هؤلاء الموتى، أوليست لهم أسر كانت تنتظرهم؟ إنهم جند السلطان، ملابسهم والشارات التي يحملونها كانت توحي بذلك، ولكنهم ماتوا على كل حال وسيتغنى السلطان بشجاعتهم وحتمًا سيأتي بغيرهم ويرسل من ينتقم لقتلاه، وهذا ما حدث. لقد عدتم مرة أخرى كما توقعت ولكن في وقت خاطئ، جئتم مع هبوب عاصفة شديدة، ولا أعلم ما حدث سوى أن هناك الكثير والكثير من القتلى، فرسان ذوو مكانة ونبَّالة وخيل قوية كلهم ماتوا، إبادة تامة بلا رحمة، لا أعرف من الفاعل كالمرة الأولى، ولكن يبدو أنكم قتلتم بعضكم بعضًا داخل العاصفة، في هذه الليلة لم أشعر بدهب حين رحل، يبدو أنه سمع دوي الرصاص أو اشتم رائحة البارود والموت، الذئاب والحيوانات كلها تسمع ما لا نسمع وترى ما لا نرى، انطلق دهب واستطعت تقفي أثره إلى مكان المجزرة، والتي كانت في مكان سابقتها نفسه، شعرت بالخوف حينها وتذكرت حكايات عن فرسان بحر الرمال الموتى، حكاية سمعتها من ملك قبيلة أهل الرمح الفضي، أكبر قبائل غابة الظلال، أشباح من رمل يمتطون جيادًا من الريح ويجوبون الصحراء بحثًا عن قرابين بشرية، ولكني نفضت الفكرة عن رأسي، أعيش هنا منذ سنين طويلة وحدي ولم أصادف أي شبح قَطّ. ليس إلا ذلك الجِني الذي كان يتردد لشرب الماء من البركة وطارده دهب ولم يعُد مرة أخرى. عواء دهب كان بعيدًا قادمًا من الشرق، هرولت مسرعًا لعلي أجده أو أعرف ما الذي يتتبعه، فوجدتك جريحًا مغشيًّا عليك، ومن الجيد أنه كان قد شبع وإلا قضم عنقك.

جررتك على محفة خشبية كنت قد صنعتها من قبل وسحبتك بالجمل إلى حيث أعيش، أويتك وعالجت جراحك وظللت غائبًا عن الوعي ليومين، كنت

أخرج كل مساء لدفن موتاكم والتقاط ما يمكن أن يساعدني في الحياة، وهذه المرة الحصاد كان وفيرًا: سيوفًا وأحذية وبنادق وجملين عظيمين عليهما من المؤن ما يكفيني لعام قادم، بالإضافة للكثير من الفخاخ الحديثة، وحصان جريح هلَك وصار طعامًا لدهب والنسور كبقية جيف الخيل، لقد سئمت من كوني دافن الموتى الخاص بالسلطانِ الذي يبدو أن هناك من يترصد رجاله، وبعد ثرثرتك المتواصلة ذهبت إلى كَفر البردقوش، لم أحتَج إلا ليوم وليلة فقط للذهاب والعودة على ظهر أحد الجمال. رأيت المكان وقد تبدل، قلعة حصينة يكاد بناؤها يتم فوق تل خلف الكَفر، أسوار ضخمة يتم تشييدها ودعمها بأبراج حراسة متينة البنيان، شيء ما أوحى لي أن هناك شيئًا غريبًا يحدث في ذلك المكان، دخلت السوق وكنت أخشى أن يعرف أحد الجمل فجعلت صوَّافًا يجز وبره، بينما أجلس إلى جواره مستمعًا إلى قصص وحكايات جديدة، ثم توجهت لشراء بعض ما أحتاج، فرأيت الناس تجتمع لتسمع خطبة الناجي الوحيد وقصته الهزلية. كان شابًّا نحيفًا يدعونه سعد البرغوث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مر عليهما شهران ونصف دورة للقمر، وبدأ كل واحد منهما يعتاد الآخر رويدًا، مُنح بياض جزءًا صغيرًا ليبيت فيه، حثه على الرحيل ولكن الضخم أصر أن لا مكان له ليذهب إليه، ولا يعرف الهدف من تلك الحياة، حاول جاهدًا كسب ثقة الرجل الذي قال إن اسمه أبو الدهب، كان يهمس كثيرًا مع ذئبه وأحيانًا يضحك، وفي أوقات أخرى كان يكتفي بالجلوس صامتًا، يكشط جلود الغزلان وفراء الأرانب الجبلية ويشمسها، يخرج لنصب فخاخ الصيد مع قدوم الفجر ويعود ليندس في كوخه طوال النهار نائمًا، ساعده بياض في أعماله اليومية من دون طلب منه، وتودد إليه بكثير من الحكايات عن بلاده التي أتى منها، وحين سأله كيف كانت حياتك قبل أن تأتي إلى هنا. لم يجِبه وبدا أن السؤال أغضبه، اعتذر له فما كان ينبغي أن يترك فضوله يقوده إلى تلك الأسئلة الغبية، وحين أصابت الرجل حمى مفاجئة كان بياض إلى جواره، أعد الطعام وسهر على رعايته على الرغم من عينَي دهب المتربصتين، كان مهيبًا وبدا أنه لم يستسِغ وجوده لولا صاحبه، وبين الحين والآخر يأتي ليلعق وجه أبيه المحموم وصدره، وفي الأيام التالية كانا يجلسان أمام النيران كل ليلة يتبادلان القصص والمهارات الحياتية، حكايات عن مدينة البوغاز وبحرها ونوارسها وجميلات يتهادين على الشاطئ كاشفات عن أرجلهن التي يداعبها الموج، وقصص أبي الدهب عن غابات الظلال وقبائلها المتناحرة فيما بينها لأتفه الأسباب، وسأله بياض عن مكان مولده والبلدة التي نشأ فيها، لم يكترث لسؤاله ولم يجِبه كالعادة، نهض وتركه يقاتل أرقه وتلك الأسئلة التي داهمت عقله البسيط. في الصباح استيقظ على صوته يتحدث بعصبية، ظن أنه يُحدث ذئبه أو يُحدث نفسه كعادته، نهض وتوجه إلى الكوخ ليرى ما يحدث، ولم يجد سوى الرجل واقفًا وحده يبتسم له ودهب ليس له أثر

بالمكان، كان غريب الأطوار بحق وربما به مس من جان، أو أنه يحدِّث أشباحًا من الماضي البعيد.

الحياة في الصحراء ليست بالقسوة التي تخيلها، النهار يقضونه في الغور الرطب مع المياه والأشجار، وفي الليل يقودهم دهب في رحلات استكشافه لأنحاء مملكته، ينثر بوله هنا ويحك مخالبه في الصخور، يشمشم جحور السحالي ويتوسد الرمل الناعم متأملًا النجوم، يطلق عواءً عميقًا يسري في الخلاء، ويراقبهما ببلادة وهما يتباريان في الركض والدحرجة على الكثبان، في الواحة يتدربان على المبارزة والرمي بالقوس، وأوقات أخرى يتراهنان على الصيد، يتربصان وينصب كل منهما فخاخه، ويأتي دهب ليفوز ويفسد المنافسة بينهما، تشاركا في بناء جزء إضافي من المنزل وفراش ضيق لبياض، ويمنحان جزءًا من وقتهما ليعلفا الجملين اللذين اعتادا على وجود دهب، حياة لم يألفها أبو الدهب، ولكن من الجيد أن هناك من يتحدث معه الآن. تسع سنوات وأكثر قضاها في قلب الصحراء، كيف أضفى هذا الضخم البائس نوعًا من البهجة؟ أما بياض فكان كلما اختلى بنفسه يتفكر في حياته الجديدة، يتعجب من الرجل كونه بقي كل تلك الفترة وحيدًا معتزلًا للبشر وكل شيء جميل، ولكن أليست في هذه العزلة حياة رائعة؟ تعلم منه الكثير، وأن الحياة زائلة فلا مجال فيها لكره أو انتقام، الجميع سيُدفنون ذات يوم ولن يأخذوا معهم أي شيء، هي حياة واحدة ليعيشوها كما هي. لماذا يخون الناس ويتصارعون على الحياة، يظلمون بعضهم بعضًا ويسفكون الدماء؟ لأجل ماذا؟ يوم إضافي يتنفسون فيه ويأكلون ويتغوطون.

الخيانة والحب والقوة والضعف، كلها أشياء تجري في دماء البشر الذين يختارون بدورهم ما يريدون أن يكونوا عليه، حاول طمس سعد من ذاكرته ولكنه فشل، كل يوم يزداد حنقًا على الغادر، تحدث مع أبي الدهب كثيرًا في هذا الأمر، ولكن الرجل كان دائم النصح:

- لا تكره، فقط كل ما عليك النسيان. انظر حولك وابدأ حياة جديدة، تحرر من الذكرى، وإلا قتلتك كمدًا.

- ليتني أستطيع ذلك.

- نعم، تستطيع. اذهب إلى مملكة الساحل وابحث عن عمل، اركب البحر من هناك وتوجه إلى أرض جديدة أو أي مكان آخر، أليس هذا ما كنت تنوي فعله أنت وصاحبك الغادر بعد أن لملمتما الدراهم وحلي الأمير راجي وفرسانه؟

- لم أذكر أني تفوهت باسم الأمير لك.

- بل قلت.

- ربما، على كل حال سرق سعد كل شيء، حتى حياتي ظن أنه سلبني إياها، والآن أصبح بطل العامة العائد من المعركة وأنا ميت لمن يعرفونني. هل يفتقدني أحد هناك أو في مدينة البوغاز؟ بالطبع لا. من سيتذكر بياض القرش المجرم إلا بالشر، هذا لو تذكرني أحد.

- اسمع يا بياض، سآخذك في رحلة معي إلى غابة الظلال، لدينا مخزون جيد من فراء الأرانب الجبلية وجلود الظباء، ونحتاج إلى زيت وفواكه ودهن، ستكون فرصة رائعة للتعرف على عالم مختلف ولترى وجوهًا جديدة.

- أبو الدهب، لماذا وثقت بي ولم تقتلني؟

هز رأسه نفيًا بحركة سريعة ثم أشار للذئب الجالس يمشط فراءه بلسانه:

- لست أنا من وثق بك، بل دهب، يستطيع تمييز الخبيث من الطيب، إن تلك المخلوقات تستطيع أن ترى ما في نفوسنا وتفهمنا، إنهم أقوام مثلنا.

نقل بياض بصره إلى حيث يرقد دهب، كان يتثاءب قبل أن يسند رأسه أرضًا ويغمض عينيه، وهج النيران يتراقص على فرائه الذهبية، لعله يحلم الآن بغابةٍ حل بها خريف بارد، يطارد أسرابًا من إوز يطير فوق بحيرة هادئة، تراقبه السناجب وتحذر الوعول والظباء إن اقتربت، وربما يجد رفيقة رمادية الفراء بأعين خلابة، يلهوان على سفوح مروج شاسعة، وربما يُنجب مع قدوم نهاية الشتاء جراء ذهبية تشبهه، هل هكذا تحلم الذئاب؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتخذا سبيلهما إلى الجنوب يتقدمهما دهب، وجوده كان يُفزع الجملين لذا سار أمامهما على مسافة ليست قريبة، مما جعلهما هادئين، كانت المرة الأولى التي يمتطي فيها بياض جملًا، ركب بغالًا وأحصنة وحتى الحمير، ولكن تلك تجربة مثيرة، يتمايل جسده الضخم فوق السنام كلما هرول الجمل، يصعدون كثبانًا وينزلون عن هضاب، يتهادى بهما الجملان، ودهب يعتلي المرتفعات مؤمِّنًا طريقهما الطويل الذي اختصرته حكايات لا تنضب، نهار كامل حتى صارا على مشارف الضفة الأخرى لبحر الرمال، أرض مرتفعة سوداء وقد منحتها الشمس الغاربة مشهدًا مخيفًا، كجدار أسود يمتد بعرض الأفق البعيد.

خَيم الليل معهما على حافة غابة كثيفة الأشجار مظلمة، بالكاد أضاءت نارهما جذوع الأشجار القريبة، وربطا الجملين إلى شجرة سنديان عظيمة جلسا تحتها، أما دهب فكان يحوم ويختفي في الظلام ثم يعود مرة أخرى، راقبه بياض متوترًا وأبو الدهب يتحدث إليه:

- إنه لا يدخل تلك الغابة أبدًا، ولا أعرف سر ذلك، ربما لديه ذكرى أليمة يخشاها، أو عدو تسبب في طرده منها ذات يوم.

- أو لعله سئم صحبة بني جنسه مثلنا، أو خانه أحدهم.

شرد أبو الدهب في عينَي ذئبه الساكن:

- سيعود إلى الوجار فور دخولنا للغابة، في العادة أسافر ليلًا حتى يتسنى لي الدخول والخروج في النهار، ولكن تجربة السفر نهارًا برفقة أحدهم ليست بسيئة، حاوِل أن تنعم بقسط من الراحة فما زالت أمامنا رحلة شاقة أخرى لنصل لوجهتنا.

- ما زلت أحاول استيعاب ما يحدث، لست أحلم بالتأكيد، فالدم يفور في عروقي من الحماسة، سمعت كثيرًا عن غابات الظلال وما يسكن بها من وحوش وأناس بدائيين يأكلون البشر، وهأنا أستعد لدخولها.

- بعض الحكايات يجب عدم تصديقها حتى نخوض غمارها.

- نعم من كان يُصدق أن سعد الذي أنقذته مرارًا واتخذته خليلًا لي، يخونني ويطعنني تاركًا إياي للموت؟!

- قلت لك مرارًا يا بياض القرش، عليك أن تنسى كل من أساء إليك وعبث بك وخذلك، ومن تحدث عنك بسوء، ومن حاول أن يؤذيك، انسَهم جميعًا. صدقني إن الوقت الذي يضيع في تذكرهم أثمن بكثير مما يستحقون، ابدأ حياة جديدة من دون ذكراهم، عِش كل يوم مؤمنًا أن هناك شيئًا جيدًا يستحق أن تعيش لأجله.

- هل فعلت أنت هذا؟

مرة أخرى لم يُجِبه ونال الصمت منهما، والحطب يطقطق بينما تأكله النيران، كل واحد منهما راح إلى ذكرى بعيدة، أفاق بياض على حركة دهب الذي تخطاه ليجلس في كنف صاحبه الشارد، وضع الذئب رأسه على فخذ أبيه وراح يتأمل النيران المتراقصة المنعكسة في عينيه اللامعتين، وكأن هو الآخر يتذكر شيئًا من ماضٍ بعيد، ثم أغمض عينيه.

زقزقة عصافير اقترنت بأصوات طيور وحيوانات أخرى، ما زالت السماء تحمل قبسًا من ليل، وكأن الفجر قادم على مهل، نهض ليجد صاحبه يُعد الركب، بينما دهب يقف بعيدًا عنهما، حدثه أبو الدهب بسعادة:

- كنت أعلم أنك ستنهض وحدك، هيًّا يا رجل، كلما أبكرنا في الذهاب تسنى لنا وقت للعودة إلى الواحة مع الفجر الجديد.

امتطيا الجملان وانطلقا إلى داخل الغابة وودعهما دهب بعواء ذي شجن، بقي واقفًا ينظر إليهما وهما يقطعان الطريق بين الأشجار الكبيرة حتى اختفيا، كان عالَمًا مختلفًا سَلب لُب بياض الذي راح يتأمل المكان فاغرًا فاه، وعقله يُذكره بحكايات عن جنيات يسْكُن تلك البقاع، طريق ضيق محاط

بأشجار جذوعها سميكة، وجذور عتيقة متشابكة انبثقت من الأرض، تكسوها طحالب خضراء والكثير من صنوف الفطر، الضباب راح ينقشع رويدًا وضوء الشمس ينسل مارًّا ليضيء المكان، طيور كبيرة مغردة تتنقل بين الأغصان، رأى أبو الدهب تلك النظرة في عين صاحبه، كان مبهورًا فتَنته الخضرة ورائحة الغابة الرطبة، كذلك كانت حاله أول مرة حين خاض الطريق وحده، كان قد جاء بغرض البحث عن ثمار تصلح للزراعة في واحته، ولكنه وجد عالمًا جديدًا استقبله ومنحه فرصة جيدة للحياة، تعرف على القبائل تباعًا: قبيلة الرمح الفضي وقبيلة أسود القاع، وبعدهما تعرف على القبيلة الأكبر وتُدعى مملكة التل الدموي، وبينما كانت كل تلك القبائل متناحرة فيما بينها، أمسى هو أداة الوصل بينها، والشخص الوحيد الذي يستطيع الولوج والخروج من تلك الأماكن المخبأة داخل غياهب غابة الظلال.

التواصل مع أولئك الناس كان صعبًا في البداية، يفهمون لغته ويتحدثون بها، ولكنه كان لا يستطيع فهم لغتهم حتى تعلم بعض الكلمات، ومن ثَمَّ صار يفهمهم جيدًا، بل يتفاءلون بقدومه إليهم، بعد ساعات من المسير توقفا عند نهر صغير جارٍ، وبينما كان الجملان يشربان سأله بياض:

- أما زال هناك الكثير من الوقت لنصل؟

- لا، سوف نعبر النهر ونسير مع انحداره حتى نصل إلى الرمح الفضي.

تطلَّع إليه بياض بصمت، فاستطرد:

- ما ستراه عند وصولنا يستحق أن تصبر.

تبعا مجرى النهر المتدفق متحاشيين السير في الدغل الكثيف حتى ظهر ذلك الشيء أمامهما، نُصب كبير من حجارة سوداء، وفي منتصفها نحت غائر طُلي بلون فضي مشع. رمح صيد غير تقليدي، دقيق التفاصيل وبدا أن نصله يحمل كلمات بلغة غريبة، تجاوزا الحجر إلى داخل القرية، منحهما الجملان هيبة وهما يسيران بين أكواخ من خيزران وأسقف من الأغصان والطين، كان الرجال يلقون التحية على أبي الدهب ويكتفون بتفحص بياض، داكنو البشرة مفتولو العضلات، يرتدون شيئًا أشبه بتنورات قصيرة من الخيش، صدورهم عارية وتحيط أعناقهم قلائد ملونة، كانوا مستغربين من الضيف الجديد، وبدا ذلك جليًّا على وجوه صبية فضُّوا أيديهم مما كانوا يلهون به، وقفوا يحملقون فيه بغرابة. النسوة تهامسن وأبو الدهب يلوح بيديه محييًا الجميع بكلمات عجيبة، وحين توغلا أكثر في القرية التي يشقها جدول ماء صغير قادمًا من النهر ليصب في بحيرة على ضفافها الصخرية، تراصت بيوت من طين وحجارة، وفي وسطها ينتصب رمح من الحجر، يشبه كثيرًا ذلك المنحوت على مدخل القرية، قرعت طبول هادئة مع صوت ترنيمة أو تعويذة راح يلقيها كاهن عجوز نحيل، وتراص خلفه رجال دهنت وجوههم بألوان صفراء

وبيضاء، يحملون رماحًا تشبه النَّصب، توافد أهل القرية تباعًا، بينما يمر شاب وفتاة يرفلان في عباءتين حريريتين صفراوين فاقعٌ لونهما، والكاهن العجوز يرش شيئًا ما فوق رأسيهما، حتى وصلا إلى طاولة صخرية وجيء إليهما بشاة مقيدة الأرجل، كانت تدور برأسها محملقة بفزع وأثار ثغاؤها الضجيج، ثبَّتها الكاهن ومنح الشاب سكينًا، وسالت الدماء من المذبح الحجري إلى البحيرة، بعدها سار الشاب والفتاة باتجاه أكبر منزل بالقرية، همس بياض سائلًا:

- ما هذا؟

- إنه الأمير «كتيمبي» وتلك أخته الأميرة «كونوَا»، والدهما يُدعى «حارس الرمح الفضي»، وهو رجل حكيم وزعيم قبيلة أهل الرمح الفضي التي ذكرتها لك، ويبدو أن ذلك قربان لشيء ما.

توقف أمامهما ثلاثة رجال أشداء يرتدون أقنعة ملونة تخفي وجوههم، ودروعًا من جلود التماسيح، تحدث كبيرهم مع أبي الذهب بلكنة غريبة وكلمات حاول بياض فهم بعضها، أما الآخران فكانا يتفحصانه وكل واحد منهما ممسك بسلسلة حديدية متصلة بطوق يحيط برقبة قردين غاضبين، الجملان توترا، أصدرا رغاءً مرتفعًا جعل القردة تهيج أكثر، تصرخ وتقفز محاولة الهجوم على الجملين، ولكن الرجل الضخم أشار لصاحبيه فانسحبا ومعهما حيواناهما الأليفان، أناخ أبو الذهب جمله كأنه يعرفه منذ سنين، ثم أجلس جمل بياض محدثًا إياه:

- هذا قائد الحرس هنا. وما رأيناه قبل قليل كان طقوس تقديم قربان ليبارك الله خطوتهما القادمة، سيتزوج الأمير - «كتيمبي» - من ابنة ملك التل الدموي، والأميرة - «كونوَا» - ستتزوج ابن الملك ذاته، زواج لوقف حرب استمرت لسنين، نزاع وثأر قديم ونهر دم لن يتوقف إلا بإتمام تلك الزيجة، وإن وجبت إسالة الدماء فالشاة كافية.

ابتسم بياض:

- أفهم تلك الأمور. سمعت أن السلطان تزوج من مملكة الساحل لأجل وقف الحرب القديمة بين السلطنة والسواحلية.

- دعك من أمر السلطنة اللعينة، إننا في قلب قرية الرمح الفضي عاصمة غابة الظلال ومركزها، وتلك الحيوانات هي قردة البابون، بمثابة كلاب صيد ولكنها أشد شراسة وقوة من قطيع الأسود. أنصِت، لا تقُم بأي فعل غريب، هؤلاء القوم لا يحبون الغرباء، حاول أن تعكر صفو أحدهم وسيكون رأسك ورأسي مقدمين كقربان لحربتهم الفضية.

- أيعبدون تلك الحربة الصخرية؟

نظرة استنكار من أبي الدهب جعلت بياض يصمت. أنزلا بضاعتهما وراحا يتجولان بين الأكواخ، وصاحب الذئب يتبادل معهما الحديث بلغتهم، يضحك مع هذا ويواسي هذه، يداعب الصغار بحيل ساذجة تجعلهم فرحين، قضيا وقتًا ممتعًا وحين جاء وقت مغادرتهما جاءهما ذلك الضخم ذو القناع، تحدث إليهما بلغتهما وبصوت غليظ:

- أرجو أن تكون المقايضة موفقة اليوم.

أجابه بياض بابتسامة عريضة، بينما حدثه أبو الدهب قائلًا:

- وددنا البقاء أكثر ولكن تعلم أن علينا الخروج من الغابة قبل أن يأتي الليل، كنت أود مقابلة الزعيم ولكن لعل المرة القادمة نلقاه.

- لقد أوصاني بأن تبقيا معنا لتشهدا مراسم العُرس والموكب حتى مملكة التل الدموي.

- هذا شرف لنا بالتأكيد، نحن متأخران وما زال أمامنا طريق طويل.

- ليس لك أي عذر يا درويش، الأمير «كتيمبي» ينتظرك الآن، وأنت تعرف كم يُقدرك ويبتهج لوجودك.

لم يكُن هناك مجال للرفض، حزما متاعهما فوق الجملين وذهبا خلف الحارس الضخم، فناء شاسع يلعب فيه بضعة أطفال وترضع سيدة صغيرها، أما المنزل فعبارة عن جدار من الطين والصخر، ومن فوقه الجبل قائم، باب يقف عليه حارسان يرتديان الأقنعة المزركشة أفسحا لهما الطريق، وفي الداخل كان المنزل بسيطًا، وبدا أكثر وكأنه كهف قديم جدرانه وسمت برسوم بدائية لأناس تصطاد دببة وأفيالًا، أناس لهم ذيول كالأسماك! كل ذلك بدا واضحًا بفعل وهج مشاعل معلقة على الجدران الصخرية، ومبخرة نحاسية كبيرة تتوسط القاعة الكبيرة والتي تؤدي إلى عدة غرف أسدلت عليها الستائر، استقبلهما «كتيمبي» بحفاوة محتضنًا أبا الدهب، ثم صافح بياض متطلعًا إليه وهو يحدث الأول بمرح:

- تلك المرة الوحيدة التي أرى معك فيها شخصًا جديدًا.

- إنه صديق قديم جاء لزيارتي وكان يريد التبضع والمقايضة.

- صديقك هو صديقنا يا درويش، لقد جئتما في الموعد المناسب. غدًا سأحقق حُلمًا طال لسنين، وكنت أحسب أنه لن يتحقق أبدًا.

- لقد فعل والدك الصواب يا «كتيمبي».

- تذكر في المرة الماضية حين التقينا قلت لي دعك من الأوهام وانظر للواقع، وحاول أن تفعل شيئًا، وقد فعلت؛ سعيت للسلام بكل الطرق، والآن مملكتِانا ستنعمان بأحفاد مشتركين وتتوقف الحرب للأبد.

ربت أبو الدهب على ظهره وانفرج شاربه الكث بابتسامة كبيرة:

- سعيد لأجلك يا صديقي.

- أتعرف يا درويش، نأمل أن تنتهي الخلافات كلها وتعود غابة الظلال إلى وحدتها القديمة، ولكن قبيلة أسود القاع ما زالت تصر على الحرب، ومملكة التل الدموي متعنتة في قبول شروط السلام معها، ولكن كل هذا سيتغير، سنرسم مستقبلًا زاهرًا ونصبح أمة قوية كتلك البلاد التي حكيت لي عنها ذات يوم. أريد بناء عالم جديد لأمتنا ومدن كبيرة لها أسوار حجرية وطرق ممهدة، والآن دعنا من تلك الأمور كلها ولنحتفل ونرحب بصديقنا الجديد. ما اسمه؟!

نطق بياض بسرعة مجاوبًا:

- بياض، اسمي بياض القرش.

ضحك «كتيمبي»:

- اسم غريب وأمامنا وقت طويل لتحكي لي عن سبب تسميتك. الليلة هي عشية العُرس وفي الصباح سيكون موكبي إلى مملكة أميرتي، سأحصل على عروسي وسيعود معنا موكب الأمير «ساندو» زوج أختي، سيكون يومًا رائعًا، ستبتهجان، سأحرص على ذلك.

كانت كلمات الشاب «كتيمبي» تقطر فرحًا تمازج مع قرع طبول ونسوة يرقصن، توافد المهنئون يحملون سلال الهدايا للأميرين، وبياض جالس مسترخٍ يشاهد تلك الطقوس، أكل فاكهة وشرب مشروبات غريبة حتى امتلأتً معدته، يشعر وكأنه أحد الأمراء وقد تمت دعوته للزفاف الملكي، آخر زفاف رآه انتهى بمشاجرة بين أهل العروس وزوجها، ابتسم متذكرًا تلك الليلة هناك في البوغاز، على الرغم من الصخب من حوله كان عقله في حالة هدوء عجيب، ربما كان هذا الشراب الحُلو السببَ، جال بعينيه في المكان؛ الوجوه الملطخة بالألوان، الزعيم السمين جالس على عرش من عظام حيوان بائس منقرض، زوجاته وكهنته والأمير السعيد وأخته الأميرة الحزينة، هكذا بدت ملامحها، أما أبو الدهب فكان يرقص بغرابة مثل الراقصين، وكأنه عاش وتربى بينهم، في ذلك الجو الصاخب بدا كل شيء وكأنه حُلم عجائبي. مع انتصاف الليل بدأ الناس في الانسحاب لأكواخهم، تمدد البعض على الأرضية الصخرية، وآخرون تكوموا وقد أعياهم الرقص والشراب، نهض نافضًا عن عاتقيه كسل النوم وخرج ليقضي حاجته، الجو لطيف وضوء المشاعل المنتشرة منح المكان شاعرية وهدوءًا عجيبًا، وقف يشاهد انعكاس الأضواء على سطح البحيرة، ما زال الاحتفال قائمًا أمام منزل «كتيمبي»، من بقي ساهرًا أصر على أن يثير الصخب في تلك الليلة التي لن ينسوها، نهاية الحرب وزواج ملكي، نهاية سعيدة لأحلام الفتى الأسمر، حياة بسيطة تلك التي يعيشها أهل القبيلة، ليسوا كأهل كَفر

البردقوش المتعنتين والذين يحسبون أنفسهم أفضل البشر، وبالتأكيد ليس لديهم بذخ البوغاز، لكنهم سعداء يحبون بعضهم بعضًا ولا يحمل أحد للآخر ضغينة، وجوه سمراء نقية وقلوب صافية كريمة. جلس مسندًا ظهره إلى شجرةٍ امتدت جذورها لترتوي من البحيرة، أخذ ينظر إلى النُّصب المُقام في وسط البحيرة حتى غفا، لم يدرِ كم من الوقت لبث حين فتح عينيه، كان الفجر قد بدأ في الانبثاق خلف رؤوس الأشجار، تثاءب ودار بوجهه في المكان فوجدها، تقف على مقربة منه، لم يشعر بقدومها، ظل جامدًا يحدق في وجهها حتى انتبه لوجود حارسيها، حدثته بلغته، من دون أن تلتفت، بصوت أنثوي ناعم:

- هل أعجبتك قريتنا؟

إنها العروس، الأميرة «كونوَا»، خفض رأسه قليلًا، وبطرف عينيه ظل يتابع حركة حارسيها، كان على مقربة منهما وهو يقول:

- بالتأكيد سمو الأميرة.

استدارت وأشارت إليهما بالابتعاد قليلًا، فتراجعا لبضعة أمتار، اقتربت من مصطبة حجرية بالقرب من شاطئ البحيرة، أخذت طبقًا صغيرًا من الخوص، وضعت فيه وردة بيضاء، كان يتابعها خجلًا، لا يفهم ما تفعل ثم رآها تنحني وتضع الطبق فوق صفحة الماء وتدفعه ليبحر، ثم اعتدلت واقفة إلى جواره متطلعة إلى النُّصب:

- أمنيات نرسلها إلى الرب ليعطف علينا. إنها المرة الأولى التي تزور فيها غابة الظلال، أليس كذلك؟

- نعم، ويبدو أنها لن تكون الأخيرة.

- من أي البلاد أنت؟

- أنا من بلدة بعيدة جدًّا، مدينة تُدعى البوغاز والبعض يُطلق عليها مدينة البحر.

- سمعت بها، هل هناك حروب في تلك البلاد؟

- لا، توقفت الحروب منذ زمن بعيد ولم يكُن السلطان بحاجة لعقد زيجات من أجل السلام، لقد قضى تمامًا على كل منافسيه وزوجاتهم وبناتهم وأولادهم وبقي وحده يحكم.

كانت تستمع إليه بينما انحنت ملتقطة حجرًا، وبمجرد أن أنهى كلماته أرسلت هي الحجر في الهواء ليسقط فوق سفينة أمنياتها، شاهدتها تغرق ثم التفتت إليه عاقدة حاجبيها:

- من الجيد أنهن مِتن ولم يتزوجن قهرًا وغصبًا.

آخذ يحدق في المياه التي ابتلعت طبق الخوص، كانت إصابتها دقيقة للغاية، وحين عاد ببصره إليها كانت رحلت، تابع خطواتها بنظرة متفحصة، كانت قصيرة لها جسد نُحت بحرفية عالية، سمراء خشنة الشعر مكتنزة الردف. كان يفكر في كلماتها الأخيرة حين ظهر أبو الدهب وهو ينادي فيه:

- أين كنت يا رجل؟ الموكب سينطلق مع الشروق إلى مملكة التل الدموي، هيَّا لنذهب، ستكون مسيرة طويلة ولكننا سنحظى بالكثير من البهجة هناك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طريق طويل قطعه رجال قبيلة الموارنة، يرتدون ملابس من جلود التماسيح، ووجوههم ملونة بالأصفر والأبيض، يقرعون الطبول ويسيرون في طوابير منظمة حاملين رماحهم الفضية العجيبة، ومن خلفهم يسير حاملو الهدايا بصناديق مختلف ألوانها ينشدون أغنية ما بلغتهم، وفي المنتصف كان يسير الزعيم و«كتيمبي» ولم تأتِ «كونوَا»، وخلفهم سادة القبيلة وبينهم كان بياض وأبو الدهب، الغابة ضجت بأصواتهم الهادرة، كان التقليد يقتضي أن يذهب «كتيمبي» ويحصل على زوجته ابنة ملك التل الدموي، ستعود معه إلى قريته مرتدية عباءة زوجها وفي حراسة رجال قبيلته. وأخوها الكبير «ساندو» يقوم بالمثل، سيذهب لقبيلة الرمح الفضي مع محاربيه الأشداء ويحصل على زوجته الأميرة «كونوَا» ويعود إلى مملكته.

التل الدموي كان مملكة بالفعل حين قارنها بياض بقرية الرمح الفضي، تقع على حافة تل مرتفع تربته حمراء، محاطة بأسوار مدببة من أخشاب الجوز، ولها بوابة كبيرة عُلقت فوقها جمجمة ضخمة لماموث عظيم، وتدلت على جانبي الباب راية حمراء رسمت عليها الجمجمة ذاتها باللون الأبيض، وفي الداخل كان الصخب يُعمر الساحة الكبرى، وبيت الملك سهل التمييز: بناء حجري مرتفع عن بقية المنازل التي جميعها من الخشب والقش. كان بيتًا عتيقًا كصاحبه الذي اعتمر تاجًا من العاج المعشق بالذهب والزبرجد، استقبلوهم بصيحات جنونية وقرع طبول يصم الآذان، تناثرت أوراق الأشجار والورد في الهواء، الزعيمان تبادلا عبارات الود والمجاملات وسط أجواء احتفالية، ثم جيء بالعروس، تركب حمالة ذهبية مرصعة بأحجار اليشب الأخضر والياقوت الأحمر، خرجت من ستائر الحمالة مخملية ترفل في ثوب أخضر، كانت شقراء جميلة، فأهل التل الدموي مختلفون في الهيئة كثيرًا عن أهل الرمح الفضي، بشرتهم أفتح بكثير وأعينهم ملونة، بدوا أقرب شبهًا للغجر الساكنين على مصب النهر الكبير، ملابسهم أيضًا مختلفة من أقمشة وجلود نمور مرقطة وحلي من عظام، ربما تلك أفخم ثيابهم يرتدونها من أجل العُرس، وقف العروسان بعضهما أمام بعض، عينا «كتيمبي» تشعان بالفرح و«سيرين» بدت خجلة والكاهن الأكبر للتل يتلو ترنيمة غريبة، وما لبث أن قدم لهما إناءً فخاريًّا شربت منه العروس أولًا ثم قرَّبت فمها من فم «كتيمبي» الذي قابل هذا بسعادة، كان يشرب من فمها وشربت من فمه

بعد ذلك، أحس بياض بأنه يريد التقيؤ في تلك اللحظة. ولكنه أشاح بوجهه ليفاجأ بعجوز يتفحصه فاغرًا فاه مبتسمًا وقد فقد كل أسنانه إلا واحدة، بعد تلك الطقوس بدأت رحلة العودة إلى قرية الرمح الفضي لمزيد من طقوس الزواج وليحظى الأمير «ساندو» بزوجته «كونوَا». همس لأبي الدهب:

- لقد تعبت، أريد النوم والراحة.

- أنا أيضًا أعيتني كل تلك الطقوس وأريد أن أنام، على كل حال لم يتبقَّ سوى العودة معهم، فننعم بقسط من النوم ونرحل فجرًا.

لم ينَم بياض في تلك الليلة، حاصرته نظرات الأميرة الراحلة مع زوجها وجعلته يفكر طول الليل، حديثها القصير معه على شاطئ البحيرة، يبدو أن لا خيار لها في الأمر، أُجبرت على الزواج لتوقف الحرب، لا أحد يملك حرية الاختيار، وحده سعد فعل، اختار حياته مقابل موته هو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8- جياد البرق

ماذا لو أُجبرنا على تغيير مسارنا يومًا، هل يبقى لنا أمل في العودة إلى ذات النقطة؟ هل نستطيع الذهاب حقًّا إلى ما كنا نطمح إذا سبحنا مع التيار؟ من هذا الأحمق الذي يقف في مواجهة سيل جارف مباغت؟ لتحل كل اللعنات على السلطان وحاشيته وذلك الجيش القادم إلى الكَفر، تمنى شاهين الحكمدار أن تبتلعهم الأرض قبل أن يصلوا، كل ما خطط له سيتم تأجيله إلى أجل غير مسمى، جاءته توصية بأن يرسل كل رجاله مع الجيش إلى الجنوب، لم يستسِغ الأمر فاجتمع بدويداره رشوان وقائمقامه سعد وجملة من رجاله، تشاور معهم وأجمعوا على أن تذهب القوات التي أعدها مع جند السلطان، وكأن الأمر بأيديهم ولكنه حاول حفظ ماء وجهه أمامهم، سيذهب سعد ومعه ألفان وخمسمائة رجل هم كل جيشه، طلب من رشوان أن يزيد من عدد البنائين حتى يكتمل بناء القنطرة الواصلة من بيته إلى الحصن، والحي الجديد صار ممتلئًا بمن جاء بهم من البادية، منحهم حوانيت وأغدق عليهم المال الوفير مما زاد استغراب بقية أهل الكَفر، وصار هناك احتكاك وشجار شبه يومي بين ناس الكَفر وتلك الشرذمة التي أتى بها من العدم ليوطنهم في أرض البردقوش، فعلٌ لم تفهمه رقية وبقية أهل الكَفر، الأمر يزداد صعوبة عليه ويكاد يخرج عن السيطرة لولا قسوة رشوان وقوات الدرك.

قيل إن كَفر البردقوش في الأصل كان مكان تلك البحيرة الشاسعة، والتي كانت في الأصل جزءًا من التل الصغير، الذي يعتليه الآن حصن الحكمدار، وفي زمن سحيق خُسف بالنصف الأكبر من التل، وما رددته الجدات حفظًا عن جداتهن قبل مجيء بني شمس بعشرات السنين، أن الخسف وقع بسبب ظُلم مَلك لشعبه، فحين زلزلت الأرض لم يجدوا غير قصره المتين يحتمون به، ركعوا له ونافقوه فأدخلهم. والأرض تزلزل كل يوم أشد من اليوم الذي قبله، تقرقع وتصدر أصواتًا تفزع، اهتدى لفكرة أن يذبح كل يوم شخصًا قربانًا لما كان يعبده، وقدم الأثرياء عبيدهم كقرابين للملك، وبقي لشهور يذبح فيهم واحدًا تلو الآخر، مغصوبين على أمرهم مكبلين يذرفون الدمع، لم يكُن لهم حق الاختيار في الحياة، وكانوا في محبسهم قد قرروا أن يتقبلوا الأمر آملين أن تنفرج غمتهم قبل أن يموتوا جميعًا، ابتهلوا وصلوا وصبروا، وحين قطع رأس آخر واحد منهم خُسفت الأرض، والأثرياء يومئذٍ يدفعون بعضهم بعضًا نحو الموت، خُسف بهم جميعًا، هو وأهله وكل رعيته، أكلتهم الأرض وتجشأت بحيرة كبيرة، حوافها من زهر البردقوش الذي نبت تخليدًا لذكرى هؤلاء العبيد المظلومين، وأُقيم المقام على شاطئ البحيرة ليبتهل الناس بذكراهم في موسم الحصاد، والآن قصة أخرى انتشرت في أرجاء القرية، نبوءة لا أحد يعلم مصدرها.

الحكمدار وجد خبيئة من ذهب أسفل التل، هكذا يقول الناس، وإلا لمَ جاءت العرَّافة المشؤومة منذ أشهر، الكنز كان مرصودًا وعليه لعنة قديمة، بناء الحصن والقنطرة المؤدية إليه يُعجلان بدمار القرية، عدد العمال الغرقى يزداد، وبناء القنطرة توقف لعدة أيام، عادت قصص التماسيح الكبيرة التي تلتهم الماشية، ومن يجرؤ على السباحة في البحيرة، ونبوءة تقول: «من يدنس بحيرة البردقوش سيغرق فيها»، هكذا غرق المقتدر بدران الشمسي عم شاهين ذات يوم بالبحيرة الملعونة، وأسطورة أخرى حُرفت تقول: «حين يُبنى بيت بالتل سيخسف كسابقه».

الحصن كاد أن يكتمل ولم يحدث شيء، والنسوة يتناقلن الحكاية ويزدن بعض البهارات للحبكة، أناس يخشون الخسف وأناس كُثر يحبون الحكمدار، ذلك الشخص الذي يبني لهم مدينة عظيمة ستضاهي مدن السلطنة هيبة وجمالًا، ستكون قلعتها أعجوبة كمدينة الملوك البائدة بتلال بني شمس، وسيأتي الناس من كل حدب لشراء محاصيلهم من السوق الكبيرة التي يتم الإعداد لها. القرى والكفور المجاورة صارت تثق به أكثر، يمدونه بكل ما يريد لإتمام بناء مدينته، تأتيه الوفود بشكل شبه يومي محملين بالهدايا والآمال لعلهم ينالون من عطائه الوفير.

يعود إلى منزله متأخرًا، يمر بغرفة سميرة ويقضي معها الليل كله، وقبيل الفجر يصعد ليجد رقية تغط في نوم عميق، لم يقربها منذ فترة، لم يتحدثا كثيرًا إلا في شؤون الكَفر، تستقبل زوجات زعماء القرى والكفور الأخرى، وتُدبر أمور الفقراء من أهل الكَفر وتستمع لشكاواهم في غيابه، كان يحتاج وجودها بشكل ما، بينما كانت سميرة تمنحه كل شيء بشغف لا مثيل له، تفعل ما يريد قبل أن يطلب، تمنحه الصفاء اللازم ليخوض غمار التفكير في مجدٍ هو صاحبه، لا بأس أن يتأخر مخططه قليلًا ولكن عليه أن يكون حذرًا، ويخرج من تلك الحرب بأكبر مكاسب يستطيع جمعها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقيدة اليدين إلى أعمدة الفراش بحبل غليظ، شعرها الناري مبعثر وعيناها مغمضتان من فرط اللذة، تشهق وتئنُّ وتعض على شفتيها الحمراوين، لحظات وتشنَّج جسدها ثم انتفضت، ارتخت ذراعاها المربوطتان، ضحكت وهو يعتليها:

- ألم تشبع بعد؟

قبَّلها بقسوة عاضًّا شفتيها:

- نحن لم نبدأ بعد.

كادت أن تقول شيئًا ولكن طرقات الباب ألجمتها، لم يبالِ سعد وقبَّلها ثانية بنهم والطرقات تعود مرة أخرى وصاحبها يقول:

- سيدي سعد، الحكمدار يريد حضورك لمجلسه بأسرع ما يمكن، يقول لك إن جيش السلطان قد وصل إلى مشارف الكَفر وعليك الحضور.

غمغم سعد هامسًا في أذنها:

- يبدو أن معركتنا ستؤجل للمساء يا تفاحتي.

كان ينهض من فوقها فكبَّلته بساقيها حول خصره بقوة، وقالت:

- لن أدعك تذهب.

كان يحاول التملص منها والرجل يدق الباب مرة ثالثة قائلًا:

- سيدي القائد، هل أنت مستيقظ؟

ارتفع صوت سعد ليصل إلى الرجل واضحًا صارمًا:

- أخبر الحكمدار بأني قادم، هيَّا ارحل.

قبَّلته قبلة طويلة آلمته وأدمت شفتيه، قبض على رقبتها بقوة حتى كادت تختنق لتتركه، نزع نفسه منها متحسسًا الدم المسال من شفته السفلى:

- مجنونة أنتِ.

نهض عنها وتوجه إلى المرآة متأملًا وجهه، وهي تلوح بساقيها في الهواء كالأطفال:

- بل شبقة. أريدك الآن، لا تذهب.

- سمعتِ ما قاله الرجل، جيش السلطان جاء وتلك فرصتي التي أنتظرها منذ فترة، نحن ذاهبون للحرب.

- لم تخبرني بذلك من قبل، هل ستتركني؟

- نعم سأتركك هكذا مقيدة حتى أعود.

أطلق ضحكة ماكرة وهو يحمل منشفة وتوجه إلى الحمَّام، كانت تتحدث وبينما هو يصب فوق رأسه ماءً باردًا، منح عقله نشوةَ وظفرَ قائد حربٍ سينتصر قريبًا وسيسجل التاريخ اسمه كفاتح لبحر الرمال، حل وثاقها وذهب إلى حيث خزانة ملابسه، اختار حُلة رمادية طرز صدرها بخيوط ذهبية رفيعة، وعلى كتفيه أسدل عباءة سوداء مشبكها ذهبي أحاط بصدره، عمامته كانت من اللون ذاته، ومنحته «روزا» قُبلة على خده قبل أن يخرج، امتطى جواده وخرج من الحصن يتبعه ستة رجال هم حرسه الخاص، أثناء نزوله عن التل رآهم في الأفق، الرايات والبيارق، مئات من المشاة والفرسان قادمون ومن خلفهم سحابة من الغبار. حث الجواد الأرقط ليركض نحو الكَفر، كان عليه أن يكون في استقبالهم.

تراص الجنود أمام كَفر البردقوش مرتدين كامل عتادهم، وأمامهم كان الحكمدار وإلى جواره سعد ورشوان وزعماء القرى وعلية القوم، لم يأتِ جيش بهذا الحجم إلى تلك الأنحاء منذ عقود، يتقدمهم صفان من القادة يرتدون دروعًا من زرد ويمتطون خيولًا حربية جامحة مدرعة، خلفهم كان حملة الرايات يسيرون شاهرين راية السلطنة الزرقاء خفَّاقة وصقرها الأسود باسط جناحيه، ومن خلفهم المشاة في المنتصف، وعن اليمين والشمال فرسان جبل الثلج والجبل الأزرق، أفضل خيالة في المملكة، الجياد الحربية تمشي بخيلاء استمدته من راكبيها، تجمهر سكان كَفر البردقوش ليروا الجيش السلطاني، والحكمدار شاهين يستقبل القادة العظام بترحاب وافر، كانوا أساطير حية بالنسبة للقوم، أما بالنسبة إليه فكانوا مصيبة وحطت فوق رأسه، حدث نفسه وهو يصافحهم ويحييهم: «لم أحسب حساب هؤلاء قَطُّ. ظننت أني بنهاية العام سأدخل لمدينة البوغاز فاتحًا مستردًّا ما كان لأجدادي من يدي بني الأزرق وسلطانهم المتبجح، ولكن يبدو أن للقدر كلمة أخرى وهي التأجيل». أما سعد فبدا كأمير حرب مخضرم، لفت الانتباه بانضباطه ووقفته العسكرية وهندامه الأنيق، قدمه شاهين لهم بصفته قائد قوات الكَفر والذي سيذهب معهم إلى تلك الحرب.

في المساء اجتمع بقادة جيش السلطان. مأدبة عامرة بصنوف شتى من الطعام والشراب والحلوى، سلّام يَعزف لحنًا حماسيًّا ويدندن بسيَر الأبطال والمغازية، والضحكات تملأ المكان، سميرة تميل ضاحكة وهي تصب النبيذ لرجال السلطان، وعينا الحكمدار تراقبانها بتوعد، و«روزا» تجلس بجوار سعد كأميرة من جزر النار ترفل في ثوب أسود زادها توهجًا، أما هو فكان منغمسًا في حوار مع قاسم أصلان، أسد السلطنة وقائد الجيش الأزرق، ثاقب العينين حاد الكلمات ولكنه مجامل جيد مع النساء، تجاوز السابعة والخمسين وشيب رأسه ما زال يحتفظ بلمعة ذهبية، لم يكُن يعنيه كل ما يحدث حوله، كان يستمع لسعد وعيناه تجوبان في وجوه الحاضرين حتى استقرتا عليها، رقية كملكة تحكم هذا المكان، تشع كنجمة لامعة بين كواكب معتمة، تجلس رافعة رأسها بشموخ، توزع الابتسامات المجاملة هنا وهناك، تتابع بعينيها أمينة التي تلقي على الفتيات التعليمات. ليلة صاخبة قلما حدثت في الكَفر ولكنها تليق بمكانة الرجال الذاهبين إلى الحرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم الثاني أقيم اجتماع بين قادة الجيش، القاعة الكبيرة ببيت الحكمدارية كانت المكان المناسب لذلك، قادة الألوية والأمراء والفرسان كلهم كانوا يقفون بينما يفرش الخَدم خريطة كبيرة مرسومة على جلد ثور أمهق، كل شيء مفصل بها، التلال والأنهار والطرق والمدن، سحب قاسم أصلان سيفه خارج الغمد وراح يشير إلى دائرة سوداء بالخريطة قائلًا:

- سنتحرك فجرًا من هنا، وسنتوجه إلى قنطرة خندق السراب، سنقيم نقطة ارتكاز وإمداد للقوات بالضفة المقابلة. وبهذا نكون أمَّنا الجسر وسيطرنا على نقطة العبور من وإلى بحر الرمال الشاسع، وبعد التخييم والمبيت لليلة واحدة سننقسم إلى ثلاثة لواءات، كل فيلق هو بمثابة جيش كامل العتاد والمؤن الكافية لكل قواتنا، جيوش صغيرة مهمتها تفتيش الصحراء بحثًا عن أي أحياء، والقرى المقاومة ستكون عبرة لمن سنبقيه حيًّا. الجيش الأول مكون من خمسمائة من المشاة والرماة وخمسين خيالًا، سيتجهون إلى الغرب، وعلى رأسهم قائد فرسان الجبل الأزرق سليمان ناب، والجيش الثاني سيتجه إلى الجنوب مباشرة عبر طريق الوادي القديم، سيقودهم القائمقام سعد بن مرزوق، فيلق مكون من ألف من المشاة ورماة البنادق ومائتين من الفرسان بالإضافة لفرقة كلاب الصيد، أما أنا فسأسير بالأربعة آلاف رجل المتبقين شرقًا، جميعنا سنخيم على شاطئ غابة الظلال، في الفجر الثامن من انطلاقنا، سيكون بيننا جميعًا جياد البرق، ينقلون الرسائل بين الجيوش الثلاثة طوال الوقت، سنغطي كل شبر في تلك الصحراء، إنها لنا ولن نسمح لأحد بأن ينتهك أرضنا ويسفك الدماء فيها بغير حق، لا تأخذكم شفقة بهم ولا رحمة، لقد قتلوا الأمير راجي ومن قبله قافلة السلطان، فارفعوا راية سلطاننا المعظم فوق كل ربوة من هنا وحتى غابة الظلال، ولتُرق دماء القتلة فوق الرمال.

انفض الاجتماع وذهب الجميع، لم يبقَ في القاعة سوى شاهين، ظل واقفًا يسافر بعينيه في أنحاء الخريطة الكبيرة، حدَّث نفسه:

- كل تلك الأراضي الواقعة بين البوغاز وخندق السراب كانت ملك أجدادي ذات يوم، وكان من المفترض أن تكون لي بحلول العام الجديد. لو أن الأمور تسير كما يجب أن تكون، لكان رجالي الآن يسيطرون على مدينة البحر، البوغاز.

صمت قليلًا ثم عاد ليقول:

- تبًّا، كم كان من الغباء أن أفكر هكذا؟ ألفان وخمسمائة رجل فقط للسيطرة على البوغاز! مخطط كان سيبوء بالفشل حتمًا، كل ما حسبته كان خاطئًا، السلطان ما زال قويًّا وليس كما يُشاع أنه غارق في بحر من المجون والشهوات، أن يرسل هذا الجيش وعلى رأسه قاسم أصلان هي رسالة أنه عازم على شيءٍ ما، ما زلت لا أعرفه، لعله سيضم مملكة الساحل إلى سلطنته. على كل حال إنها فرصة مثالية للاطمئنان على المخزون الثمين، سيكون الحصن خاليًا مع رحيل كل الجند، لن يبقى سوى العمال والبنائين، ربما عليَّ منحهم إجازة ليومين ولن تؤثر على سير البناء، أتمنى ألا يعود أحد من ذلك الجيش اللعين، لتأكلهم العاصفة كما فعلت من قبل، ماذا سأخسر؟ رجال! عتاد! خيل؟ فقدت الكثير من قبل ولم ينجُ سواه، بدا ذلك البرغوث

فرحًا بمنصبه كقائد فيلق كبير، صار ذا هيئة بارزة بين الناس ولعل الغرور نال من ذلك البرغوث، كان عليَّ الحذر من ذلك المتسلق منذ البداية، ولكنه لن يخون ثقتي، أنا من صنعته وجعلت له قيمة بين الناس، لعل هذا الوقت المناسب لتغيير كل الخطط وتجهيز خطط بديلة.

لم يشعر برقية التي كانت تقف خلفه منذ وقت، فضولها الجامح دفعها لتكلمه وتقطع صمته:

- هل ستقف أمام تلك الخريطة طوال اليوم؟

التفت إليها مبتسمًا:

- زوجتي العزيزة، هل رأيتِ موقع كَفر البردقوش على هذه الخريطة؟

- أين؟

أشار لها على مربع أسود، فقالت وهي تخطو لتقف بجواره:

- نقطة في بحر سلطنة بني الأزرق.

ابتلع كلماتها بحنق، ثم حدثها وهو يُشير إلى موضع مدينة البوغاز:

- ذات يوم سأدخل تلك المدينة فاتحًا لأستعيد أرض «تلال الشمس» وما سلبوه منا، وستبحر سفن بالبحر المسحور تحمل راياتي لتغزو المدينة الزرقاء، ستشرق أمجاد بني شمس من جديد، ونخلع ذلك السلطان عن كرسيه، كما فعل جده الأكبر مع جدي نجم الدين الشمسي.

ضحكت وبدت على وجهها سخرية واضحة وهي تقول:

- ربما. من يدري! ألم تقُل من قبل إنك لا تريد من هذا العالم سواي؟ ألا يكفيك أنك حصلت على ابنة شهبندر البوغاز وتحكمت في تجارتها؟

- السيطرة على أسواق الخضراوات والسلع ليست كل ما أطمح إليه، ولكن السؤال الأهم ألا تريدين أن تصبحي سلطانة ذات يوم؟!

- بعض الأحلام تنتهي بكونها كابوسًا مفزعًا، ولا تنسَ أنك ذاهب للحرب في الجنوب.

جاء من خلفها وأحاط بها بذراعيه برفق دافعًا إياها إلى الطاولة، ضاغطًا بصدره على ظهرها، ثم أمسك بيدها اليمنى وراح يحرك أصابعها بلطف على الخريطة هامسًا:

- ومن سيحكم الكَفر في غيابي إن ذهبت؟ سأبقى هنا، فالمعركة الكبرى لم تأتِ بعد. سأرسل سعد وكل الجند، سيبقى رشوان وبعض الدرك.

- هل ستترك الكَفر خاويًا من الجنودِ؟

تركها ودار حول الطاولة من دون أن يجيبها فأردفت:

- لماذا تثق في سعد هذا لترسله مع قادة جيش السلطان؟

- ليست ثقة ولكنْ هو الرجل المناسب في المكان المناسب، وتلك الحرب ستزيده خبرة فوق خبرته.

- «روزاليندا» تقول إنه صار يتحدث كثيرًا عن الحرب ومتشوق للذهاب، للثأر لأصحابه من عصابة الذئب ورد الصاع.

ابتسامته كانت غريبة وهو يتطلع إليها قائلًا:

- ربما، لا أراها سوى رحلة منهكة للجند، كما سيذهبون سيعودون ولن يجدوا شيئًا.

- تقول هذا وأنت أدرى الناس بقاطعي الطريق أصحاب الذئاب، وما فعلوه في رجال السلطان ورجالك من قبل.

التفت إليها وهمس بجوار أذنها:

- نعم، أنا أدرى الناس بما يوجد هناك، وأيًّا من كان الذي قتل رجالي فهو في عداد الموتى إن كان حيًّا من الأساس.

- الذئب؟

تجاوزها مارًّا:

- ذلك الضاري ليس له مكان إلا في كوابيسك.

لم تستسِغ كلماته المتهكمة ولكنها أدركته بسؤالها:

- أسمعت بما يدور في الكَفر؟ يقولون إنك وجدت كنزًا وإن هناك نبوءة عن هلاك الكَفر إن اكتمل بناء الحصن.

تناول إبريق النبيذ وصب لنفسه ورفع الكأس أمامها:

- المجد لمن أطلق هذه الخرافة. فليهلك الكَفر إذن ويبقى حصن شاهين بن عز الدين الذي لولاه ما كانوا أحياءً الآن، انظري حولك سترين بصْمتي في كل شيء؛ الطرق الممهدة والأحياء الجديدة والرقي الذي لم يعرفوه يومًا. نحن بني شمس السادة الذين عمرنا تلك الأنحاء الخربة من الأرض، من الأفضل أن يتمنوا الخلود لي لأني أحصنهم وأصنع مدينة تفوق أحلامهم القروية القذرة، والآن اذهبي واهتمي بشؤونك الخاصة، وكفاكِ ثرثرة يا امرأة.

تطلعت إليه صامتة، كانت تستشيط غضبًا منه ولكنها لم ترحل، هو من فعل، تركها تقف في مكانها ورحل عن القاعة متذمرًا، بينما كانت عيناها على

الخريطة الكبيرة، وسؤاله يُعاد في رأسها: «ألا ترغبين في أن تكوني سلطانة؟»، وقْع اللقب بدا مناسبًا لها وهي تردده بخفوت: «السلطانة رقية».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع قدوم الفجر دمدمت طبول الحرب لتوقظ أهل الكَفر وأسراب طير حلقت مبتعدة، سارت الجحافل مخلفة وراءها سحابة من غبار حجبت كَفر البردقوش، في مقدمة الجيش كان سعد يجاور أصلان وسليمان ناب، يتحدثون فيما بينهم وأمامهم على مرمى البصر جياد البرق، وهم أفضل كشافين وأدلاء يتقدمون الجيش، شعور غريب اجتاح سعد، كذلك الذي كان لديه أول مرة، يذكر ذلك الطريق جيدًا، في المرة السابقة التي توجه فيها جنوبًا كان معه أصدقاء كُثر ولم يعُد معه أحد، جواده الحربي الجديد يمشي بخيلاء تليق بقائد فيلق، ربما حين تنتهي تلك الحرب سيذهب للمدينة الزرقاء بصحبة «روزا»، ما زالت هناك في الحياة أمور يتمنى فعلها، وتلك هي بداية المجد الذي يرنو إليه.

وصلوا الخندق مع المغيب، وأقيم المخيم الكبير على حافتيه، حواجز خشبية ودروع دفاعية رُصت لتصنع بوابة كبيرة على القنطرة، خيمة للقيادة كبيرة نُصبت في الجانب الشمالي، واجتمع فيها القادة لمراجعة خطط الهجوم، بينما تعبر الفيالق لتتمركز جنوب الخندق، ليلة باردة قضاها الجند الذاهبون إلى المجهول، مجتمعين حول حلقات النار، وبين الخيام كان سلّام يُغني أغنية عن الصداقة تناهت لمسامع سعد الذي كان يطوف ليطمئن على رجاله، وقف قابضًا على مقبض سيفه متأملًا الوجوه، يتحدثون عن آمالهم وأحلامهم، وسلّام يكمل عزفه للحن الحزين ويردد تلك الأغنية عن صديق قديم طيب القلب وديع، أحس سعد بالضيق ورأى كم يتفاعل الجند مع الأغنية، رحل عن المكان متوجهًا لبقعة خاوية، ظل واقفًا يتطلع إلى الصحراء المظلمة، أراد ألا يراه أحد في تلك الحالة، يجب ألا يدنو منه الضعف وتلك الذكريات الآن، وكأن المكان يحتفظ بذكرى من مروا به، حواره مع بياض قبل خوضهما لرحلة الموت، تلك النجوم أيضًا شهدت جلستهما هنا، وربما كل شيء هنا شاهد على ما حدث، وجد نفسه يردد بصوت مرتفع:

- ما حدث قد حدث، وما فعلته لم يكُن إلا الصواب، كان على أحدنا أن ينجو وبياض كان مصابًا، لقد أرحته من عذابه، أما ذلك الملعون سلّام فيجب أن يصمت، البطل الحقيقي الذي يجب أن يتغنى باسمه هو أنا، سعد، قائد الفيلق السلطاني وقائمقام قوات كَفر البردقوش، أنا من سآتي بالنصر وسيذكر القاصي والداني اسمي حتى تفنى الأرض. لقد رأيت الذئب وطاردني، رأيت هؤلاء الملاعين في قلب العاصفة يقتلون رفاقي، والآن حان وقت الانتقام، وأظنك ستكون راضيًا عن هذا يا بياض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القيظ شديد لم يعتَده سليمان ناب، الإعياء يفتك بالجند، على الرغم من أن التعليمات قضت بالمسير ليلًا والراحة نهارًا، فإن الرجل أصر على مواصلة الطريق، جياد البرق تطوف الصحراء من حوله وفيلقه مستمر في المسير، اليوم الثالث منذ رحيلهم من نقطة الانطلاق، ولا شيء صادفهم سوى قطعان مهاجرة من الغزلان تتجه جنوبًا مثلهم، كان الرجل دائم السخط على ما فُعل به، كيف بقائد فرسان الجبل الأزرق أن يصير إلى ما صار إليه؟ أن يقود رجاله في تلك الرحلة الشاقة. سأله أحد رجاله حول إمكانية الراحة والتخييم حتى المغيب، وأخيرًا رضخ مع رؤيته لوجوه الرجال البائسين، على أن تجوب جياد البرق الأرض حتى يتأكدوا من خلو الطريق من أي فخٍّ قد يقعون فيه.

في تلك الأثناء وفي مكان ليس ببعيد كان دهب يتربص بالغزلان الفارة من الزحف، يكمن على الرمال التي بدا كجزء منها، يترقب ويزحف ببطء محددًا هدفه، وقفز ليحتضنها بينما كانت تركض مارة بين عشرات من بني جنسها التي شتتها الفزع وراحت تفر خائفة، وفريسة دهب ترجف رجفة الموت الأخيرة، أنيابه لم تخطئ حنجرتها وكان خلاصها سريعًا، لم يتركها حتى تأكد من موتها، رفع وجهه ولعق بلسانه الدماء عن أنفه، ثم سحبها على رمالٍ لُوثت بدمائها، حجمها متوسط ولم يبذل مجهودًا كبيرًا في جرها كل تلك المسافة إلى الهضبة، فوجئ به بياض يدخل الواحة وصيده بين فكيه، نادى صاحبه فرحًا، فجاء الرجل وربت على رأس ذئبه الذي جلس يستريح لاعقًا فراءه، قضيا الوقت في سلخ الغزال وتجهيزه للطهي، يتحدثان عن عودتهما القريبة لغابة الظلال، وفي تلك المرة سيذهبان إلى قبيلة أسود القاع، إنهم أناس يسكنون قعر وادٍ سحيق به شلال وعدة كهوف مخفية، لا أحد يستطيع أن يذهب إلى هناك من دون دليل يعرف الطريق جيدًا، نهض دهب وقد انتصبت أذناه فصمتا، ظل ساكنًا للحظات ثم رفع أنفه عاليًا وتشمم الهواء، ثم تحرك باتجاه ممر الخروج بخطوات حذرة، الأمر الذي جعل أبا الدهب يلتقط سيفه قائلًا لبياض:

- هناك خطب ما.

مشى دهب بخطوات خفيفة متسارعة بعض الشيء، ثم توقف للحظة مزمجرًا وبعدها ركض فجأة، قبل أن يصلا إلى الخارج سمعا صيحة تبعها صراخ رجل يتألم، انطلقا جريًا لينظرا إلى ما يحدث، كان دهب يَعقر شخصًا ما، ناداه صاحبه ولم يستجِب الذئب، فراؤه كانت كإبر القنفذ بينما يمسك بالرجل الصريع من رقبته مزمجرًا، وحصانه المربوط إلى صخرة يصهل ويقف على قائمتيه الخلفيتين خائفًا، دفع أبو الدهب ذئبه بعيدًا، فوقف ذلك الأخير ينظر إليه بوجهٍ دامٍ، وانحنى بياض ليرى حالة الرجل وما لبث أن قال:

- لقد مات.

نظرة لائمة ارتسمت على وجه أبي الدهب، وقال بصوت خفيض محدثًا الذئب:

- لماذا فعلت هذا يا صاحبي؟ أخبرتك ألا تقتل. فقط أمسكه من ذراعه أو ساقه كما علمتك من قبل.

كان بياض يفتش في ملابس الرجل، ثم توقف وتراجع قائلًا:

- إنه أحد رجال السلطان.

جذبت الكلمة الأخيرة أبا الدهب فأمسك لسانه ولم يكمل حديثه مع ذئبه، جاء إلى حيث يقف بياض وانحنى ليفحص الرجل:

- نعم، هو أحدهم، وذلك الزي خاص براكبي جياد البرق، وهذا يعني أن هناك قافلة أو سَرية وربما جيشًا قادمًا نحونا.

اكتسى وجه بياض بالريبة (كيف عرف الدرويش مكانة الرجل ورتبته؟)، واعتدل أبو الدهب واقفًا ينقل بصره بين بياض والحصان الجامح الذي ما زال يصهل محاولًا الفرار، يدور في مكانه ويفرك شعره الأشعث، الأمر الذي جعل بياض يتوتر أكثر ويسأله:

- ماذا سنفعل الآن؟

- دهب، هيَّا إلى الداخل ولا تخرج أبدًا. وأنت يا بياض ساعدني بسرعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مخيم الفيلق الأول تمدد سليمان ناب تحت مظلةٍ أعدها رجاله، حاول أن ينعم بقسط من الراحة قبل إكمال المسير، ولكن الحر الشديد حال دون راحته، كان يُفكر في تلك الحملة المملة حين جاء أحد رجاله:

- سيدي، هناك أمرٌ ما.

لم يفتح عينيه وهو يرد على الجندي ببرود:

- هات ما عندك.

- سيدي، لقد قال أحد رجال الجياد إنه رأى آثارًا تتجه إلى الغرب، وباقتفائه أثرها وجدها تتجه إلى جبال الإفريز.

نهض سليمان وقد تبدلت ملامحه الجامدة، تلك النظرة في عينيه كانت مليئة بالشبق:

- كم عددهم؟

- ليس هناك عدد محدد سيدي ولكن جياد البرق نقلت الخبر، وجميعهم يتجهون غربًا الآن.

- أخبر الفرسان والجند بأننا سنتحرك.

- ولكنهم يستريحون بعد سيدي.

- أسمعت ما قلت؟ مُرِ الرجال بالتحرك للغرب، هيَّا.

بدأ الرجال في لملمة عتادهم، حالة من الهَرج سادت معسكر الفيلق، انتشرت الأحاديث الجانبية عما وجده خيالة البرق، وعلى الرغم من أنهم لم يحصلوا على كفايتهم من الراحة، كانوا سعداء بأن المعركة على وشك البدء، وبأنهم سيُنهون الأمر سريعًا قبل الجيشين الآخرين، الفرسان تحركوا أولًا، سابقوا الريح ليصلوا إلى وجهتهم.

مع المغيب كان أحد جياد البرق يشق الريح نحو هضبةٍ صبغها المغيب بلون برتقالي داكن، بدت كجزيرة وسط صحراء قاحلة، ومن خلفها جاء الليل بظلمته وفشلت شمس المغيب في صده، وعلى ضوء ما تبقى من وهج النهار الغائب، ترجل عن صهوة جواده المتوتر، ربطه إلى صخرة تحت سفح الهضبة، ثم تحرك ماشيًا باتجاه آخر، كان ملثمًا، عيناه تجوبان الأرجاء ثم أطلق صفيرًا خافتًا. خرج دهب من بين الأحجار، وراح نحوه بخطوات مسرعة، ومن خلفه بياض يشاهد ما يحدث، الذئب يتمسح في جسد صاحبه، وكأنه يطلب منه الغفران على قتله الرجل، والذي كان أبو الدهب يرتدي ملابسه الآن، خلع اللثام عن وجهه ثم ربت على رأس الذئب، لحظة مؤثرة وكأنهما يتحدثان إلى بعضهما، سكونٌ قطعه صوت بياض:

- ها قد عدت، لماذا تأخرت؟ لقد دفنت الرجل كما أمرتني.

- كما توقعت أنه جيش كبير، لا أعلم وجهتهم ولكن بحيلةٍ ما جعلتهم جميعًا يتجهون غربًا، خبر أشعته بداخل معسكرهم يقول إن هناك أناسًا يتجهون إلى جبل الإفريز، فلم يُكذب قائدهم خبرًا وتوجه إلى هناك.

- جيشٌ تُوجهه بمعلومة مضللة؟

- إنهم محبطون، رأيت ذلك في أعينهم، معظمهم فرسان مرفهون لم يعرفوا معنى الحرب، ولكنهم اختبروا مشقة السفر في الصحراء حاملين درعًا وسيفًا، ملابسي هذه كانت تجعل الجميع يسألون: «هل هناك شيء وجدته؟»، إنهم ضائعون يا بياض، يبحثون عن أي شيء ليصبوا عليه غضبهم.

- كيف دخلت من الأساس بينهم؟ من أين أتيت بهذه الجرأة؟

- جياد البرق ملثمون معظم الوقت، إنهم أهل بداوة وكان من اليسير التحدث بلكنتهم. الأهم من كل تلك الأسئلة التي تسألها، أن نرحل من هنا

باتجاه الجنوب، علينا توخي الحذر والذهاب لتنبيه قبائل غابة الظلال، سمعت بعض الفرسان يتحدثون عن أنهم مشتاقون لرؤية غابة الظلال، سيعسكرون هناك بعد انتهاء مهمتهم في الصحراء.

- مهمة في الصحراء؟!

- نعم، وهي صيدنا، صيد الذئب.

رفع دهب رأسه، في حركةٍ جعلت بياض يسأل نفسه: «هل يَعرف أنه المعني؟»، لم ينفض الفكرة عن رأسه وأبو الدهب يتابع متهكمًا:

- لا أعلم أي أخرق هذا الذي يصدق تلك الخرافة التي أطلقها قومك؟ قبيلة تمتطي الذئاب! ولكن يبدو أن الأمور معقدة هناك وشخص ما يعبث بممتلكات السلطان أو يخدعه، أي لعنة تلك التي تلاحقني. هيَّا لنطمس أي أثر كان لوجودنا هنا ونخفي مملكتنا عن الأعين، حتى نعود، هذا إن عدنا.

جمعا أغراضًا خفيفة الحمل، ما يساعدهما على الحياة فقط، وكل شيء أخفياه داخل الكوخ الذي غُطي بدوره بالأخشاب والحجارة ومن فوقها الشجيرات، أخرجا الجملين من الكهف الصغير، امتطى بياض أحدهما وسحب الآخر، سبق أبا الدهب في الخروج من الواحة، وبقي الرجل واقفًا إلى جوار ذئبه يجوب المكان المظلم بعينيه. سيفارق بيته، تسع سنوات قضاها هنا، سيرحل تاركًا ذكريات أخرى، وكأنه كُتب عليه الانتقال من كل مكان تعلق به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9- مملكة الرماد

قيل فيما مضى إن بحر الرمال لمَّا كان بحرًا حقيقيًّا كان يعج بالحوريات، وعندما جف زحفن في برك المياه المتبقية بحثًا عن نجاة، ولكن الشمس بخَّرت كل أمل لهن في الحياة، كن يحتضرن عندما جاء بعض أناس من سكان غابة الظلال، سقوهن ورطبوا أجسادهن بالماء، ثم حملوهن إلى بحيرة داخل الغابة، وهناك طلبن طلبًا أخيرًا، وانتشر رجال القبيلة لأداء الوصية، جمعوا كل جثث ورفات الحوريات ببحر الرمال، ودفنوها في مكان واحد يُدعى «مقبرة الحور»، مستنقع كئيب رطب يعج بالحشرات السامة والثعابين، كان مشهد الوداع بين الباقيات على قيد الحياة وأجساد أخواتهن من ذوات الزعانف أمرًا شديد الحزن. عشن في البحيرة لسنوات وسنوات يُعلمن أهل القرية علوم السموم وما تبقى من علم البحار، وقبل أن تموت آخرهن منحت زعيم القرية رمحًا فضيًّا نقش عليه طلسم بلغةٍ لا يعرفها أحد، وبعد أن ماتت لم يجد زعيم القرية سوى إقامة نُصب للرمح وصاحبته، وصار الناس يقيمون له عيدًا كل عام في ذكرى موت آخر حورية، والتي عدَّها كهنتهم حارسة رمح الإله الفضي - القمر - الذي بفضله تُضاء الغابة ومع ولادته يُهزم الظلام وشروره، ومنذ ذلك اليوم توارث الزعماء الرمح الفضي، وكل واحد منهم صار يُلقب بحارس غابة الظلال والوصي على بحر الرمال. واختفى الرمح ذات يوم هو وحامله الزعيم «كتيموا» الذي ذهب إلى جبل الإفريز ولم يعُد.

- هذا هو الجبل الذي أرسلت إليه جيش السلطان.

- نعم هو، ونأمل أن يصيبهم ما أصاب «كتيموا». تسع سنوات في تلك الصحراء علمتني أن بعض الأساطير قد تكون حقيقة، وبعض القصص الرائعة تحمل في طياتها شيئًا آخر. مررت بالكثير هنا وتجولت بكل أنحاء الصحراء، رأيت جبل الحيتان ومررت بطريق الوادي القديم وذهبت إلى كهوف الحبار، أتدري؟ هناك بحيرات من الحبر في قاع تلك الكهوف. فعلت كل شيء في تلك الصحراء أنا وصديقي العجوز دهب، إلا أن يدخل هو غابة الظلال أو أذهب أنا إلى جبل الإفريز، بعض الأماكن لها رهبة تجعلك لا تفكر في الذهاب إليها، وبعضها الآخر يمنحك فضولًا عجيبًا لتسبر أغواره.

- إن كنا سَندخل إلى غابة الظلال، فماذا سيفعل دهب؟

- لنصل أولًا وبعدها نرى ما نستطيع فعله، إن لم يُرِد الدخول فعلى أحدنا الذهاب إلى الرمح الفضي، وإخبار أهلها وزعيمها و«كتيمبي» بما يحدث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مكان بعيد ناحية الغرب تجلى جبل الإفريز في الأفق، مجموعة من الجبال الممتدة ذات قمم مكسوة بالثلج تشع مع ضوء الشروق، الأرض تزداد وعورة في تلك الجهة، وتكثر فيها الأصداف والحصى وبقايا قواقع عملاقة، مكان يراه الرجال للمرة الأولى في حياتهم، كانوا كمن يسير في قاع البحر، أعشاب غريبة حمراء أوراقها صلدة كالمرجان، وبرك بيضاء كالثلج، سُرعان ما عرفوا أنه ملح، جياد البرق يتناوبون استطلاع الطريق، وسليمان ناب يقود فرسانه إلى المجهول بزهوٍ وفخر، لقب جديد قد يحصل عليه يُمجده ويُذكر الناس بذلك الجزء من بحرٍ الرمال، فرسان الجياد يؤكدون أن الأثر انتهى منذ فترة، وأنهم يسيرون باحثين عن أي دليل يقودهم، ولكن أحدهم جزم أنه تتبع المطاردين إلى هنا، وجياد البرق لا يكذبون أبدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مَر سعد بذات البقعة التي شهدت العاصفة وموت رفاقه من قبل، يتذكر جيدًا أنه ركض مبتعدًا عكس اتجاه العاصفة، كان خائفًا والريح تعوي وتحصد رفاقه، كان يبحث عن نجاته وحده، الخوف كان يتحكم به حينها، وظن أن بياض قد مات كالآخرين ولكن بياض وجده وأنقذه، وما حدث بعد ذلك كان أمرًا محتومًا. طوال الطريق كان يفكر ويبرر ما حدث، قالوا إن بحر الرمال يحفظ الذكرى وتهيم به أرواح من غرقوا فيه، وجَنح البعض الآخر إلى أن عصابة الذئب تأكل الموتى، وإلا كيف لأناسٍ أن يعيشوا في تلك الصحراء هكذا؟ فقلما تمر القوافل من هنا، وطريق الوادي القديم ليس سوى سبيل قديم يصل إلى غابة الظلال، يُخيم ورجاله نهارًا ويسيرون ليلًا، لا يكف سلّام عن الغناء والعزف ونظْم الأبيات، لم يُعجبه أن يذكر ذلك المغني أغنية عن بطلٍ يُدعى بياض، كلماتها كانت رديئة غير متناسقة ولكنها بعثت في نفوس الرجال شجنًا ونشوة ورغبة في الانتقام.

- سيدي لم يتبقَّ سوى يوم وليلة ونصل إلى حافة غابة الظلال، وجياد البرق لم يعثروا على أي شيء هنا، والأخبار الواردة من فيلق القائد سليمان ناب تقول إنه يتعقب رجالًا من عصابة الذئب متجهين إلى جبال الإفريز، أما القائد قاسم أصلان فقد عبر جبل الحيتان ولن يتوقف حتى يصل إلى الحافة الشرقية لجرف الغابة.

كان يرسم بإصبعه خطوطًا على الخريطة الصغيرة، يحدد الأماكن التي ذكرها نائبه الذي صمت منتظرًا ما سيمليه عليه قائده، رفع سعد عينيه إلى الرجل:

- حالما نصل إلى شاطئ غابة الظلال، أعطِ جياد البرق أمرًا بالتوغل في غابة الظلال.

- ولكنْ سيدي هذه ليست أوامر القائد المظفر قاسم أصلان.

- ما آمرك به يُنفذ من دون نقاش، علينا أن نحمي ظهورنا، تم وضعنا على الطريق الرئيسي المتصل بالجنوب لسبب ما، وما سمعته أن في تلك الغابات قبائل متوحشة تستطيع مهاجمتنا في أي وقت ونحن في غفلة نستمتع بالراحة. أخبر الرجال بالتحرك، علينا الوصول مبكرًا هناك. وإن كان القائد سليمان ناب قد استطاع مطاردة تلك العصابة، فهذا يعني أن الطريق أصبح خاليًا أمامنا، سنصل إلي وجهتنا قبل أي فيلق من الفيالق الأخرى، نقيم معسكرًا هناك وبعدها ننتظر أوامر قائدك قاسم أصلان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أناخ بياض الجملين وألقى بجسده على الأرض، استلقى بين العشب الجاف المرتفع الفاصل بين الغابة والصحراء، تطلع إلى السماء الصافية متمتمًا:

- ما زالت في الرحلة بقية ولكن ما بقي أقل بكثير مما مضى.

جال بخاطره أنهم ربما يبحثون عنه، ولكن سرعان ما نفض الفكرة عن رأسه، وقع أقدام الجواد القوي جعله يعتدل في جلسته، وصل أبو الدهب وما زال مرتديًا تلك الملابس الزرقاء الداكنة، ومن على مسافة بعيدة كان دهب قادمًا يشق العشب متهاديًا، وبدا أن الحصان اعتاد وجوده، كان هادئًا وربما متعبًا، نزل أبو الدهب عن ظهره وتناول قربة ماء ليشرب، وما إن انتهى حتى قال:

- ستغرب الشمس قريبًا، وليس من الجيد أن نخيم هنا، قد يمر أحد خيالة البرق ويرى نيران مخيمنا.

- ألم تقُل إنهم يتجهون غربًا إلى جبل الإفريز؟! ما الذي سيأتي بهم إلى هنا؟ دعنا نستريح ومع الفجر ندخل الغابة.

- جياد البرق ينتشرون من دون نظام في كل مكان ويتبعون كل أثر، نحن مضطران لذلك، سنتوغل في الغابة مع حلول الظلام، ربما تكون وحوشها أرحم من ذلك الجيش.

- ودهب؟

- سيكون عليَّ إقناعه بالأمر.

سقى بياض الجواد بينما كان الجملان يلوكان شيئًا من عشب الأرض، وعلى مسافةٍ منهما وأمام الشمس الغاربة جلس أبو الدهب على ركبتيه، وأمامه الذئب قاعدًا، كان يتأملهما متعجبًا، على الرغم من مرور أشهر برفقتهما فإنه ما زال يَتعجب من الأمر، الرجل يداعب صدر الذئب الذي أمال رأسه للأمام لاعقًا يد صاحبه بينما كان يحدثه:

- وجدتك ووجدتني، لم أجبرك على شيء، كنت خير الصاحب. ركضنا معًا ولعبنا، ضربنا الجوع وشبعنا حتى التخمة، اصطدنا كل ما أمكننا، طيرًا وزاحفًا ومن يمشي على أربع، منحتني الحرية وشممنا نسيم الربيع واختبأنا من قيظ الصيف، ولم تمطر يومًا. أحببت ليالي السمر والشواء، المشي في الصحراء ليلًا بجوارك، كنا قطيعًا وكنت تتحمل ثرثرتي عن قصص صيدنا، ذلك الأرنب كانت له أسرة تنتظره وهذه الظبية كانت تحب وعلًا جبليًّا، وهذا النسر في السماء كيف ينتظر موتنا ولعله يحلق فوقنا متمنيًا ذلك، لم تمل من قصتي، وكيف جئت إلى هنا، أنت حر يا صديقي، تستطيع الذهاب إن أردت ولكن هناك خطرًا يتربص بنا في تلك الصحراء، أنت بريء مما يرمونك به تمامًا كجدك الذي لم يأكل يوسف، أعرف أن فراقنا للمنزل شيء صعب ولكن هذه هي الحياة، نُجبر أحيانًا أن نسلك دروبًا لا نريدها، ونخوض حروبًا لسنا طرفًا فيها، وعلينا أن نستمر ونمضي سالكين أشد السبل وعورة لعلنا نصل إلى مكان آمن، نكمل فيه ما تبقى من حياتنا، كنت قررت ألا أخوض أي حرب إلا لذاتي، ولكن يبدو أن الأمور لا تسير كما نخطط. سألتك يومًا لماذا لم تدخل الغابة حين جئناها أول مرة، وتعددت زياراتي لقرى الظلال وبقيت أنت في الخارج، كنت تعود للواحة أو تبقى لتنتظرني، لا أعلم السبب حتى الآن ولا أريد معرفته، فقط كل ما أعرفه أنك لا تخشى شيئًا، أنت ملك الصحراء وعلى تلك المخلوقات في الغابة أن تخشاك حقًّا. ويبدو يا صاحبي أن مخاوفي التي كنت ظننت أني نسيتها ونسيتني تطاردني، أنت الوحيد في هذ العالم الذي يعلم أني أخافهم وأخشى وجودهم، أنت الوحيد الذي يعلم سري ومخاوفي التي وجبت مواجهتها الآن، لم أُرِد في حياتي سوى الحياة الهادئة، ولكن أظن أن الأمر سيطول وأنهم عازمون على شيء لا نعلمه. دهب، أحتاجك يا صاحبي، ابقَ معي فأنا لا آمن لأي بشري على حياتنا.

حين ختم أبو الدهب كلماته هب نسيم بارد من ناحية الغابة، زفرة ربما. هناك من يقول إن غابة الظلال تتنفس مثلنا، استنشق بياض الهواء الرطب فرحًا ولوَّح لهما بذراعيه الكبيرتين في الهواء:

- سنرحل معًا، أليس كذلك؟

وكانت الإجابة عواءً عميقًا طويلًا من دهب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شيء ما بين الأشجار كان يتابع خطاهم، دهب في المقدمة وخلفه صاحبه على صهوة الجواد القلق، كان يحمل مشعلًا وكذلك فعل بياض الذي كان متأخرًا، جملُه يمشي متهاديًا، الخوف أحاط بهم وحشرات مضيئة كانت تُحلق في الظلام من حولهم، أصوات غريبة وحركة بين الأغصان، أقلقوا أصحاب الغابة المتلصصين من فوق الأشجار وبين الجذوع، حيوانات الليل وأعينها البراقة، عريرُ صراصير تهرب من ضفدعٍ خَفَت نقيقُه حين مروا به، كان

الأمر المثير هو الزمجرة الدائمة لدهب، كان يتوقف بين الحين والآخر يرمق الظلام على جانبي طريقهم، يزمجر ثم يكمل السير، كان الوضع كافيًا لأن يرتعد بياض، يدور برأسه في أرجاء المكان، يظن أن هناك شيئًا سيقفز ليسقطه، ربما يجذبه بعيدًا إلى غياهب الظلام ليفترسه حيًّا.

النيران تبعد الضواري عنهم، ووجود دهب سيجعل أي حيوان يفكر قبل الهجوم عليهم، هكذا قال أبو الدهب قبل دخولهم للغابة، ولكن الآن وبينما يسيرون لساعات يعلمون جيدًا أن هناك من يَتحيَّن لحظة للانقضاض عليهم، الخرير جعل بياض يبتهج، وقفت الإبل لترتوي وكذلك فعل الحصان واختفى دهب بين الشجيرات، أطلق أبو الدهب صفيرًا ليعود الذئب ولكنه اختفى، ناداه مرارًا ومر وقت حتى عاد، عاتبه صاحبه ثم أكملت القافلة الصغيرة الطريق، وقبل وصولهم إلى القرية توقف دهب مرة أخرى، أخذ يزمجر مكشرًا عن أنيابه الكبيرة، الأشجار القصيرة من حولهم تهتز، أشهَر أبو الدهب سيفه، وأخذ بياض يتلفت ملوحًا بالمشعل محاولًا رؤية ما يتحرك في الظلام، يحيطون بهم من كل جانب ودهب يتأهب للهجوم، ثم صاح صوت آتٍ من العتمة:

- توقفوا، إنه الدرويش وصاحبه.

نادى أبو الدهب:

- «كتيمبي»، أهذا أنت؟

- نعم يا درويش، ولن نستطيع التقدم في وجود وحشك هذا.

نزل عن صهوة الجواد واقترب من دهب ووضع كفه بين أذنيه المنتصبتين، ممررًا إياها على شعيرات رأسه المشدودة هامسًا:

- اهدأ يا صاحبي، إنهم أصدقاؤنا.

توقف عن الزمجرة ولم يتخل عن حذره، ومن الظلام برز «كتيمبي» مبتسمًا:

- كنت أحسب أنه لا يدخل الغابة، تبًّا، حجمه صار ضخمًا جدًّا.

من خلفه ظهرت مجموعة من الرجال حاملي الرماح، كانوا متوجسين وقائدهم يقترب أكثر من الذئب وصاحبه متابعًا:

- من العجيب رؤيتكما في هذا الوقت، ولا عجب أن ذلك الوحش يرافقك إلى هنا، الغابة خطرة في الليل وأنت أكثر الناس معرفةً بذلك يا درويش، أرجو أن يكون الأمر مهمًّا لتُضحيا بحياتيكما من أجل الوصول إلينا وقت هيمنة الليل.

- لنذهب إلى القرية ونتحدث.

- هل سيأتي ذئبك معنا؟ أخشى أن يهاجم الصبية أو يصيد إحداهن أثناء خروجها لقضاء حاجتها.

أصدر دهب زمجرة خافتة كأنه ينفي عن نفسه ذلك الفعل، فقال صاحبه:

- لا تقلق، ها هو يطمئنك.

غمغم «كتيمبي» ساخرًا:

- يطمئنني بزمجرة! لنذهب إلى القرية ولكن سيكون علينا تقييده.

- حاول إن شئت.

كانت كلمة أبي الدهب الأخيرة كافية لأن يمحو «كتيمبي» الفكرة من عقله، ساروا جميعًا باتجاه قرية الرمح الفضي، وأثناء الطريق دار بينهما حوار طويل عن ذلك الجيش المقيم ببحر الرمال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جثم الليل على سفح جبل الإفريز، صخره الرمادي صار معتمًا، ومع هبوب ريح شديدة، كان من الصعب إشعال نيران، غاب القمر، والأرض من صخر صلد حاد، بالكاد يستطيع الجند الجلوس، خمسمائة من المشاة والرماة أُرسلوا إلى أعلى الجبل، بينما بقي سليمان بين فرسانه وبقية الفيلق، وجياد البرق ترفض أن تسير فوق هذه الأرض، الحكايات المخيفة كانت تسري بين تجمعات الجند، أساطير لا أحد سمع بمعظمها من قبل، وحده سليمان ناب قال إنه مجرد جبل كان يومًا ما تحت البحر ولفظته الأرض يوم ابتلعت ماءها. كان على الجند أن يصدقوا كل ما قاله قائدهم حتى مطلع الفجر فقط، صارت الأطراف ترتعد، لم يعُد أحد من الخمسمائة رجل الذين صعدوا إلى الجبل، تعالت الهمسات حتى حكمت المخيم الصغير، أصدر لقادته أمرًا بأن يُعدم كل من يثير الخوف والشائعات، قال إن زملاءهم سيعودون مع الظهر وانتصفت الشمس في السماء ولم يعُد أحد.

قبيل المغيب عادت فرقة البحث، لم يعثروا على شيء سوى الصخور، ابتلع الجبل نصف الرجال من دون أن يبقى لهم أثر، حالة من الفوضى سادت بين صفوف الجند، رفاقهم فُقدوا وذلك كافٍ للخوف من المكان الملعون كما أُشيع، إنه قفر صخري لا أثر فيه للحياة، لا حشائش لا حشرات لا أي حيوان، وبين فرسانه كان سليمان ناب يقف حائرًا، أحدهم قال:

- تم اقتيادنا لفخ ويجب أن نعي هذا جيدًا.

وآخر قال:

- انقطعت أخبارنا مع جيوش الشرق، المسافة بعيدة وجياد البرق تقطع مسافة طويلة، نرسل فقط الرسائل الضرورية ولم نتلقَّ حتى الآن أي

رسالة، ومن بقي منهم هنا يخشى دخول الجبل، الخيول اللعينة لا تستطيع المشي والركض هنا، لم يكُن علينا القدوم إلى هنا، لقد أضعنا الوقت، لو اتخذنا طريقنا إلى غابة الظلال لن نصل في موعدنا المحدد.

ثالث قال:

- لن أتحرك من دون رجالي.

هنا تدخل سليمان ناب بعد أن ضجر من ثرثرتهم:

- سنبقى هنا، ليومٍ آخر. لا أعرف ماذا دهاكم، ولكن أيًّا كان الجحيم الذي استُدرجنا إليه سنصمد معًا. أريد من جياد البرق أن تذهب إلى الجنوب الشرقي، إلى تلك النقطة التي من المفترض أن نصل إليها، وتتناوب على دورية طويلة حتى إشعار آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تجولا بين جذوع الأشجار، كانت مهمتهما الاستطلاع ورصد أي شيء غريب في الغابة، «كتيمبي» يحفظ الدروب والمرتفعات، يتسلق الصخور ويقف متخطيًا البرك يتفحص الشجيرات ويفتت بين أصابعه الروث الجاف، أتم الربيع الواحد والعشرين من عمره، رشيق خفيف الحركة على الرغم من أنه يحمل على ظهره جعبة السهام الخاصة به، ويحيط خصره بحبل ربط طرفيه بصخرتين متوسطتي الحجم، تجربة فريدة خاضها بياض برفقته، لم يتحدثا كثيرًا حتى وصلا إلى حافة الغابة، بحر الرمال يظهر من بين جذوع الأشجار المتراصة برماله الذهبية، جلس ليستريح وتوجه «كتيمبي» إلى مكان كثيف العشب، اختفى قليلًا ثم عاد قائلًا:

- الوضع هادئ تمامًا، سنبقى هنا حتى يعود الدرويش.

- أخشى أن يصيبه مكروه.

- يبدو أنك لا تعرف الرجل جيدًا يا قرش، صاحبك يعرف الصحراء كما تعرف اسمك.

استلقى «كتيمبي» وأغمض عينيه ثم أكمل حديثه:

- حين وجدناه يجوب الغابة لم نهاجمه، أذكر أن أبي أعطى الأمر بعدم المساس به، راقبناه وتتبعنا خطاه من دون أن يشعر، لم يكُن غزير الشعر كما هي حاله الآن، ولحيته كانت بالكاد تنمو، كان منهمكًا في صنع شيء ما، وكما توقعنا أقحم نفسه في عراك مع دبٍّ أشهب، وبينما كان يركض اصطدم بأحد رجالنا المختبئين، هاجمهما الدب وكاد أن يقتل الرجل ولكن صاحبك حال دون ذلك، كان من الجنون أن نرى أحدًا يقف أمام دب عملاق، برشاقةٍ راح يدور حول نفسه ويصرخ في الدب ملوحًا برمح بدائي، جذب

انتباه الضخم ذي الفراء الذي انقض عليه، كان يطارده والدرويش يقفز فوق الجذوع والصخور، ركض والأرض تهتز من تحته ووقْع قوائم الدب يقترب منه أكثر وأكثر ثم سمعنا قهقعة الوحش، حين وصلنا كان يئن ويخور، وعلى الرغم من إصابته بعدة أوتاد خشبية في جسده، نهض واقفًا على ساقيه ملوحًا بمخالبه أمام الدرويش، الشمس كانت تشاهد تلك المواجهة، غمرت المكان وبدا الدرويش كمحارب أرسلته السماء لمواجهة الشرور، أو مجنون يظن أن باستطاعته مواجهة دب جريح بوتد خشبي، وما حدث بعد ذلك كان بداية لأسطورة المجنون والذئب، أظنك رأيتها على جدران منزلنا، سجلها أبي على الحائط، رسم المواجهة التي انتهت بالوتد مغروسًا في رأس الدب، وجرح أصاب الدرويش الذي مكث في منزلنا لأيام غائبًا عن الوعي. وحين عاد للحياة رحل من دون أن ينطق بشيء، من هو ومن أين جاء؟ لا أحد يعرف، حتى عاد مرة أخرى حاملًا معه جلود غزلان كهدية لوالدي. ومنذ ذلك الحين وهو صديق لنا ولكل سكان غابة الظلال، يأتي للغابة ويرحل إلى صحرائه التي يخشى قومنا الدخول إليها. وحده يستطيع فعل ذلك، وحده يعرف ماذا يوجد هناك.

على مسافة بعيدة منهما على شاطئ بحر الرمال وقف جواد برق يرعى بين الأعشاب الجافة، يلتقم ما يطيب له منها، وصاحبه ذو الملابس الزرقاء واللثام الداكن يراقب الصحراء من فوق صخرة مرتفعة مقرفصًا كفهد صياد، بعد فترة من الوقت ظهر في الأفق أحد الخيالة، ومع اقترابه بدا واضحًا أنه أحد رفاقه من جياد البرق، كان ملثمًا مثله، ألقى عليه التحيةَ وجواده يزفر بقوةٍ ويضرب الأرض بقوائمه، ربت الرجل على عنق الجواد قائلًا:

- اهدأ يا صاحِ، سنحصل على بعض الراحة الآن.

ناداه الجالس فوق الصخرة:

- هل من جديد؟

ترجل الفارس عن صهوة الجواد المتوتر وربطه إلى جذع شجرة قديمة: - لا جديد سوى أننا فقدنا الكثير من الرجال في جبال الإفريز، لا أحد يعلم مصيرهم. والقائد سليمان ناب ينتظر عودتهم، أظنه سيتحرك مع هبوط الليل إلى هنا.

- أي شيء أصاب الرجال؟

- لم يعُد أحد منهم ليخبرنا.

قطع حديث الفارس صهيل جواده الذي بدا خائفًا متوترًا، اقترب منه متعجبًا وأزاح خصلات شعره عن ناصيته:

- ماذا بك؟ هل تخاف شيئًا؟

- يبدو أن المكان لا يعجبه.

نطق بها الجالس فوق الصخرة، رد عليه الفارس:

- ومن يطيق ذلك المكان؟ سيأتي الجيش إلى تلك البقعة مع الفجر وعلى أحدنا أن يخبر...

لم يتم كلمته فور رؤيته شيئًا يزحف بين العشب، سحب سيفه قائلًا:

- هناك شيء ما بين تلك الآجام العشبية.

- الهواء يعبث بالشجيرات فقط يا رجل.

استدار الفارس مستغربًا، الخيل تصهل وآذانها تتحرك في اتجاهات عدة لرصد أي صوت، وذلك الجالس هادئ للغاية، سأله:

- من أي فيلق أنت؟

أجاب بنبرة حادة:

- ماذا دهاك يا صاح؟ القائد سليمان ناب.

أزال الفارس لثامه وهو يقترب بحذر:

- منذ متى وأنت هنا؟

- تسع سنوات.

نطقها وأتبعها بصفير، لم يكُن الرجل قد أفاق بعد من الإجابة، لتنبعث من خلفه زمجرة مخيفة، جعلته يلتفت بسرعة شاهرًا سيفه، ولكن دهب كان أسبق إليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخل بياض إلى القرية ساحبًا جواد البرق وعلى صهوته فارسه مكبل اليدين مغطى الوجه، ومن خلفه كان أبو الدهب يمتطي هو و«كتيمبي» الجواد الآخر، ترجل الأخير ضاحكًا وهو يلوح لزوجته التي تقف بجوار والده، تجمهر عدد من أهل القرية بعيدًا، كانوا يخشون الذئب الكبير، مر بهدوء متجهًا إلى البحيرة، شرب ثم استلقى على الثرى الرطب. حمل بياض الأسير المكمم

على كتفه واتجه نحو المنزل الذي أشار «كتيمبي» ناحيته، نزل الشاب عن الحصان وتوجه لوالده قبَّل يده ثم احتضن زوجته قائلًا:

- كانت مغامرة مثيرة، استطعنا أن نأسر ذلك الرجل من دون قطرة دماء واحدة، فقط دفعة واحدة من الذئب واستسلم خائفًا.

ربط أبو الدهب الجوادين إلى صارٍ خشبي واتجه بعد ذلك إلى الزعيم، حياه ثم حدثه:

- أظنهم سيأتون إلى حافة الغابة مع الفجر، عددهم تقلص كثيرًا كما أخبرنا ذلك الأسير، نأمل ألا يصيبه مكروه وأن تُشدد عليه الحراسة. سيستمر بياض في استجوابه ويستخلص منه ما يستطيع من معلومات.

أومأ الزعيم برأسه متفهمًا ثم قال بصوت أجش يتناسب مع بدانته:

- هل سيهاجمون قريتنا؟

- لا أظن ذلك، إنهم حتى لا يعلمون بوجودها. وفق حديث الرجل فإنهم سيخيمون على شاطئ بحر الرمال في انتظار أوامر أخرى. لم يخبرنا إلا بما يعرفه، إنهم يبحثون عن عصابة ما في الصحراء ولن يدخلوا الغابة.

- لم يسبق أن أتى جيش إلى تلك الأنحاء، وبحر الرمال لا يخضع لقومك أهل الشمال، ومن الجيد أنك أرسلتهم إلى جبل الإفريز وأظنهم لن يعودوا من هناك.

أجاب أبو الدهب وهو يتطلع إلى ذئبه الممدد على شاطئ البحيرة:

- أتمنى ذلك.

استأذن الزعيم وتوجه إلى حيث يرقد دهب، جلس إلى جواره متطلعًا إليه:

- يقولون إن تلك البحيرة مسحورة وإن في قاعها رفات ما تبقى من حوريات البحر، أسطورة أخرى أظنك تعرفها وقصصتها عليك من قبل.

فرك فراء صدر دهب براحة يده فتثاءب وانقلب على ظهره، كان هناك صبية يشاهدون ما يحدث من بعيد، والذئب يلعب مع صاحبه الذي كان يحدثه قائلًا:

- لقد أبليت حسنًا يا صاحبي، ولكن هذه ليست سوى البداية.

ثم استلقى إلى جواره محتضنًا إياه وأغمض عينيه.

مع خيوط الفجر الثاني شق شخص الغابة المظلمة ركضًا، عبر النهر الصغير وصعد الجرف الطيني بصعوبة، لم يثنِه شيء عن التوقف حتى وصل إلى القرية، استقبله الحرس بقلق مفسحين له الطريق، كان يتنفس بسرعة ولم يفهموا ما قال في البداية حتى أعاده على مسامعهم:

- إنهم هنا. وصلوا إلى حافة غابتنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

معسكر لجيش منهك، من يسقي الخيل ومن ينصب الخيام، آخرون استلقوا على العشب، والكثير يشارك في حفر خندق حول المعسكر، يذبحون الأشجار القريبة، يحملون الجذوع ويأتي آخرون ليقوموا بدورهم، كانوا متوترين قلقين، أعينهم دومًا تتطلع إلى الغابة، لم يمضِ الكثير حتى نُصبت خيمة كبيرة في الوسط، تعلوها راية زرقاء فاقعٌ لونها تَوسطها صقر أسود كبير، بعد الظهيرة بدأت مجموعة منهم في استطلاع مشارف الغابة، كانت مخيفة، الأشجار كلها متعانقة في الأعلى، الضوء ينتهي عند مسافة ما في حَرم الظلال.

تحركوا بخفة مستترين بالأشجار، صيادون بالفطرة كقطيع متكامل لا يخطئ، راقبوهم على مدار الوقت كله، يتبادلون أماكنهم وأدوارهم في انتظار أن يأتي «كتيمبي» والدرويش. حل الظلام وجاء الرجلان بصحبة مائة رجل، يرتدون دروعًا من جلد التماسيح، ويحملون الرماح ودروعًا خشبية، وجوههم دهنت باللون الأحمر والأسود لونَي الحرب، بياض استغربهم واستخف بهم، مائة رجل أمام جيش مدرب منظم، همس في أذن صاحبه:

- رجال السلطان لديهم خيل وبنادق، وهؤلاء سيحاربون بالعصي؟!

- هناك ست بنادق فقط وهي لحراس القائد الكبير، البقية فرسان ومشاة ورماة.

- ست بنادق فقط؟! هل أحصيت الجيش كله.

- بياض، اصمت واسمعني جيدًا. سنبقى هنا، لن نهجم إلا إذا دخلوا الغابة وحاولوا الوصول إلى القرية. ما زالوا ينتظرون أحد جياد البرق حاملًا رسالة، ربما يأتيهم أمر فيرحلون عائدين إلى الجحيم الذي أتوا منه. سنبقى ونصمد، وتذكر أن في تلك القرية عجائز ونسوة وأطفالًا، لقد رأيت بعينيك أن الأميرة زوجة «كتيمبي» ذهبت مع جمع من الناس لطلب الدعم من أبيها ملك التل الدموي، وسيأتي قريبًا.

أشاح بياض بوجهه مغمغمًا بسخرية:

- سيأتي بالمزيد من العصي والحجارة.

تدخَّل «كتيمبي» غاضبًا:

- حاولت أن أتجاهل حواركما على الرغم من أنكما تتهامسان ولم أستطِع، توقف عن التهكم يا رجل، وانظر حولك، هؤلاء الحمقى بالعصي يستطيعون فعل أي شيء لحماية أهلهم وذويهم، ربما قومك أكثر منا عددًا وقوة ولكن

هذه أرضنا، ومن سيحاربنا سيخضع لقوانين الحرب لدينا. دعهم يدخلون إلى هنا ونرى من سينتصر. يا درويش هل تأتي معي، أريد محادثتك.

رفع أبو الدهب كتفيه لبياض ورحل مع «كتيمبي»، تاركين الضخم يفكر فيما سيحدث لاحقًا، شرد لبرهة فوجده يقف إلى جواره ناظرًا باتجاه ضوء النهار المنسحب هاربًا من عتمة الليل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على ضوء المشاعل فُتحت بوابات مملكة التل الدموي حالما عرف الحراس مَن القادمة: الأميرة «سيرين» ابنة الملك، وبرفقتها مجموعة من أهل الرمح الفضي، كان مجيئهم في ذلك التوقيت أمرًا غريبًا، المدينة الصغيرة تغط في النوم، والسكون يغمر الساحات الفارغة، صعدت الدرج الصخري إلى حيث قصر أبيها، أول من استقبلها كانت «كونوَا». ركضت نحوها واحتضنتها وحملقت في وجوه أهل قبيلتها، كانوا خائفين مما جعلها تسأل «سيرين»:

- ما الذي جاء بكم في تلك الساعة؟ أهناك شيء حدث؟ هل أبي بخير و«كتيمبي»؟

- الجميع بخير ولكن هناك شيئًا يجب أن أخبره لأبي.

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى ظهر أبوها الملك وأخوها الأمير «ساندو» وزوجته «كونوَا»، وبقية الأسرة والقادة، كان الأمر جللًا ليستيقظ كل هؤلاء في الثلث الأخير من الليل، قصت عليهم ما حدث، ناشدتهم أن يرسلوا الدعم إلى زوجها «كتيمبي»، بكت وانكبت على يد أبيها تقبلها، ربت الملك على رأس ابنته مطمئنًا وحدث ابنه:

- اجمع الرجال، سنذهب لنجدة إخوتنا.

جذب ابنته برفق وضمها إلى صدره:

- والآن اذهبي مع «كونوَا» إلى المنزل لتستريحي.

نُفخ في البوق فاستيقظ أهل القرية فزعين، خرجوا من منازلهم متوجهين إلى الساحة لمعرفة ما يحدث، وقف «ساندو» على الدرج المؤدي لمنزله ممسكًا بسيف ودَرَقة، وواضعًا فوق رأسه خوذة منحوتة من الجوز، ومرتديًا صديرية من الجلد المدبوغ، انتظر حتى اجتمع جُل أهل المملكة ونادى فيهم:

- غابة الظلال أرضنا المقدسة ومن يطأها قاصدًا شرًّا فهو عدو لنا، لن نسمح بأن يُهان إخوتنا أو تقطع أشجارنا. لن ندع أحدًا يمس نساءنا وأطفالنا. الحرب تنادينا ونحن أهلها فاستعدوا يا رجال مملكة التل الدموي، ولنجعل الشمس تشرق على ما تبقى من رماد هؤلاء المعتدين.

ومع نهاية كلمته انطلقت الأفواه بالصياح والهتاف، ثم دوى هزيم رعد يصم الآذان، ارتجفت القلوب وعمرت الرهبة العقول، وسكون دام لوقت قصير لم يكُن كافيًا لفهم الأمر، ثم عاد صوت الرعد مرة أخرى متزامنًا مع زخات من الأسهم النارية التي راحت تحصد أرواحهم وتشعل منازلهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10- سعد

السماء تمطر سهامًا نارية، والناس من حوله يتساقطون، أسقف المنازل تشتعل والنساء يصرخن، أطفال يبكون وعجوز يركض والنار تحتضنه، وآخر يسقط من فوق السور الخشبي، حالة من الهرج والخوف عمت أرجاء القرية، وفي منزل الملك ركضت «كونوَا» و«سيرين» نحو النافذة، ولكن سهمًا ناريًّا أوقفهما وجعلهما تتيبسان في مكانهما، هزيم الرعد لا يتوقف وصرخات الرجال في الخارج جعلتهما ترتعدان، جذبت «سيرين» الذاهلة من ذراعها وركضتا، جعلتها «كونوَا» تفيق من تلك الحالة وحثتها على أن تفعلا شيئًا، جمعن النسوة والأطفال بينما يخرج الملك حاملًا بلطته متجهًا إلى الساحة صائحًا:

- إله الحرب جاء إلى عتبة دارنا وسنعاقبه.

ويبدو أن رب الحرب سمعه فثارت ثورته، ففور وصوله إلى الساحة، انكسرت البوابة الخشبية، رأى «ساندو» ينادي في رجاله حاثًّا إياهم على الثبات، مرت لحظات ولم يدخل أحد سوى الموت، دوي الطلقات صم الآذان، من لم يمُت سقط مصابًا، الدخان سيطر على المكان، أنين المصابين اقترن بحشرجات احتضار، الصرعى كُثر للغاية والأشلاء متناثرة وسط نيران تحيط بالجميع. عويل وبكاء وألم، زحف «ساندو» إلى حيث جسد أبيه، اخترق شيء ما عينه اليمنى، حلت مكانها فجوة حمراء في لحم وجهه الممزق، الدماء كانت تغطي كل شيء إلا نصل بلطته الملكية، أمسك «ساندو» الذي كان أكثر حظًّا من غيره، كتفه مصابة، وصدره لطخ بدمائه ودماء رفاقه، زحف مطمئنًّا على أحد المصابين، ثم نهض مع صوت بوق يُنذر بالهجوم، ساد سكون طويل بينما كان يدور بعينيه في المكان، مملكته التي كان سيرثها تحترق، ورجال يعرفهم وتربى معهم صاروا أجسادًا خاوية من الحياة، كل ما حلم به ذات يوم مَسه الجحيم بنصب وعذاب، زلزلت الأرض من تحت قدميه، ومن تبقى حيًّا من رجاله؟! تغلب على ألمه ورفع بلطة أبيه في الهواء مناديًا في رجاله:

- اثبتوووا.

ومع كلمته دخلت الخيل القوية، كسيل جارف أطاحت بمن يقف في طريقها، معركة شرسة غير متكافئة، سقط محاربو التل الدموي صرعى ومن لم يمُت استسلم، ألقوا بأسلحتهم أرضًا إلا «ساندو»، أسقط فارسًا عن صهوة جواده وأخذ يضربه بالبلطة، ثم نهض ملوحًا ببلطة أبيه في وجوههم، أحاطوا به، التفوا حوله محاصرين إياه، كان يصرخ في وجوههم ملوحًا ببلطته ذات النصل الملوث بالدماء، وعبر البوابة المشاة رافعين أسلحتهم العجيبة،

انتشروا في أرجاء القرية، يحيط بهم عويل وانتحاب وبرك من دم خاضوا فيها بأقدامهم. سيطروا على أرجاء القرية وأخضعوا الثكالى البائسين، جمعوهم وأجبروهم على الجلوس أرضًا، وحشية مفرطة تعاملوا بها مع الجرحى والنساء، لم يفعلوا شيئًا لكل هذا، كل ذنبهم أنهم كانوا في طريقه.

بخطى واثقة وقامة مشدودة عبَر بوابة اشتعلت النيران في أحد ضلفتيها، غازيًا منتصرًا مفعمًا بنشوة النصر الأول، أولى معاركه لم تستغرق سوى قليل من الوقت. جاءه الأمر باستكشاف الطريق القديم لغابة الظلال، وأن يفرض يد السلطان فوق أي تجمعات لبشر، ولكن هؤلاء ليسوا بشرًا، إنهم قتلة وبدائيون وجبت إبادتهم واستعبادهم، قبل الهجوم أشار عليه أحد الفرسان المرافقين بأخذ أسرى إن بقي منهم أحياء، سيُرضي ذلك السلطان بالتأكيد وسيحظى بالكثير من النِّعم. أفسحوا له الطريق ليقف أمام «ساندو» الصامد على الرغم من جروحه قابضًا على سلاحه ودرعه المهشم ونظرته المليئة بالغل، كان الوحيد الواقف على قدميه، تفحصه سعد بنظرة خاوية ثم نقل بصره إلى الأسرى والجرحى المقرفصين في الأرض، القتلى والنيران، وسيدتان تقفان وسط جمع من الأسرى جذبتا انتباهه، تنتحب واحدة وتحضنها الأخرى، بقي ينظر إليهما للحظات ثم استدار قائلًا:

- اقتلوه.

تباطأ المشهد مع آخر حروف كلمة سعد المقتضبة، سارع الجند للفتك بالرجل، هجموا على الأمير الجريح، ولم يكُن لقمة سائغة، أصاب أحدهم وصرع الآخر وطعنه الثالث فالرابع وتوالت الطعنات مرارًا، وخر صريعًا وعيناه لا تفارقانهما؛ «سيرين» تصرخ وأيادٍ عديدة تمنعها من الركض نحو أخيها، بينما ظلت «كونوَا» واقفة جامدة، فقط انسلت دمعةُ قهرٍ رثاءً لزوجها الشجاع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طارت الطيور فزعة من فوق الأغصان، شيء ما يحدث في قلب الغابة، فطن الرجال إلى الأمر وراحوا يطمئنون بعضهم بعضًا بصفيرهم الخاص، وعلى الضوء المنبعث من المعسكر رأى «كتيمبي» أحد جياد البرق قادمًا، أوقفه الحرس للحظة وبعدها سمحوا له بالدخول، لم يمضِ الكثير من الوقت حتى نُفخ في البوق، حالة من الفوضى عمت المكان، وقبيل الفجر كانوا قد استعدوا، خرجوا منظمين مع حلول الفجر وما لبثوا أن وليت وجوههم شطر غابة الظلال، أفرغ المعسكر إلا من قلة قليلة من الجند، قادتهم يتفقدونهم، يعطونهم الأوامر ويشرحون ما يحدث، المسافة كانت بعيدة ليسمع «كتيمبي» ورجاله ما يحدث، كان يحاول التقدم بضع خطوات لعله يسمع حين جاءه صوت أبي الدهب من خلفه:

- «كتيمبي»، لا تهاجم ما داموا لم يكتشفونا.

- حسنًا يا درويش، فهمت. سنراقبهم من دون أن يشعروا، وإن اقتربوا من قريتنا سنسحبهم بعيدًا لنعيدهم من حيث جاءوا دون سفك دماء أي منا.

قاد سليمان ناب رجاله المتذمرين إلى داخل الغابة، جياد البرق التزموا بالبقاء أمام وخلف القوات المتأهبة، لم يكُن مر على اختفاء الرجال في جبل الإفريز إلا يومان، وهنا الأساطير أكثر رعبًا، تركوا ضياء الفجر خلفهم وتوغلوا إلى الغابة الساكنة المظلمة، قائدهم المغرور استلم رسالتين أثارتا حنقه وتسببتا في انفجار غضبه، الأولى من الأمير قاسم أصلان وتقول:

منذ اللحظة التي تصلك فيها هذه الرسالة ستكون تحت إمرة القائد سعد بن مرزوق.

والثانية كانت من قائده الجديد ذلك البرغوث سعد:

كلاب الصيد قادتنا إلى قرية للمتمردين، ادخل إلى غابة الظلال وابسط السيطرة على المتمردين مهما كلف الأمر.

لم يسأله أحد على حال جنوده الباقين وكيف فقد الآخرين، لم يهتم أحد برسائله التي أخبرتهم بأنه جاء بعد يومين من الموعد المتفق عليه، وبأن رجاله خائفون من المجهول الذي يسيرون إليه. والآن المدعو سعد، ذو النسب المتدني، صار يعطيه الأوامر. لن يسكت على تلك الإهانة، فور عودته من تلك الحملة سيقصد القصر الأزرق وسيشكو للسلطان، كيف يصير ذلك الشاب أميرًا على الجيش بدلًا منه، على كل حال، وسام آخر سيضاف له مع لقب جديد، ربما عليه أن يصطاد حيوانًا من تلك الغابة ويهدي فراءه إلى السلطان، سيكون وقع ذلك رائعًا. طال به وبجيشه المسير، وكأنهم داخل تيه، يدورون في المكان نفسه، كل شيء متشابه، يسيرون من دون توقف، فقط أصوات طير منزعج من وجودهم في غابته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تسلق أحد الرجال شجرة معمرة، مهارة تحسده عليها القرود والسناجب الهاربة بين الأغصان، كان سريعًا يعرف ما يفعل، يصعد ويصعد حتى اختفى، وفي قمة الشجرة جلس فوق غصن سميك، الشمس المتوهجة تبحر على مهل في السماء الزرقاء، وفي الأفق دخان أبيض كثيف يرتقي رؤوس الأشجار صاعدًا إلى البراح، تحديد الجهة لم يكن أمرًا صعبًا، أخذ يحدق في الأفق، وفي قلبه كانت تنبت أكثر مخاوفه. وفي الأسفل كان القلق يفترس «كتيمبي»، لم يأتِ رجال التل الدموي، مددٌ تأخر وجيش العدو يتقدم مستكشفًا الغابة، ورجاله نجحوا في سحبهم إلى طريق آخر، دهب كان الطُّعم، يطلق عواءه ويركض بين الآجام، ورجال سليمان ناب المتحفزون نال الرعب منهم، يسيرون على غير هدى وكلما ظنوا أنهم أحكموا الخناق على طريدتهم يكتشفون أنهم كانوا يطاردون السراب. نزل الرجل إلى حيث

يقف «كتيمبي»، أخبره بما رأى من دُخَان يعانق السماء، أشار أبو الدهب عليه أن يرسل مجموعة من رجاله إلى هناك، ففعل بعد أن استشار رجاله وقلبه يخفق خوفًا، تجلى القلق في وجهه، كان يخشى على «سيرين» وابنه الذي ما زال في بطنها، كذلك أخته «كونوَا» تسكن هناك، أراد الذهاب ولكن أبا الدهب أقنعه بضرورة البقاء مع الرجال. اختار مجموعة من ستة أفراد انضم إليهم بياض الذي ودع صاحبه قائلًا:

- أنتم تستطيعون التسلل بين الشجيرات والأحجار بيسر، أما أنا فأمثل عائقًا لكم، سأذهب مع الرجال إلى التل الدموي وسنعود بالمدد قريبًا.

صافحه أبو الدهب من دون أن ينطق كلمة، وحيَّاه «كتيمبي» بإشارة من يده ووجه خالٍ من أي تعبير، وما إن رحل بياض وزمرته حتى استدار «كتيمبي» محدثًا رجاله:

- دعونا نُدخلهم إلى حَرم الحوريات.

لم ترُق نبرته لأبي الدهب، رأى في عين الشاب بريقًا عجيبًا، وما تعنيه جملته القصيرة أنه ينوي فعل شيء رهيب، توجه إليه مبتسمًا:

- لمَ سندخلهم المستنقع؟ ألا تقضي الخطة بسحبهم إلى خارج الغابة مرة أخرى؟

أجابه «كتيمبي» وهو يتابع تحرك رجاله بين الجذوع:

- فقط خطة بديلة حتى نتأكد من أمرٍ ما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خاض بياض النهر خلف الرجال، حذروه من وجود تماسيح وأفاعٍ سامة وأن عليه الإسراع، سُبل وعرة خاضوها، وأشجار من أنواع مختلفة، جذوع ملساء وأخرى ذات أشواك، كان عليهم الإسراع والوصول إلى مملكة التل الدموي متخذين طرقًا لا يعرفها سواهم، وكان عليه مجاراتهم على الرغم من تعبه، عاتب نفسه كثيرًا على تطوعه لتلك الرحلة، يركض خلفهم وكلما شعر بالإعياء كان يطلب منهم أن يبطئوا المسير، يتوقفون قليلًا ليرتاح ثم يكملون، مسافة طويلة قطعوها وقد تجاوزت الشمس الظهيرة، صاروا أقرب إلى مملكة التل الدموي وبدأت الريح تنقل إلى أنوفهم رائحة شيء يُحرق.

الدخان يعبق الأجواء، ضباب خانق يثير السعال، صعدوا بصعوبة إلى الطريق المؤدي إلى بوابة الجوز، الدخان قادم من هناك وسكون رهيب يجثم فوق المكان، سعل بياض مرارًا فزجره أحد رفاقه، ثم استدار لرفاقه وأشار لهم بأصابعه إلى عدة اتجاهات، ذهب كل اثنين منهم في اتجاه ثم همس لبياض:

- اتبعني.

كانت البوابة محترقة تمامًا، وأجزاء من السور تفحمت، والجمجمة العملاقة للفيل كانت مهشمة، تخطاها بياض ذاهلًا، تحاشى أن يدهس العظام، وكأن المكان سقط عليه شهاب من السماء، جثث ملقاة هنا وهناك، الدماء ما زالت رطبة لزجة لم تمتصها الأرض، الموت مر من هنا وحصد الكثير من الأرواح، المنازل حول الساحة تحولت إلى رماد أسود ما زال ينفث الدخان، القتلى بالعشرات على الدرج الحجري المؤدي لمنزل الملك الذي لم يحترق بأكمله، انحنى أحد الرجال يتفحص جثة وراح يبكي، بينما صاحبه كان يسير شاهرًا رمحه مرتعدًا، ارتقى بياض الدرج والألم يطعن قلبه والوجل يعتصر كيانه، أطفال ونساء قتلى، الدمار لحق بكل شيء. أي وحش قد يفعل هذا بأناس مسالمين، حين وصل لآخر الدرج تجمد الدم في عروقه، ظل واقفًا فاغرًا فاه: على أوتاد خشبية ثبتت أجساد المحاربين، وفي المنتصف كان جسد الملك الضخم ينتصب بينهم. ربطوا جميعًا بالحبال، ثبتوا إلى الأوتاد بوحشية، وكان القاسم المشترك بينهم جميعًا أن رؤوسهم ليست موجودة. وفوق صارٍ قرب باب المنزل كان هناك رأس من دون جسد. سار بياض بصعوبة كأن ساقيه لصقتا بالأرض، أنفاسه المتلاحقة استنشق خلالها رائحة الدماء والشواء والموت، ورأس «ساندو» يقطر دمًا جاحظ العين.

جثا بياض على ركبتيه باكيًا غير مصدق ما رآه، أُبيدت المملكة الصغيرة بأكملها، لا أحياء، الكل موتى. تذكر «كونوَا» فنهض ماسحًا خيط الدمع عن وجهه فتلوث برماد أسود، دلف إلى المنزل المحترق ونادى:

- «كونوَا»، أميرة «كونوَا»، هل أنتِ هنا؟

نداء يائس خافت، ولم تُجِبه سوى طقطقة الأخشاب المحترقة. صوت في الخارج وجلبة وأحد يتألم جعله يخرج من المنزل مهرولًا، كان رفاقه يمسكون بشخص، يركلونه ويضربونه، كان ضئيلًا مسجى، سحبه أحدهم من ساقه إلى وسط الساحة والآخر يبصق عليه، كان الرجل يتألم ويصرخ قائلًا:

- لم أقتل أحدًا. أقسم لم أقتل أحدًا. لم أرتضِ بهذا الفعل، لا تقتلوني.

أمسك بياض بيد الرجل حين رفع رمحه ليغرسه في صدر الأسير الملقى أرضًا، تعجب الرجل من فعل بياض فدفعه بعيدًا، وجاء آخر ليضرب الأسير فصرخ فيهم بياض:

- لا نقتل الأسرى.

توقف الرجل لبرهة تبادل فيها النظرات مع كبيرهم الذي اقترب محدثًا بياض بغلظة:

- لقد أبادوا أهل القرية جميعًا، وتريد أن تبقيه حيًّا.

صاح الأسير المدمى:

- ما زال هناك أحياء، أقسم إني لم أقتل أحدًا.

أخذ يكررها فالتفت إليه بياض غاضبًا، كاد أن يقول شيئًا ولكن لسانه تيبس. على الرغم من هيئته المزرية ووجهه الملطخ بالطين والدم، عرفه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السير على أرض طينية رخوة أمر صعب، عَلق الجند على ضفاف مستنقع، هذا ما كان ينقصهم بعد رحلتهم إلى جبال الإفريز، أُلقي بهم إلى غابة ستصيبهم بالجنون، منذ الفجر يسيرون حتى استقروا هنا عنوة، أشعلوا النيران وجلسوا في حلقات حولها، انتشروا بين الأشجار بين متذكر لمدينته، ومن صار يحلم بالعودة إلى قريته، وقصص عن حبيبات ينتظرن عودتهم، يحكون قصصًا عن حياة رغدة تمتد إلى المشيب، آخرون كانوا بائسين يشعرون أن هناك شيئًا سيحدث، تطيروا بما حدث في الجبال، رفاق عرفوهم وعاشوا معهم اختفوا، لم يعُد لهم أثر بعد أن كانوا عِيانًا. الحياة والموت مفهومان قلما يستشعر الناس وجودهما، جُلهم لم يسفكوا دماء أي عدو، والآن من أراد أن يحيا عليه أن يقتل، ولكن يقتل ماذا؛ الأشجار أم حيوانات الغابة؟ وذلك البعوض اللعين الذي يتأهب لمهاجمتهم مع حلول الليل، وليمة عظيمة من بشر وخيل، دماء طازجة يتهافت عليها البعوض، بدا أنها ستكون ليلة طويلة، هكذا عَرف سليمان ناب، هناك من يتلاعب به للمرة الثانية، نظرات الجند إليه أوحت بأنهم يبغضونه، وهو بائس أكثر من جرو ثعلب محصور بين الأشجار خائفًا، كل هؤلاء البشر يحولون دون رجوعه لجحره.

اختفى دهب منذ اقتربوا إلى تلك الأنحاء، بحث عنه أبوه ولم يظهر، الغروب ألقى بحمرته بين الأغصان، سكون لا يقطعه سوى صفير نسر ذهبي يحوم فوق الأشجار، كانوا كامنين فوق ربوة اعتمر قمتها دغل كثيف، لا مجال لإشعال النيران، فهؤلاء الغرباء المقيمون على شاطئ المستنقع قد يرونهم وتحدث مواجهة مبكرة. جلس «كتيمبي» مستترًا بالشجيرات، كان مستغرقًا في التفكير يراقب ما يحدث في المعسكر، جاء أبو الدهب وجلس إلى جواره، ودام الصمت حتى بدأ الليل يفرد بساطه بالسماء، سأله «كتيمبي»:

- لماذا دخلوا غابتنا؟

- لا أعرف، ولكن الأسير من جياد البرق، أخبرنا بأن مهمتهم كانت فرض السيطرة على الصحراء.

- ربما معلوماته لم تكُن تبلغ ما نحن فيه الآن، وربما كذب علينا وضللنا.

- فرسان البرق لا يعرفون إلا ما يُبلغون به ولا يدلون إلا بما يعرفونه، كل ما نعرفه الآن أنهم تائهون في الغابة، لا أعرف لماذا جئت بهم إلى هنا.

ابتسم «كتيمبي» وربت على ظهر أبي الدهب:

- يا درويش، أخبرتك من قبل أن تلك أرضنا وعليهم اتباع قوانينها.

- حسنًا، سأذهب للبحث عن دهب، اختفى منذ جئنا إلى هنا.

- ربما يخشى الأشباح.

لم يُعقب أبو الدهب، رحل تاركًا المكان، لم يكُن عليه خطف أحد رجال البرق، وكذلك كان من الخطأ أن يقتل دهب أحدهم، لم يكُن يجدر بكل هذا أن يحدث، لقد ظل هاربًا من البشر لسنوات، يعيش في واحته مع ذئبه وكفى. كان كل شيء على ما يرام حتى ظهر بياض قادمًا مع الرجال يجذبون شخصًا آخر مكبلًا مغمى العينين، كانت وجوه غير التي ذهبوا بها، تحرك نحوهم وكذلك فعل بعض الرجال، كان وجه بياض يحمل الكثير من القلق والخوف.

أوقفوه أمام «كتيمبي» المتصبب عرقًا وتوترًا، لم يسأل رجاله ولكن نظرته كانت تفيض بالفضول والأسئلة، بعد تردد تكلم قائد فرقته بأسى:

- كان الأمر بشعًا، حين وصلنا لم يكُن هناك سوى النيران، رحل الموت حاملًا معه أرواح العشرات من النساء والأطفال والجند، أوصال مقطعة وجثث مشوهة مُزق بعضها لأشلاء، أجساد من دون رؤوس للملك وحراسه وحاشيته مصلوبين على صوارٍ من خشب الجوز، الأمير «ساندو» لم يتبقَّ منه إلا رأسه مثبتًا فوق رمح.

كان «كتيمبي» يقف غير مصدق لما يسمع، إنه كابوس وسيفيق منه حتمًا، لا شيء من هذا حدث بالتأكيد.

- دُمر المكان ولم يتبقَّ من التل الدموي سوى أرض خربة ووجبة للنسور والغربان.

أفاق على هذه الكلمات، عضلات وجهه تشنجت واعتصر قبضته فأصدرت طقطقة، العالم هوى من حوله واشتعلت الأشجار بفعل موجة غضب وقرها في صدره، ثم قطع الصمت سائلًا بحرقة:

- الأميرتان «سيرين» و«كونوَا»؟

- لم نجد لهما أثرًا، ولكن هذا الرجل يقول إن جيشه اقتاد الكثير من الأسرى...

لم يتم كلمته فور تحرُّك «كتيمبي»، انقض على الأسير مغمض العينين وكال له ضربة في بطنه، تألم وسقط أرضًا متلويًا، حاول أبو الدهب أن يثنيه عن مواصلة الضربات فتلقى ضربة بوجهه أسقطته أرضًا، وانهال «كتيمبي» على الأسير ضربًا، تدخل بياض ودفع «كتيمبي» بعيدًا عن الرجل، فرفع كل رجال «كتيمبي» أسلحتهم في وجه بياض الذي قال:

- من يريد إيذاءه فليعبر على جثتي.

- فليكُن.

كلمة واحدة كانت كافية من «كتيمبي»، دار حول نفسه ملوحًا بالرمح وبحركة دائرية ضرب فخذ بياض، الذي انثنت ركبته قبل أن يتلقى ركلة قوية في صدره أوقعته إلى جانب الأسير، و«كتيمبي» يقف فوقه مستعدًّا لغرس الرمح في عنقه، صاح أبو الدهب المحاصر من رجال «كتيمبي»:

- لن نقتل بعضنا بعضًا. نحن لسنا أعداءً يا «كتيمبي»، بياض القرش ليس عدوك.

ظل «كتيمبي» محدقًا بوجه بياض بغيظ وأبو الدهب يكمل حديثه:

- اكظم غيظك يا صاحِ. إن كنت تريد عودة الأميرتين فلتُعمل عقلك.

بصق الأمير اليافع على صدر بياض قبل أن ينهض من فوقه، أشار لرجاله بأخذ الرجلين من أمامه، بينما تبادل بياض النظرات مع أبي الدهب الذي أومأ له برأسه في أسى. أخذوهما مبتعدين بينما تحرك «كتيمبي» إلى أحد رجاله وهمس في أذنه، أثار الفعل الدهشة في قلب أبي الدهب، فتخطى الرجال محدثًا «كتيمبي»:

- بياض ليس له شأن بأي شيء.

استدار إليه «كتيمبي» قائلًا:

- لقد سمعت ما قاله الرجل، أُحرقت البلدة وقُتل كل من فيها. زوجتي وأختي والكثير من أهل التل الدموي في عداد المفقودين. كنت تريد معرفة لمَ جئت بهم إلى هنا؟ أظنك على وشك معرفة ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شرب سلَّام حتى ارتوى، ظل ممسكًا بالقربة بيديه المكبلتين من المعصم، وجهه دامٍ وأنفه متورم وشعره أهوج مغبر، ظل يحدق فيهم جميعًا وقد تجاوز فكرة وجود بياض الذي أُجلس إلى جواره عنوة قبل مجيء الزعيم الشاب، الذي سأله بلغته ولكن بلكنة غريبة بعض الشيء على سمع سلَّام:

- لماذا فعلتم هذا؟

أجاب سلّام وعلى وجهه أسى دامٍ:

- لم أفعل شيئًا، رفضت إطلاق النيران على الجرحى من الأسرى، ضُربت وسُحلت بأمره وتحت نظره، لم يبالِ بصداقتنا، كنت عبرة لمن يُفكر بالتراجع عن تنفيذ الأوامر، كيف أقتل العزلَ من النسوة والعجائز الجرحى؟ لم تكُن تلك الأوامر التي يقتضي علينا فعلها، كل ما وجب فعله أن نؤمِّن ظهر جيش السلطان الذي اتجه جنوبًا نحو مملكة الساحل، اتخذوا هم طريق البحر، ونحن طُلب منا التوجه عبر طريق الوادي القديم المار من قلب الغابة، ثم العودة من حيث أتينا، لم يكُن من المفترض حدوث هذا، لم يكُن عليه قتل الناس، لقد تغير سعد يا بياض، لقد أصابه السعار، صار كحيوان لا تشبعه الدماء.

غمغم أبو الدهب:

- ليس هناك حيوان يفعل ما فعله صاحبكما.

نظرة لوم من بياض، بينما أشار «كتيمبي» لسلَّام باستكمال حديثه:

- في البداية عثر أحد خيالة البرق على صياد يجوب الغابة، تتبع أثره ورأى ما رأى، وعاد ليخبر القائد بما رأى، وألقى بعدها خطبة حماسية على مسامع الفيلق، أخبرهم أننا وصلنا إلى وجار الذئب، وأن القتلة سينالون جزاءهم. ملأ أرواحهم بالغل، وبأنه نجا من الموت على أيديهم بينما مات كل رفاقه. قص جزءًا خاصًّا ببطولته حيث ضحَّى من أجل رفاقه، كيف صمد للنهاية محاولًا نجدته، الألم الذي اعتراه حينها، وقسمه الذي وجب إبراره.

صمتُ الكون لم يعجب بومةً كانت تتوق لسماع باقي الحكاية، سلَّام الشارد أكمل:

- لم تكُن هناك معركة. أمطرت القرية بوابل من الرصاص والسهام النارية، والخيل جذبت البوابة الخشبية بكلابات من حبال وحديد، مجزرة أمر بارتكابها، قتل كل المستسلمين والجرحى من الرجال المحاربين، وسيق الأسرى زمرًا خارجين من الجحيم المشتعل خلفهم، رأيت كل هذا بينما كنت مربوطًا إلى جواد أحد الفرسان، وبعد أن انتهوا من فعلتهم ونهبوا ما ظنوا أنه ثمين سيق الأسرى محاطين بالمشاة، لا تسمع سوى النحيب وأجيج النيران، كُنت نَكرة ومر إلى جواري ممتطيًا جواده من دون أن ينظر إليَّ، فقط أمر بإعدامي بقطع رأسي ولكن الفارس الذي أوكل له الأمر لم يستطِع فعل ذلك. أطلق سراحي في الغابة، لم أستطع الركض إلا لأمتار وخارت قواي. استيقظت على ضربات من رجالكم حتى أنقذني بياض.

- تعرفان بعضكما بعضًا، أليس كذلك؟

سأل «كتيمبي» الغاضب فصمت سلَّام، وبعد لحظة أجاب بياض:

- نعم أعرفه، قاتله وقاتلي واحد.

- هذا يعني أنكما تعرفان إلى أين سيذهبون بالأسرى، ومن المفترض أنكما من الأموات الآن حسب قصة كل واحد منكما، ماذا لو كنتما كاذبين؟

غمغم بياض بحنق:

- القرش لا يكذب، و...

- خذوهما إلى القرية واجعلوهما قيد الحراسة مع الأسير الآخر.

لم تكُن نبرته تروق لأبي الدهب، الذي كان يقف مستندًا إلى جذع شجرة سنديان عتيقة، انتظر حتى خلا المكان من الجند وقطع صمته محدثًا «كتيمبي»:

- أظن أنك تنوي فعل شيء ما، كل ما سأقوله لك هو ألا تُقدم على فعل شيء مجنون. سنحتاج إلى فرصة تفاوض كبيرة لا تُضيعها.

رماه «كتيمبي» بنظرة استنكار:

- ما لي أراك هادئًا هكذا؟

- أعرف ما يدور بذهنك، والانتقام ليس حلًّا لرجوع الأميرتين يا «كتيمبي».

- على الميزان أن يُنصب وتتساوى الكفتان، وبعدها نتفاوض يا درويش.

- للمرة الثانية أقولها لك يا «كتيمبي»، نحن في الجانب نفسه.

- هل تسألني؟!

- لا، أذكرك فقط، فأنا أعرف ما تمر به الآن وما يدور بعقلك.

- على سبيل التذكرة؛ أسمعت ما قاله الأسير؟ إنهم أتوا إلى هنا لاصطياد قاتل يُدعى الذئب. لقد أتوا في أثرك يا درويش، أم تحب أن أناديك كما يدعونك؟ الذئب. والآن وقد انكشفت أمور كثيرة فالسبيل الوحيد لتنقذ نفسك ووحشك هو أن تقاتل إلى جانبنا، ستساعدنا على هزيمتهم واستعادة «سيرين» و«كونوَا» وكل الأسرى. نحن في الجانب نفسه وعلينا القتال للنهاية. وحدك تعرف دروب بحر الرمال وفجاجه، وأيًّا كان ما قد تسببت به لهؤلاء القوم فلن يكون بفداحة ما صنعته أيديهم بسببك، ولكنهم عبثوا مع القوم الخطأ. وبالمناسبة، أنت لا تعرف شيئًا مما يدور في عقلي، لأنك لم تفقد ما فقدت.

أنهى حديثه ورحل متجهًا إلى حيث يقف رجاله، تركه غارقًا في مستنقع ذكرياته، وإحساس بالذنب يجذبه إلى قاع الماضي، أمور كان ينبغي لها أن تكون قد مُحيت، وقصص ألقى بها في أعماق كهوف النسيان، ولا ضير أن

يرُمى بالأباطيل وبقصص لم يقترفها، وقد صار سببًا في قتل المئات من أهل مملكة التل الدموي. أصبح على الدنيا وقدره الهرب والآن أمسى وعليه المواجهة، كان ذلك هو الخيار المفترض حدوثه منذ زمن، عليه مواجهة مخاوفه القديمة، أن يتسلح بأيام وحدته وسنين من مرافقة دهب الذي غاب عن المشهد منذ الصباح، ترى أين هو؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أُلقي بهما إلى غرفة معتمة، ابتلعتهما. مكبلان يغلفهما الصمت حتى ضحك سلّام متغلبًا على آلامه، ظن بياض أن الرجل أصابه مس من جنون، وهذا ما كان ينقصه، أن يُسجن مرة أخرى، وكأن هذا ما خُلق لأجله، أن يُسجن، ولكن هذه المرة مختلفة، سجن ضيق مع رجل فقد عقله، داخل غابة مظلمة يحدها شمالًا بحر من الرمال، وجنوبًا مملكة الساحل. ولكن ماذا عن المدن هناك وما بعدها، ربما هناك بحر، إنه يشتاق للبحر. رافق ذكرى البحر صوت سلّام الذي توقف عن الضحك وتكلم:

- ظننت أني مت وتلك المخلوقات التي قبضت عليَّ هم سدنة النار، جاءوا ليسحبوني إلى الجحيم، وحين وقع بصري عليك تأكدت من ذلك. حتى بدأوا في ضربي فعرفت أن كل هذا حقيقي. قال الناس إنك مت في الصحراء وإنك دافعت عن سعد وضحيت بروحك لتنقذه، ولكنه لم يخبرني بذلك، اكتفى بإلقاء كذبته على الآخرين، وكان دومًا يتحاشى سؤالي المتكرر؛ أين بياض؟ في لحظة ما أحببت كوني أسبب له الخوف والقلق، تلك النظرات البادية على وجهه كانت تؤكد لي أن هناك شيئًا حدث، سعد يخفي شيئًا بداخله. وبالفعل، الأيام أظهرته على حقيقته، ألقى بي في دورية خارج الكَفر، ولما كانوا بحاجة لكل رجل للحملة وجدت نفسي تحت إمرة أحد فرسانه، وكلما عسكرنا بمكان كان يقص على مسامع الرجال عن شجاعته ومواقفه النبيلة، ولم أصدقه يومًا. أنا أعرف سعد وهذا لم يكُن هو، صاحبنا الضئيل الخائف دومًا، المتردد في اتخاذ قراراته، ذلك الضعيف سعد البرغوث مات في الصحراء.

أسند بياض رأسه إلى الحائط الخشبي مغمغمًا بصوته الأجش:

- لم أكُن أظن أني سأراك مرة أخرى، أنت أو أي شخص من كَفر البردقوش، كما لم أتخيل أن يغدر بي سعد، التمست له الأعذار والمبررات، كنت أسأل نفسي لماذا فعل هذا بي، والآن صار السؤال الوحيد برأسي لماذا قتل أهل مملكة التل الدموي؟

- يقول إنه ينتقم لك، يأخذ بثأرك.

- أي ثأر وهو قاتلي؟

- الرجل صارت له محظية صهباء وبيت فخم داخل أسوار الحصن، الحكمدار يمنحه الكثير من التقدير، وقائد الجيوش قاسم أصلان يُقدره وأسند له القيادة. سعد يعرف كيف يصل لمبتغاه، حتى لو تكلف هذا أن يقتل كل من يقف في طريقه. أتدري؟ هناك الكثيرون من الجيش رافضون لما فعله سعد، والدليل على ذلك هو الفارس الذي أطلق سراحي ولم يقتلني، لولاه لكنت وجبة تسد رمق ضباع الغابة.

- ومن قال لك إننا لسنا ميتين؟

- كل ذلك الضرب الذي انهال عليَّ به رفاقك يؤكد أني ما زلت حيًّا، وكثيرًا ما سألت نفسي هل يتألم الأموات؟

- نحن بالنسبة لكل من عرفنا يومًا، أموات.

- ربما هذا أفضل. أتدري أن هول ما نحن فيه قد أنساني شيئًا، بياض كيف نجوت كل هذه المدة وما قصة ذلك الرجل الأشعث؟

- إنها قصة طويلة.

- سأستمتع بسماعها.

- الآن؟

- نحن مقيدان في زنزانة يفوح منها العطن، هل تظن أن هناك شيئًا آخر سوى الحديث قد يجعل الوقت يمر.

كانت قصة بياض مليئة بالحزن، حتى جاء ذلك الجزء الخاص بالذئب، دهب، ذلك الكائن العجيب والذي يعي كل شيء. كانت قصة مسلية لسلّام الذي أخذ يسأل وبياض يجيب، أخبره أنها حكاية ملهمة لعمل أنشودة ما أو أغنية تعيش لقرون، أسطورة حية بطلها درويشٌ شارد وذئب وحيد، كانا غارقين في حديث طويل، كل منهما تبدلت أحلامه وطموحاته، وحين صمت بياض عن الكلام غنى سلَّام أغنية حزينة عن عصفور حبيس بقفص من ذهب، يبكي كل يوم ويظن الناس أنه يغني مبتهجًا، حتى جاء يوم وفُتح له باب القفص، فحلق مبتعدًا ليصيبه في النهاية سهم مميت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غُمست رؤوس السهام في قوارير فخارية، شدت أصابع الرجال أوتار الأقواس و«كتيمبي» يلف على حربته شريطًا من قماش أصفر، ليلة طويلة وفجر يخشى المجيء، تمنى أن يسير كل شيء كما خطط له وأن يكون الوقت كما حسبه، على هؤلاء القتلة أن يدفعوا الثمن، وعليه الحرص على ألا يصيب رجاله مكروه، مائة وخمسون رجلًا وثلاثون قرد بابون مدربة على الصيد، سيخوضون معركة من أجل البقاء واسترداد الكرامة، وحبيبته

«سيرين»، رفع رأسه للسماء متمنيًا أن تكون بخير لعل تلك النجوم ترعاها، «كونوَا» قوية ستشد من أزرها حتى يصل إليهما، عليه أن يبقى حيًّا ويقاتل لأجلهما، لن يقف شيء أمامه حتى يحقق ما يريد، هكذا كان دومًا، وهذا ما هو عليه. أمر رجاله بالاستعداد، دروعهم الرمادية المصنوعة من جلود التماسيح ستمنحهم أفضلية التخفي، ووجوههم الملونة باللونين الأحمر والأسود تعكس ما ينوون فعله. رأى أبو الدهب في أعينهم شيئًا مريعًا، يعرف تلك النظرات جيدًا، حياته انقلبت رأسًا على عقب مرة أخرى، والموت حاضر فوق الهامات، يشم رائحته في الهواء، عاش لفترة كدافن موتى لمن يجدهم في الصحراء وهؤلاء الجند القتلى ورجال القافلة السلطانية، كل شيء تغير منذ وجد الموتى في الصحراء، كان يحسب أن الموت نسيه، والآن وقد جاء الموت في أثره، عليه أن يمنعه من أخذ المزيد من الأرواح.

حطت بومة بيضاء فوق غصن سميك، نهامها كان مرتفعًا أرَّق أحد الجند، أخذ يسب ونهض متوجهًا إلى طرف المعسكر حتى وجد أجمة مرتفعة ذات أغصان متشابكة، وقف يتبول موليًا ظهره للمعسكر، وأمامه المستنقع ممتد يعكس ضوء المشاعل البعيدة، أفرغ مثانته ووقف لبرهة متأملًا السكون، شيء ما تحرك أسفل قدميه جعله يفزع ويتراجع، وعلى الضوء الشحيح رأى عشرات من الضفادع والثعابين والحشرات تتحرك معًا، أي كابوس لعين هذا الذي سيطر عليه، دفع بقدمه إحداها بعيدًا، وبدأ في تلك اللحظة ضجيج يعلو رويدًا، اختلط نقيق الضفادع بفحيح الأفاعي وصرير الجنادب، كانوا يهربون من شيء ما بالمئات. قفز للوراء خطوتين وعيناه لا تصدقان ما يرى، حاول جاهدًا فهم الأمر ولكنه فشل، تجاوزته الكائنات متجهة إلى المعسكر بينما وقف هو محدقًا في ذلك الشيء القادم نحوه.

في زمن سحيق كانت تلك الأرض جزءًا من مستنقع دُفنت فيه حوريات بحر الرمال، وفي اليوم السابع من دفن آخر الحوريات ومع بزوغ الهلال، خرج من جوف الأرض ماء ظل يفور ويفور حتى اكتمل القمر، ليحول تلك المنطقة إلى مستنقع ضحل، يجف معظم مائه مع اختفاء القمر، ومع مولد هلال جديد تتنفس الأرض وتفور المياه، تكتسح مساحة واسعة من اليابسة، وتحيل المكان إلى بركة من وحل، تجوبها التماسيح بحثًا عن طرائد علقت بالمستنقع، وتفر منها الثعابين والقوارض والحشرات السامة، ذلك المكان هو حَرم الحوريات، اللاتي كن يعشن تحت الطمي، وتلك الفقاقيع على السطح الضحل بقيت من أثر تنفسهن، كان فيما مضى يتم تقديم قرابين لهن من قبل زعماء القرية، عادة ربما اختفت، ولكنها ظلت محفورة في ذاكرة كل أهل الرمح الفضي.

فاض المستنقع رويدًا وراح يغزو اليابسة، أخمد النيران في حفرها، وخُلقت حالة من الفوضى والهرج عمت المعسكر، الماء صار يصل إلى منتصف سيقانهم في وقت قصير، لم يكُن فيضانًا جارفًا بل سيلًا هادئًا، كانوا ينتشلون

أسلحتهم ودروعهم من الطمي بصعوبة والخيل الفزعة يحاول فرسانها طمأنتها، لدغ أحدهم عقرب وآخر صعدت على جسده الخنافس هربًا من الطوفان، الوضع كان سيئًا والماء يحيط بالسيقان والأقدام. على ضوء المشاعل القليلة نادى فيهم سليمان ناب بالانسحاب إلى مكان مرتفع. سحبوا خيولهم وجروا أرجلهم بصعوبة، الوحل يبطئ من تحركهم، وكثير منهم لم يستطِع التحرك، كل امرئ حاول النجاة بنفسه، من ترك سلاحه ومن أسقط درعه، وآخر أخذ يدفع الحشرات عن جسده. ووسط كل هذا الهرج راحت أصوات غريبة تأتي من فوق الأشجار التي كانت تمطر أوراقها وكأن الأغصان والجذوع والسيقان تنتفض حية، صيحات وزمجرات، وقفزت قردة البابون هبوطًا على جند سليمان ناب المذعورين، تنهش الصدور والأعناق، انفرط عقد الجند الخائفين وحاولوا الركض من دون جدوى، آخر ما سمعه معظمهم صوت أزيز جاء مع رشقات الموت، أُمطروا بسيل من نوع آخر، وجدت الرشقات مستقرًّا لها بالرقاب والصدور والأفخاذ، الخيل أيضًا لم تَسلم من الأمر، آهات ألم وصرخات خوف عمت المكان ومطر الأسهم لا يتوقف، ومع ذلك ثبت من لم يصَب في مكانه، تجمعوا ببطء حول أنفسهم وأخذ بعضهم يدافع أمام القردة القافزة، وكونت مجموعات منهم ما يشبه حائطًا من الدروع، ومع ذلك كان هناك الكثير من الإصابات تحدث، ثم حل السكون مع هروب القرود إلى أعالي الأشجار، صمت لا يقطعه سوى آهات مكتومة للجرحى، جال سليمان في المكان بعينيه، عشرات من رجاله سقطوا موتى، ابتلعهم الطمي الأسود، والأمر يزداد سوءًا مع كل من تم جرحه، إنهم يحتضرون، أنوفهم وأفواههم تلفظ الدماء مقترنة بسائل أصفر، الخيل المصابة تسقط أرضًا والخوف أحاط المكان بجناحيه، نادى بصوته الجَهْوري في الرجال المذعورين:

- اثبتوا. ليس علينا سوى أن نصعد ذلك التل وسنذيقهم شر هزيمة.

جاءته الإجابة بصوت أغصان تتهشم وأرض ترتج، ثم انهالت عليهم حجارة كبيرة، أطاحت بتجمعات الرجال، دهستهم بينما تتدحرج مكملة طريقها لأسفل، فرت الخيل المتبقية وحاول سليمان أن يهدئ من روع جواده، ولكن الأخير ألقاه أرضًا وركض مبتعدًا مع الفرسان والجند الهاربين، نهض متوجعًا ملطخًا بالوحل من أثر السقطة، القليل من المشاعل باقٍ والرجال تفرقوا منتشرين بين الأشجار ينتظرون القادم، حتى جاءت صيحة تبعتها صيحات عديدة ضجت بها الغابة من حولهم، وجعلت أسراب الطير تفارق أشجارها.

معركة صاخبة وقع هديرها على سفح الربوة، حيث هبط «كتيمبي» ورجاله ليحصدوا الرؤوس، كإعصارٍ دار بين الأجساد بخفة، يطعن هذا ويدفع ذاك ويضرب برمحه مزدوج الطرفين، الدماء تتفجر من الصدور والأعناق، إلى جانبه كان أبو الدهب يبارز بسيف راجي، لم يقتل أحدًا واكتفى بإصابات في السيقان والأكتاف، لمحه «كتيمبي» بطرف عينه وتفاجأ من مهارته، وكأن

الدرويش تلبسته روح أحد المقاتلين الأسطوريين، أما جند السلطان المتعبون المصابون فقد قاوموا بقدر استطاعتهم، يقودهم سليمان الذي استبسل وأظهر شجاعة ومهارة تليق بمكانته كحامل لراية السلطان، أخذ يُسقط المهاجمين واحدًا تلو الآخر، حتى اصطك سيفه بسيف أبي الدهب.

وقف الرجلان أمام بعضهما، كانا في الطول نفسه تقريبًا ولكن سليمان كان أكثر متانة، درع من زرد خفيف، ذو صديرية براقة مزخرفة، وخوذة فضية يحيط بقبتها جناحا صقر ذهبي، لف سيفه في الهواء وزيَّن وجهه بابتسامة تليق بفكه المربع ثم انقض مهاجمًا، امتص أبو الدهب الضربات المتتالية بخفة، ملابسه البسيطة منحته حرية حركة، كغزال رشيق تحرك على الرغم من الذكريات المتدفقة أمام عينيه، يعرف مبارزه جيدًا، درس حركاته منذ زمن بعيد، في مكان آخر قبل سنوات في ساحة تدريب كبيرة، المئات من الجند والكثير من الفرسان، وخيام جيش منتصر بعد حرب ضروس، احتفال كبير ومبارزة بين أفضل فارسين بجيش السلطنة، سليمان ناب فارس الجبل الأزرق وأبي الدهب. لم يكُن ذاك اسمه في ذلك الوقت، كان شخصًا آخر حينها، صليل السيفين رافقه شرر جعل الجميع ينتبهون إليهما، الرجلان كانا في غاية البراعة والمهارة، كاد «كتيمبي» أن يذبح مبارزه الجريح ولكنه توقف ذاهلًا أمام ما يراه. المبارزة كانت مميتة ويتحكم فيها الغضب وفيض من ذكرى، وكأن كل واحد منهما وجد ضالته في المعركة: خصم يقاتل ببراعة ويستحق الرهان بالحياة على الموت. منافسة من أجل البقاء على قيد الحياة لسليمان، أما أبو الدهب فكان يصد ويهاجم أشباحًا من ماضٍ بعيد.

جُرحت كتفه فانقشعت حجب النسيان عن ذاكرته، خصمه لا يُنهك وله نقطة ضعف لا يعرفها سواه على ما يذكر، سليمان ناب الكلب، هذا كان لقبه الذي تقلص مع الزمن وارتفاع مكانته، اقتصر اسمه على الناب فقط ليذكره بعضة الكلب، ويظل ذلك المكان نقطة ضعفه التي لا يعرفها الكثيرون، مفصل ركبته اليسرى كان نقطة عدم توازن الفارس صاحب القامة الطويلة، وكان سليمان لا يستحق قتالًا شريفًا، هذا ما قرره أبو الدهب وقام بركل ساق مبارزه أثناء اشتباكهما، كانت كافية ليسقط سليمان أرضًا، على الرغم من ألمه كان مذهولًا غاضبًا، تدحرج أرضًا ليبتعد بمسافة عن مبارزه حيث رآه على ضوء المشعل القريب بوضوح أكثر، بربري متوحش كث اللحية أشعث الشعر، ولكنه يمشي كشخص يعرفه، وهج النيران أضاء الظلام من خلفه كاشفًا عن أرض ومكان بعيدين كل البعد عن غابة الظلال في الزمان والمكان. تحولت صورة الهمجي إلى شخص مات منذ زمن بعيد أو هكذا خُيل إليه، كان يصارع هذيان عقله، بينما يهاجم أحد الرجال أبا الدهب الذي كان متوجهًا إلى سليمان، وحين عاد ببصره إلى حيث كان لم يجده، وحين التفت وجد «كتيمبي» يشير إلى الاتجاه الذي سلكه سليمان، ركضا خلفه ومن خلفهما راح صليل المعركة يخفت وصيحات نصر تصدح بها حناجر رجال

القبيلة الفضية، كانا هما داخل رحم ظلمة ما قبل الفجر، يرهفان السمع ويبحثان عن الفارس الهارب، الظلام والسكون والرجلان بين الشجيرات المنخفضة، كان طريدة وهما صيادان بارعان، تفرقا وراح كل واحد منهما يبحث في حذر، وسليمان بينهما يشعر بوجودهما، ظل كامنًا محاولًا سبر الظلام وتحديد مكانيهما، نهام خافت لبومة متوعكة قطع السكون لبرهة، بقي لوهلة ساكنًا حتى رأى ظل أحدهما مارًّا على مقربة منه، فرصة مثالية لذبحه من الخلف من دون أن يشعر، أخذ نفسًا عميقًا وخرج مسرعًا باتجاه المار، ولكنه اختفى كأنه لم يكُن. صار في العراء والآن يركضان هما حوله، كان مشوشًا خائفًا يحاول نفض مخاوفه جانبًا حين هجم «كتيمبي» برمحه مزدوج الرأس، بصعوبةٍ تفاداه ودفعه بعيدًا عنه ليعود إلى الظلام، شرر السيفين أضاء المكان، وسليمان يواجه ذلك الشبح، وفي خضم خوفه وتعانق سيفيهما أمسك به، وجذبه إليه ضاربًا رأسه في رأس أبي الدهب، كانت قوية جعلته يتراجع بضع خطوات ثم سقط أرضًا، في تلك اللحظة قفز «كتيمبي» يضرب صدر سليمان، الذي تراجع بخطوات متزنة للوراء متفاديًا السقوط، ولكن الفتى كان سريعًا بما فيه الكفاية ليشرط عضده، أثارت الدماء غضبه فهجم على «كتيمبي» الذي راح يدافع باستماتة حتى كُسر رمحه إلى نصفين، أمام ضربات سليمان المستعد لينهي حياته الآن، ولكن أبا الدهب للمرة الثانية يصيبه في نقطة ضعفه، خر هذه المرة على ركبتيه وقد فقد سيفه من شدة الألم، وصار وجهًا لوجه أمام «كتيمبي» الذي قفز وركل وجهه بقوة، فسقط سليمان في هوة فقدان الوعي، مرت لحظات كان الصمت فيها ملك المكان، نهض «كتيمبي» وقد سحب خنجره من حزامه، واتجه إلى سليمان ناب، جذب رأسه ليظهر عنق الرجل أمامه فأوقفه أبو الدهب قبل أن يجز عنق الفارس:

- لا، لا تفعل.

- لماذا عليَّ الانصياع لك؟

اقترب أبو الدهب بضع خطوات فتابع «كتيمبي» قائلًا:

- على كل حال سيموت عاجلًا أم آجلًا.

فتح سليمان عينيه في تلك اللحظة ممسكًا بذراع «كتيمبي»، جذبه بقوة ليلقيه أرضًا أمامه وانقلب الوضع، السكين على رقبة «كتيمبي» وسليمان يجلس فوقه ناظرًا إلى أبي الدهب الذي ظل صامتًا لبرهة، ثم تحدث بصوتٍ يعرفه سليمان جيدًا على الرغم من مرور السنين:

- لو كنت تريد فعلها لقمت بقطع حلقه منذ اللحظة الأولى لإسقاطك إياه، ولم تفعل. ربما الخوف ما يتحكم بك أو الفضول، ولكن ما أعرفه عنك أنك لا تحب التفاوض ولا تميل للهزيمة، وتحب الحياة أكثر من أي شيء.

مع نهاية كلمته جاءت من خلف سليمان زمجرة شرسة أرعبته، لم يقوَ على الالتفات، ظل جامدًا في مكانه وأصابعه تعتصر قبضة نصله. شعر به يأتي، ظل كبير بعينين شهلاوين مخيفتين وأنياب تقطر زبدًا، ما إن صار إلى جوار صاحبه حتى أفلت سليمان خنجره ورفع يديه مستسلمًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11- برهان

رحلتاهما تشابهتا، هاربان من الموت، أحدهما جاء من الشمال البعيد مطاردًا، ليقطن الغور وحيدًا وبعدها جاء الآخر ليؤنس لياليه الكئيبة، خاض بدوره رحلة لا يعرفها أحد سواه، وتكفل صاحبه بنسج قصص عن ماضيه؛ ماضي الذئب. أنصت لحكاياته على ضوء القمر في العراء وبجوار راكية النار في واحتهما، اعتنيا بعضهما ببعض ولم يجد الملل سبيله إليهما، أسماه «دهب»، اسم ناسب فراءه الذهبي الممسد بالأسود الملكي، اهتم به كأب حنون، يذكر حين بَدَّل بزغب الطفولة الخفيف تلك الوبرة الخشنة، وكيف بدا وكأنه أجرب هزيل. استكشفا عالمهما الجديد معًا، رفيقان وُلدا من جديد في صحراء هو درويشها، لقب لازمه طوال رحلاته إلى غابة الظلال؛ درويش الصحراء ورفيق الذئب، وأبو الدهب. وفي الشمال حيث القرى والكفور أطلقوا أسطورة عنهما: قاطع طريق، عطش للدماء، يقود قطيعًا من الذئاب، أسماء وقصص كلها تبخرت من رأسه حين واجه سليمان، لم يكُن حلمًا بل حقيقة جاءت مثل فيل مندفع دهس واقعه وذكَّره بأشياء ووجوه كانت تلاشت، تحاشى النظر في وجه سليمان وجنوده المكبلين بالأشجار، رجال «كتيمبي» يحصدون الغنائم ويحملونها على ظهور الخيل الخائفة من الذئب الضخم الذي أثار أيضًا قردة البابون المسلسلة بالطرف الآخر من المكان، تحرك بين الأشجار والآجام إلى حافة التل، ظل يحدق في المستنقع الكبير الممتلئ بجثث قتلى كجزر طافية، مع شروق الشمس غمرت المياه كل الوادي، لم يتبقَّ من أرض المعسكر سوى رائحة الدماء. النسور والغربان السوداء تملك السماء ولم ينزل أحد منها ليلتقط نصيبه من الوليمة، ستأتي الضباع وبنات آوى وكل قمام يبحث عن وجبة سهلة، ستبقى على أطراف اليابسة متحينة الفرصة لخوض الوحل. وسط ضجيج القردة وأحاديث المنتصرين رفع دهب رأسه وأطلق عواءً طويلًا أعقبه صمت مطبق مخيف، وكأنه يخبر الغابة أن هناك ملكًا جديدًا، ملكًا اسمه دهب.

بعد الظهيرة نهض متثائبًا، جال ببصره في أرجاء المكان، كانوا يستعدون للرحيل، الأسرى مربوطون في صفين، ورجال «كتيمبي» يحيطون بهم، سينتقلون إلى مكان آخر، نهض وأخذ يشمشم في الأرض ثم توجه إلى إحدى الشجيرات القصيرة ورفع ساقه ليبول، لم يهتم بتلك النظرات المتوترة، الجميع يهابونه، جنود سليمان مرتعبون ورجال «كتيمبي» يحترمونه، سار بينهم متبخترًا رافعًا ذيله فأفسحوا له الطريق، توجه إلى أبيه ووقف إلى جانبه، الأمر الذي جعل «كتيمبي» يوقف حديثه مع أحد رجاله، ظل يتأملهما شاردًا لبرهة ثم تحرك نحوهما من دون أن يكمل حواره، رآه دهب قادمًا فانتصبت أذناه، اقترب بحذر محدثًا أباه:

- يبدو أن ذئبك صار لا يحبني.

داعبت أنامل صاحبه ما بين أذنيه وهو يرد على «كتيمبي» ضاحكًا:

- لو كان يكرهك لما أنقذك من الذبح على يد ذلك الفارس الكبير، إنه متوتر، إنه متوتر فقط من أثر المعركة ورائحة الدماء، لم نعتَد تلك الأمور بعد.

- كيف؟ لقد رأيتك تقاتل ببراعة لا مثيل لها، كمن نبت برحم معركة قاسية. أخذت تقاتل كبيرهم وتقارعه كظله، حركاتكما كانت واحدة، وبدا أنك تعرف كيف تسقطه، لماذا لم تقتله حين حانت لك الفرصة؟ أنت تعرفه، أليس كذلك؟

- ما الداعي لقتله؟ له فائدة عظيمة تتوقف على ما تنوي فعله بالأسرى.

- سننتقل إلى وادٍ صخري قريب يصلح لأن نتحصن به، لن نعود إلى القرية.

- رجالك يعاملونهم بقسوة مفرطة، إنهم بحاجة لطعام وشراب وعناية بالجرحى.

ارتفع صوت «كتيمبي» بحدة:

- هل نأتي لهم بنساء وخمر؟ ولتكُن وليمة ضخمة احتفالًا بقتلهم لأهل التل الدموي، سأكافئهم من أجل «سيرين» و«كونوَا».

- ما زالتا على قيد الحياة.

- من أدراك؟

- «كتيمبي» اجعلنا نحقن الدماء ونتفاوض لتبادل الأسرى، لا ترتكب حماقة.

اقترنت حروف كلمته الأخيرة بزمجرة عميقة، انتصبت شعيرات رأسه في تحفز وعيناه مثبتتان على وجه الشاب الذي ظل جامدًا يحدق فيه بدوره، ثم هز رأسه وتحدث ضاغطًا على أسنانه:

- سأفعل ما أراه صوابًا يا درويش.

ألقى جملته ورحل عن المكان يعمر صدره السخط، ربما علم الذئب بما رتبه، تعجب من نفسه كيف يفكر بهذه الطريقة، إنه مجرد حيوان وجد في نبرتي بعض العصبية فخشي على صاحبه مني، هكذا حدث «كتيمبي» نفسه وهو يعبر مجموعات الجند، تابعه أبو الدهب حتى اختفى من المشهد الكئيب، الجند المسلسلون وسليمان ناب المُهان، حدسه أكد له أن «كتيمبي» ينوي فعل شيء فظيع، حماسة الفتى ورغبته في الانتقام تفوق الحكمة، دهب لا يكذب، يعرف مكنون صدور البشر، يستطيع رؤية الشر والخير في النفوس، فرك قفا دهب بخشونةٍ أحبها فرفع رأسه متمسحًا بذراع أبيه الذي حدثه بنبرته الحانية:

- أين كنت قبل المعركة أيها العجوز؟ اختفيت لساعات وأقلقتني عليك، ليتك تستطيع أن تحكي لي قصتك مع تلك الغابة التي يبدو أنها تهوى شرب الدماء، جئت في وقتك وأنقذتنا جميعًا على ما يبدو، ربما يتراجع «كتيمبي» عما ينوي فعله بسببك.

توقف عن الحديث وأطال النظر بعينَي دهب ثم استطرد:

- نعم، أنا أختنق يا صاحبي. لم يراودني ذلك الشعور منذ زمن، أود البكاء، كنت أظن أن بئر الدمع جفت بعيني، ولكن ها هي تنبض من جديد.

اغرورقت عيناه وأشاح بوجهه حتى لا يلاحظه أحد وأكمل بصوتٍ يختنق:

- أطالب «كتيمبي» بمعاملة حسنة للأسرى، وتطالبني نفسي بجز عنق سليمان ناب.

لعق دمعة انسلت من عين أبيه، فلوث لحيته بلعابه، وأصدر نباحًا خافتًا، فتابع أبو الدهب:

- نعم هو أحدهم. كنت أحسب أني لن أرى وجوههم يومًا، ولكن يبدو أن اللقاء كان محتومًا منذ البداية، هربت من الماضي فسبقني إلى هنا، سليمان كان من اقتاد عائلتي للذبح، ظننت أنه يخشى علينا من الكابوس الذي حل بنا، ما زلت أذكر تفاصيل ذلك اليوم؛ جند السلطان يقتحمون المنزل ويقتلون كل من فيه، قاسم أصلان هو من ذبح أمي وسليمان ناب لم يكتفِ بأن قدَّمنا قربانًا لغازي ابن عمومتي، بل قام بمواجهتي في مبارزة كدت أُقتل فيها وأنقذتني أختي، قتلها ذلك الغادر، خنقها بيديه بينما كان الجند يحولون بيني وبين إنقاذها. زوجتي، وأمي، وأختي، وصغيري الذي لم يتم عامه الثاني، كلهم قتلوا بدم بارد، لم أستطِع فعل شيء لهم، فقط بارزت الجند وقاتلتهم حتى كسر سيفي ونجحت في إصابة وجه غازي، ولم أفعل شيئًا سوى الهرب حين تكالبوا عليَّ، أشعر بالقهر وفي كل ليلة منذ ذلك الوقت تزورني أطياف عائلتي وابني ذلك الملاك الصغير، أصواتهم تعمر رأسي، يطالبونني بالثأر وينعتونني بالمتخاذل، سنوات قضيتها معك كنت خير صديق فيها، كنت أحدثهم بداخلي ليرحل طيفهم عني، ولكني فشلت على الرغم من مرور الأيام والسنوات، أنا لم أعُد ذلك الإنسان القديم، لا أستطيع قتل أحد، لقد فقدت الإحساس بالجبن والخوف وحتى الشجاعة، وما أريده أن أعيش بعيدًا عن البشر. تعرف جيدًا أني حاولت الانتقام، ولكنْ بدلًا من ذلك وجدت نفسي مطاردًا لعامين أحاول النجاة من براثن كلاب الصيد، غازي صار سلطانًا وأنا صرت رجلًا يبحث عن نجاة من دون أمل. من ذا الذي يواجه بطش قطيع من الوحوش؟ أعرف أني قصصت عليك قصتي هذه مرارًا وكنت أقسم كل مرة إنها ستكون الأخيرة، وأقسم أن لو عاد الزمن أو تواجهنا ذات يوم سأقتلهم جميعًا والآن لا أستطيع، لا أستطيع يا دهب.

سليمان يجب أن يبقى حيًّا حتى نبدل به «سيرين» و«كونوَا»، أنا من تسببت في هذا، وقُتل أناس وأُحرقت ديارهم لأنهم يبحثون عنا، لنساعدهم يا فتى، لتبقَ يقظًا ولنفعل الصواب لأجل الأبرياء.

ظل دهب يستمع لأبيه البائس، لم يرَه في هذه الحالة منذ زمن بعيد، الرجل يهذي ويبكي، الذكريات كنقش غائر بحجر صلب، قليلون من يستطيعون محوها والتخلص منها. من تلك الغابة الموحشة فر ذات يوم هاربًا، طارده الصيادون بعد أن قتلوا نصف قطيعه، سلخوهم من أجل الفراء، وكل ما يذكره أن المصابين من بني جلدته فتك بهم السم في الوجار، كان ما زال ابن ثلاثة أشهر، رآهم يموتون تباعًا، تنزف أنوفهم وترتجف أجسادهم، البشر أشد مخلوقات الكون قسوة، يدمرون ويقتلون من دون رادع، ولكن أباه ليس مثلهم، يستطيع أن يبصر الحقيقة في حديثه الصادق النابع من قلبه النقي، رباه وأخذ على عاتقه إبقاءه حيًّا، تشاركا كقطيع صغير لا ينغص حياتهما أحد. عواؤهما على التلال في الليل، ولعبهما ببركة المياه، الصيد والحياة الهادئة انتهت بمجرد أن قتل البشر بعضهم بعضًا بالصحراء، والدماء حين تتدفق وتجري لا تعود إلى مجراها، ولكن اليوم ما رآه في أعين هؤلاء البشر هو الخوف والخشية منه، وليخافوا منه أكثر، وجب عليه التخلص من نقطة ضعفه، لذلك تركهم في اليوم الذي سبق المعركة واتجه إلى حيث يهزم خوفه؛ إلى وجاره حيث قطيعه القديم.

استطاع أن يصل عبر دروب الذاكرة وشبح الرائحة إلى الوجار الصخري لسلالته، الرائحة كريهة والطحالب اللزجة تنتشر على الجدران والزوايا، المكان يعج بزواحف وحشرات جعلت من جماجم أهله جحورًا لها، لم يقترفوا شيئًا سوى أنهم أمة مختلفة عن البشر، والآن لم يبقَ منهم سوى كومة عظام بقعر كهف سحيق، سمع «كتيمبي» يقول لوالده إن الذئاب رحلت للجبال الجنوبية لوفرة الطرائد. ربما ما زال هناك غيره، بعد أن ينتهي كل هذا سيأخذ والده إلى هناك، ليجدا كهفًا يصلح ليكون بيتًا جديدًا، ولعله يجد خليلة وقطيعًا ينضمان إليه، ولكن هل سيقبلون بهما كما قبل البشر وجوده هنا؟ عليه أن يبقى إلى جوار والده ويحميه، إنه سيد المكان، هكذا عرف من نظرات أعينهم، يستطيع أن يشم رائحة الخوف في أجسادهم المتعرقة، كل ما عليه أن يكون حذرًا ولا يأمن لأحد سوى أبيه: الأمير برهان بن نصر الدين الأزرق، أو كما يسميه بنو البشر: «أبو الدهب».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجو الحار لم يمنع هطول المطر الغزير، أجواء غريبة لم يعتَدها سليمان ناب ورجاله الأسرى، لم يتوقف المسير لساعة وأكثر، محاطون برجال الرمح الفضي يغلفهم الصمت والترقب، وخوف من قادم يجهلونه، هؤلاء الهمج الرعاع فتكوا بجيش مدرب جيدًا، ولكنه عانى في الصحراء وفقد ثلث رجاله في جبل الإفريز، التفكير في عودتهم لا يشكل فارقًا الآن، فقريبًا جميعهم

سيكونون في طي النسيان، من لم يمُت في الجبل الملعون مات في المستنقع، ومن بقي ستُقام لهم الخوازيق لتأكل الطير من رؤوسهم أحياء، هذا أكثر تصور عصف بذهن سليمان الذي كان يبحث بعينيه طوال الطريق عن ذلك المحارب الذي صرعه، صاحب الذئب الذي فطن لنقطة ضعفه، غمغم محدثًا نفسه: «يستحيل أن يكون هو». آخر ما يذكره أنهم وجدوا جثته هو وحصانه على مشارف خندق السراب، وبعدها توقفت فرق المطاردة، لم يعُد للأمير الشاب وجود ولا ذكر بين أهل الأرض، أكثر من تسع سنوات مرت ولكن ذلك المقاتل استطاع أن يحيي ذكراه مرة أخرى.

برهان أحد أمراء القصر السلطاني، تربى معه وعاشا فترة شبابهما فارسين لا يُشق لهما غبار، درَّبهما قاسم أصلان واعتنى بهما إلى جوار غازي وبقية أمراء العائلة، كان أكثرهم نبلًا ورقيًّا وشجاعة حتى إنه ظفر بالزواج من ابنة السلطان، الأمر الذي جعل غازي يشعر بالغيرة إلى جانب ذلك الإحساس الدائم بتفوق أقرانه عليه، من حيث النسب الرفيع ومهارتهم الفائقة في القتال، بركان خامد انتظر كثيرًا لحظة الانفجار، في البداية سمم السلطان وولاة العهد الصغار والنساء كافة، وبطريقةٍ ما استطاع أن يجذب قاسم أصلان إلى جانبه، الجنون وحده من يقود الرجل لفعل تلك الأمور الشنيعة، ولكن للعرش زهوة وللتاج شهوة تستحقان أن يقتل من أجلهما جميع أفراد عائلته. لم يَسلم منه أحد، الرضع والنساء وكل الذكور، الرحمة شيء لا معنى له بقاموسه، جاء بالموت والدمار، جُل ما أراده أن يكون السلطان الأعظم ومن نسله تأتي سلالة تحكم لقرون. لم يجد سليمان بُدًّا من الانصياع لغازي الذي جمع كل القادة حوله، والمعارضة لأوامر السلطان الجديد مصيرها معلوم سابقًا، لم يشعر بالندم من جراء كل فعل تحتم عليه فعله، وكان منوطًا به استدراجُ الأمير الأخير برهان وزوجته التي تعيش كابوس قتل جُل أهلها، جاء به إلى بيته لحمايته وتدبير أمر رحيلهما عن العاصمة ومن ثم وشى للقتلة. يداه لوثتا بدماء الأميرة نور وابنها الذي لم يتم عامه الثاني، الكثير من الذهب والفضة قادر على أن ينسيه ما اقترفت يداه، وعلى المملكة أن تكون قوية وغازي هو أهل لها، هو الشر المطلق والصمت المطبق على صدور الخاصة والعامة، هو السلطان المعظم اسمه، الجنة هي أن تكون أحد المقربين منه في ليالي الطرب والرقص وأثداء الجواري والمحظيات المُسكرات، كل شيء صار على ما يرام، ونسي الجميع ما حل بالعائلة المغدورة، وفي خضم معاناة العامة تناسوا حكاية الأمير برهان الذي حاول الهرب وقُتل على مشارف الصحراء بعد عامين من المطاردة، بالتأكيد ليس هو. كان هائمًا في مستنقع ذكرياته حين لمحه يحوم بالقرب منه، أي لعنة أصابت ذلك الذئب ليصبح بتلك الضخامة، إنه يقارب حجم بقرة فتية، ذكره بتلك الحادثة مع كلب الصيد الذي مُنح بسببه لقب ناب الكلب، لا يحب الكلاب والآن عليه مواجهة الذئاب، ارتجفت أرجل الأسرى وسرت بينهم همهمات متوترة، صاح بهم رجال «كتيمبي» بلغتهم غير

المفهومة لحثهم على المسير، وأثناء ذلك برز الدرويش من بين الآجام، التقت أعينهما لوهلة ثم مضى بعيدًا يتبعه ذئبه.

كهف صخري شاسع ضم كل الأسرى، أُجلسوا وظهورهم إلى الحائط وأمامهم انتشر الحراس الممسكون بسلاسل قردة البابون، مضى بعض الوقت حتى جاء «كتيمبي» وتحدث إلى أحد رجاله، وبعدها كان سليمان يُقاد مكبلًا إلى عمق الكهف، مشعل وحيد ورجلان غليظا الهيئة، لا شيء يعمر المكان سوى صوت أقدامهم وصدى صوت لقطرات متساقطة من السقف، أجلساه على ركبتيه ووضعا المشعل في إحدى الزوايا ورحلا. أمضى بعض الوقت منكس الرأس مغمض العينين، حتى حدثه صوت هادئ عميق:

- لا شيء أسوأ من الوحدة، أن تشعر بأن العالم تخلى عنك، وأن لا حول لك ولا قوة، تجوب الأرض وأنت تعلم بكونك هدفًا للموت، وحتى يأتي، عليك أن تقاوم وتجد مبررًا لكل ما اقترفته يداك، أن تتنصل من المسؤولية تجاه دماء سالت بفعلك، وربما تجد وسيلة لتدافع بها عن نفسك وتبرئ ذاتك من الكذب والخيانة ودنس علق بك منذ سنين، وتجوب ثنايا عقلك أسئلة عدة لا حصر لها، وكلما تجاوزت سؤالًا يصبح الذي يليه أصعب، ويبقى سؤال واحد: هل أنت راضٍ عما فعلته بحياتك القصيرة، هل سيفتقدك أحد يا سليمان؟

تلفت حوله ليرى محدثه، لم يكُن هناك أحد فصرخ:

- من أنت بحق الجحيم؟

دام الصمت لفترة وبدأ سليمان في التعرق، الخوف ينال منه وصاحب الصوت الهادئ يقول:

- أنت هنا لتجيب، لا لتسأل. تلك هي القواعد التي يجب أن ترضخ لها يا أمير الجبل الأزرق. إلى أين أخذتم الأسرى؟

- عن أي أسرى تتحدث يا رجل؟ لقد عانيت أنا ورجالي خلال تلك الرحلة الملعونة، قومك من هاجمونا وغدروا بنا مرارًا، وجئنا نستكشف ونحمي حدود سلطنتنا.

- حدود سلطنتكم تنتهي عند خندق السراب.

- هذا قبل أن تهاجموا القوافل والعزل من الناس، أنتم قتلة متوحشون سرقتم أموال السلطان ونهبتم قافلته، وبعدها قتلتم الأمير راجي، من بدأ الغدر؟ من الذي سفك الدماء أولًا؟ لا يهمني إن صرت طعامًا لذئابك وحيواناتك المتوحشة، ولكن لن تحصل مني على كلمة أخرى.

- الغادر يتحدث عن الغدر، يا لها من مفارقة عجيبة أن تتحدث وكأنك فارس نبيل. عجبًا يا رجل، أتتَّهِم الحيوانات بالوحشية والغدر وقد فعلت أنت

وزمرتك أكثر من ذلك؟

كانت نبرة الصوت هذه المرة أكثر عمقًا وبها لمحة من تهكم لرجلٍ بدا وكأنه يعرفه جيدًا، غمغم سليمان بضيق:

- من أنت؟

برز أبو الدهب من ثنايا الظلال واقترب بخطوات بطيئة منه:

- أنا الموت الذي منه تفر.

ساد الصمت لبرهة قبل أن يضج الكهف بضحكات سليمان المجلجلة، وبعد أن توقف عن الضحك رفع رأسه ونظر إلى وجه آسره متحديًا بنبرة تحمل الكثير من البغض:

- كنت أعرف أنه أنت، ولكن دعني أوضح لك أمرًا، تلك الجملة الأخيرة مثيرة للضحك حقًّا، ولا تليق بمن هرب وترك أهله يُذبحون، لا تليق أبدًا بالجبناء يا برهان، يا ابن القاضي نصر الدين.

كاد أن يكمل كلماته ولكن عينين حمراوين متقدتين انبثقتا في الظلام، وزمجرة مخيفة راحت تسري بعروقه، وقف دهب إلى جوار أبيه الذي مال للأمام قليلًا وحدث سليمان بهدوء لا يقطعه سوى سقوط قطرات الماء من السقف:

- هل ابتلعت لسانك، أم أنك ما زلت تخشى كل ذي ناب يا ناب الكلب؟ أتعرف؟ نحن ظلمنا ذلك الكلب المسكين حين منحناك اسمه، فالكلاب والذئاب وجميع الحيوانات تعي معنى الوفاء ولا تقتل بني جنسها، حتى وإن كان غريبًا عن قطيعها.

نقل سليمان بصره بين برهان وذئبه قبل أن يتمتم:

- لك الحق أن تقول هذا أمام رجل مُكبل، أتعرف؟ لم أندم يومًا على ما فعلته بك، قصص العامة عن الأمير برهان الذي سيعود يومًا ما للانتقام كانت تثير ضحكي دومًا، واسمك ينمي بداخلي ذلك الشعور بالاشمئزاز، رجل تُقتل زوجته أمام عينيه ويذبح رضيعه فيفر هاربًا، أي عار تعيش به يا هذا؟ كيف لم تقتل نفسك طوال هذه المدة؟ أتدري؟ تستحق ما فعله بك السلطان غازي، كنت المفتاح الذي وهبني حياة رغدة.

قاطعه برهان بغلظة:

- وسأكون أيضًا الباب الذي سيرسلك إلى الجحيم.

- لو أنك تريد قتلي لفعلت منذ أسقطتني، ولكنك ما زلت جبانًا كسابق عهدك، سيأتي جيش السلطان بقيادة المظفر قاسم أصلان ليبحث عني،

وسيذيقك أنت وقومك الهمجيين معنى العذاب الحقيقي، سنسبي نساءكم ونحرق تلك القرى النتنة عن بكرة أبيها.

- يؤسفني أن أقول لك؛ لن يأتي أحد لنجدتك. رحل الجزء الآخر من جيشكم بعد أن قتل أهل التل الدموي وأخذ معه الكثير من الأسرى. تركوك كما تركت رجالك في جبال الإفريز ولم تذهب للبحث عنهم، الخذلان يقابَل بمثله، ككل شيء في هذا العالم يقابل بالمثل.

- اقتلني إذن، إن كان هذا سيشفي صدرك من البغض.

- سنوات عمري التي قضيتها بالصحراء علمتني الكثير، من يطلب الموت لا يحصل عليه. أنت حي لسبب آخر، أنت تتنفس لأني أريد ذلك، فأرواح الأسرى وحياتهم أهم بكثير منك ومن جيشك وسلطانك الغادر، ولو أردت موتك فما عليَّ سوى أن آمر دهب وسيفعل.

مع سماعه لاسمه حرك ذيله في الهواء وانتصبت أذناه واقترب نحو سليمان مزمجرًا كاشفًا أنيابه المدببة الكبيرة، وبرهان يتابع:

- لا تستعجل يا فارس الجبل الأزرق، لا أحد يفر من الموت.

رحل برهان وذئبه والضوء، تركوه يغرق في الظلام والحيرة، كيف نجا برهان كل هذا الوقت، لم يتخيل يومًا أن يكون هو الذئب الذي يهاجم رجال السلطان، لم يتوقع أن يكون حيًّا، كان قد نسيه، بدا من حواره معه أنه يريد مبادلة الأسرى مع سعد، ذلك الأحمق الذي يظن نفسه فارسًا، ارتكب مجزرة كبيرة على ما يبدو وأثار غضب القوم، لن يعود ذلك الوغد لإنقاذه، لا أحد يستطيع أن يخرجه من ذلك المأزق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلوة لم يحظَ بها سليمان ناب منذ أمد بعيد، السكون والظلام احتضناه، مكبل مكوم على جانبه يتقلب بين الحين والآخر كدودة فرحة بثرى رطب، يذكر نفسه بأنه ما زال حيًّا، خاض رحلة تفكر بغابات أفكاره، كل شيء جميل تركه في العاصمة، حياته بأكملها على المحك. سيقولون عليه شهيدًا وبطلًا لفترة وجيزة وسرعان ما سينسى الجميع ذكره، وربما تتزوج امرأته برجل آخر، سيرثه أولاد صغار لا يقوون على مجابهة المكائد بالقصر، وسيتولى رجل آخر مهامه كقائد لفرسان الجبل الأزرق، وربما يكون ذلك الشاب المغرور سعد، لا يعلم لماذا يأتي على باله دومًا؟ اقترف ذلك الغبي فعلة حمقاء، سأدفع ثمنها.

توقف عن حديثه مع نفسه وأرهف السمع، هناك أحد قادم، وهج الضوء ينسل على الجدران، الظلال تنقشع ويظهر رجل يحمل مشعلًا وبيده الأخرى قربة صغيرة، وضع النار جانبًا وجاء بالقربة وسكب منها بضع قطرات على

وجه سليمان وأخذ يحدثه بلغة لم يفهمها، بدا أن الرجل يَسب أو يتوعد، كان غاضبًا، ألقى ما في يده بعيدًا ثم اقترب شاهرًا سكينًا، بصق عليه ثم سحبه من فخذه وقلبه مرارًا حتى أجلسه إلى الحائط، كان سليمان مستغربًا من الفعل، ظن أن حصة التعذيب قد آن أوانها، حرك الرجل السكين على صدره نزولًا إلى ما بين فخذه، ضاغطًا بقوةٍ آلمت سليمان الذي لم يجد سوى رأسه يدافع به عن نفسه، ارتطمت جبهته بوجه الرجل، جاءت كركلة من قدم حصان حربي، دهست أنف الجندي وتراجع متألمًا متفاجئًا، تعثر وسقط ليرتطم رأسه مرة أخرى بصخرة حادة، أما سليمان فكان يشعر بأن عقله يرتج داخل جمجمته، آلمته رقبته أيضًا، ما جعله يفيق بسرعة هو صوت رأس على الصخر. السكين قريب وانسلت الروح هاربة من فجوة برأس الحارس.

لا شيء مستحيلًا ما دمنا نتنفس، بصعوبة بالغة وبعد مبارزة شرسة مع التوتر والخوف والإسراع استطاع أن يحرر نفسه، انحنى وتفحص الرجل بحذر، كان ميتًا ورأسه يتوسط بركة دماء، كل ما عليه الآن هو الخروج من ذلك الكهف، عدل عن فكرة تحرير رجاله، حراس ينتشرون بقردتهم اللعينة، ولا أثر لبرهان وذئبه، بقي مستترًا في إحدى الزوايا يراقب المكان، هدوء عجيب وشمس المغيب تضيء بحمرتها المدخل الصخري، تسلل بصعوبة، عليه الخروج من ذلك المكان، كان محبطًا، ليته استطاع أخذ ملابس الجندي، العودة إلى ذلك المكان مستحيلة. وفجأة خلا مدخل الكهف من الجند، لا يعلم أين ذهبوا، تشتت ذهنه بين الخوف والتردد ثم حسم أمره، إنها فرصة أخيرة للحياة التي عليه أن يقاتل من أجلها.

لم يكَد يخطو خارج الكهف حتى سمع الحراس يصيحون، اكتشفوا أمر صاحبهم القتيل، كان يركض حين قفز على ظهره شيء، دفعة قوية كانت كافية ليسقط على وجهه، وما زال ذلك الشيء يتشبث به صارخًا، أخذ يتقلب حتى تخلص منه، تراجع بضع خطوات وهو يجول بعينيه إلى أين ذهبت القردة، حتى وجدها تبرز من بين الأشجار، الكثير من القردة المستعدة للانقضاض، دائرة كبيرة تحيط به، ورجال «كتيمبي» يفسحون المجال لزعيمهم الذي رمقه بازدراء محدثًا إياه:

- من أجل قتلك رجالنا ومحاولة هربك، ولأجل «ساندو» وأهل التل الدموي، حكم عليك بالقتل.

فقط أشار «كتيمبي» بيده فاتحًا قبضته مادًّا ذراعه، وفكت سلاسل القردة الغاضبة، قفزت جميعها نحو هدف واحد، مخالب رفيعة تقطع وأنياب تنهش، ووجوه ملطخة بالدماء، تكالبت عليه فمزق أسرعها وصولًا إليه حنجرته أولًا، سقط وتكدست فوقه تتصارع على اللحم الطازج، و«كتيمبي» ورجاله يشاهدون بتشفٍّ الوليمة البشعة. كانت القردة تجذب أحشاءه وتركض كل وراء الآخر للظفر بلحم سليمان الطازج، حين قفز دهب إلى الساحة

مزمجرًا، ركض مهاجمًا القردة، قبضت أنيابه على أحدها وألقاه بعيدًا، وخدش آخر فر من براثنه، حالة هرج وصيحات غاضبة من القردة التي رجعت إما إلى حراسها أو فوق الأشجار، والذئب يقف بتحدٍّ ناظرًا إلى «كتيمبي»، بينما أبوه يشق الصفوف ممسكًا سيفه، دام الصمت لبعض الوقت قبل أن يحدثهم بصوت جَهْوري:

- ما هكذا يجب أن تُدار الأمور، يجب ألا تسفك الدماء إن أردنا أن نسترد أسرانا، ادفنوا الموتى أو احرقوهم لكن لا تجعلوهم طعامًا، تخلصوا من الوحشية والكره والبغض والتشفي في قتلى أعدائكم، احترموا الموت فلكلٍّ ساعته.

لم يعجب «كتيمبي» الأمر، فنزل إلى حيث يقف الدرويش، تابعه الرجال جميعًا منتظرين ما سيفعله زعيمهم، أطال النظر بوجه الرجل ثم استدار وبصق على أشلاء سليمان وقال بنبرةٍ لم ترُق لدهب وأبيه:

- ما حدث وما يحدث أنت وذئبك سبب فيه، هذه ليست أرضك يا درويش ونحن لسنا قومك، لا تأبه بما نفعله وما سنفعله، ولا تظن أن بإمكانك إعطاء الأوامر أو حتى أن تغمرنا بمواعظك وحكمك. اذهب، ارحل من هنا، عد إلى كهفك بتلك الصحراء اللعينة، لسنا بحاجة إليكما، سنكيل لأعدائنا بالكيل نفسه، كل قبائل غابة الظلال ستذهب للحرب معنا، سيرى قومك أكبر جيش لغابة الظلال، ولن يجد المغتصبون مكانًا بالأرض يتوارون فيه عن سهامنا، مدن ستُمحى حتى نسترد أهل التل الدموي.

- الغضب يتحكم بك يا «كتيمبي».

- بل الانتقام لأجل الحب يا درويش. سيرافقك رجالي إلى خارج الغابة، لا تعُد مجددًا، وإلا سيكون ذو الفراء إلى جانب رأسك مقدمين كقرابين للرب طمعًا في النصر على قومك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غادرا المكان برفقة أربعة من رجال «كتيمبي»، اثنان يتقدمانهما ليستطلعا الطريق، الآخران خلفهما على مسافة كافية لئلا يغضب الذئب، أحس بغصة وحنق يخنقانه، وتضاربت مشاعره تجاه «كتيمبي» الذي طردهما، عرفه منذ زمن، كان صغيرًا مفعمًا بالفضول والحب والأمل، قصة حبه لـ«سيرين» كانت رائعة غزيرة بالتفاصيل، كيف تقابلا وانجذب كل منهما للآخر على الرغم من الخلاف بين قبيلتيهما، سعيه لأجل السلام والزواج ممن اختارها قلبه، حتى تحققت أمنيته، وما لبث أن تحولت الأحلام إلى كابوس مفزع، بعد أشهر تخطف حبيبته «سيرين» ويُقتل أبوها ويمثل بجثة «ساندو»، بل وتخطف أخته «كونوَا» وعدد كبير من أهل التل الدموي، ربما كان محقًّا في

قتله لسليمان، كان ذا قيمة للتفاوض، ما وجب عليه قتله بهذه البشاعة. غمغم محدثًا دهب الماشي إلى جواره:

- ولكنه يستحق ذلك، لقد فعل «كتيمبي» ما لم أستطِع فعله.

تلك معركتي المؤجلة من زمن سحيق، وحين جاءت تدق بابي صرت أبحث عن مهرب وكأن الهرب صار جزءًا مني، كنت قد دفنت كل ذكرى من الماضي، وظننت أن غازي تخلص منهم منذ زمن، ولكن الخونة يساندون بعضهم بعضًا، سألت نفسي كثيرًا هل يأتمن الخونة بعضهم، هل يثق كل منهم في الآخر؟ غازي وقاسم وسليمان وغيرهم، لماذا يضعهم القدر بطريقي الآن؟ جُل ما أردته العيش بسلام أنا وأنت حتى انضم لنا بياض. اللعنة! بياض وصاحبه قد يكون مصيرهما نفس مصير سليمان، لم يفعلا شيئًا، لا أعلم هل تتوجب علينا العودة إلى «كتيمبي» لنطلب منه أن يطلق سراحهما، أم أن علينا فعل شيء آخر يا دهب؟

اختفى الدرويش فجأة هو وذئبه، تبخرا، صارا عدمًا، لم يعُد لهما أثر بالمكان، فقط الأغصان تتهامس مع الريح، بحذر تحرك الأربعة بحثًا عنهما وسط بحر حشائش عالية من حيرة وخوف، تاهوا في دوامة من البحث عن شعرة في بحيرة متموج سطحها، سيدوم تفتيشهم لمدة قبل أن ييأسوا ويمضوا عائدين لـ«كتيمبي» ليخبروه بتمام مهمتهم، البشر يكذبون حين يضطرون لفعل ذلك، لا أحد صادقًا في هذا العالم سوى محب يريد الظفر بمحبوبته، سيسلك كل الدروب لأجلها، يخوض معاركه مع كل عائق.

««كتيمبي» يجب أن يفيق قبل أن يهلك، هذا ما يجب فعله»، سار يتقدمه دهب يسبر أغوار الظلام، بدا أن الذئب لديه قبس من وهج شحيح، كان يعرف الطريق مع أنه لم يلبث هناك كثيرًا، كيف لا تحكم الحيوانات عالمنا؟ دهب يفهمه حقًّا وتكلما كثيرًا، تخاطرا وحفظ كل منهما طباع الآخر، تشاركا كل شيء إلا إن دهب كان يخرج كثيرًا وحده يجوب الصحراء، يصطاد ويحمي حماه من أي حيوان مارق، كان ما زال جروًا حين فتك بضبع هائم، أنقذ أباه وأصيب بعضات شُفي منها بعد فترة وجيزة، كل شيء تبدل الآن، لم يعودا في الوجار، بل بين الكثير من البشر الذين أينما حلوا وجدت الدماء وولائم للجوارح، هل لو كان هناك ذئاب بالجنوب كما قال «كتيمبي» سيتركه دهب ويرحل؟ هل سيأتي ذلك اليوم الذي يفترقان فيه؟ كانت المرة الأولى التي يفكر بها برهان بهذه الطريقة، حدث ذئبه هامسًا:

- ماذا لو مت بسهم طائش في معركة أو على فراشي نائمًا، وربما بلدغة من حشرة سامة، هل ستدفنني أم ستجلس إلى جواري حتى تفارق الحياة؟ نحن البشر ندفن موتانا كما تعلم وشاهدتني بما يكفي لتتعلم، لهذا لم أتقبل موت سليمان بهذه الطريقة على الرغم مما فعله بعائلتي، دفن غازي كل أفراد العائلة بالجبانة الملكية، هل ستذهب معي إلى المدينة الزرقاء يومًا إذا

اقتضى الأمر ذلك؟ لا أعرف يا صاحبي هل عليَّ أن أتبع ذلك الشعور الذي بدأ ينمو بداخلي؟ حكيت لك عنها كثيرًا ولم أسألك هل تود زيارتها. لم أستطِع كرهها يومًا على الرغم من الذاكرة السيئة، تبقى هناك لحظات شجن وحنين إلى ماضٍ لن يعود، لا شأن للأماكن بمواقف الخذلان ويجب ألا نكره مكانًا لأننا عشنا فيه لحظات مريرة، في فترة ما ظننت أني أستطيع تغيير كل شيء وحدي، واعتقدت أن بإمكاني البدء من جديد على الرغم من جراح الزمن، ولكن أتدري؟ كنت مخطئًا، البشر بحاجة بعضهم إلى بعض، وإلا لماذا نتخذ طريقنا هذا؟

قرية الرمح الفضي تغط في السكون والظلام، بدت كأطلال خاوية من زمن سحيق لم يمسها الضوء، نقيق ضفدع تائه قطع الصمت، أخذ يركض قافزًا حتى ألقى بجسده في البحيرة المعتمة، غطس لبعض الوقت قبل أن يُخرج عينيه البارزتين فوق سطح الماء مراقبًا ما يحدث، كان هاربًا من مجموعة رجال حاملي المشاعل، خشي أن تدهسه أقدامهم أو يكون مجرد وعاء يُسلب منه السم كأقرانه، حثوا الخطى وصفحة البحيرة تعكس ضوء مشاعلهم، لم يلبثوا أن توقفوا أمام بيت الزعيم وانسل أحدهم مهرولًا إلى الداخل.

وقف «كتيمبي» ينقل بصره بين والده والدرويش والذئب، الأول يجلس على عرشه الخشبي ودهب وصاحبه يقفان على مقربة منه، دام الصمت لبرهة قبل أن يقطعه «كتيمبي» محدثًا برهان:

- ألم أخبرك ألا تعود مجددًا؟

- «كتيمبي» إن الدرويش في ضيافتي، كيف تجرؤ على محادثته بهذه الطريقة أمامي؟

- هذا الرجل هو سبب كل ما نحن فيه الآن يا أبتِ.

- نعم هو من أنقذك ذات يوم قبل أن يفتك بك الدب الأشهب، أهكذا ترد له صنيعه؟ كان عليه أن يتركك ليلوك الوحش لحمك بين أنيابه، لقد عهدنا للرجل بالأمان ولم نرَ منه إلا الخير.

- لقد جاءوا في أثره. رجالنا وأهل التل الدموي قتلوا وخطفت «كونوَا» و«سيرين»، لأنهم يبحثون عنه. هذا الرجل يجب أن يرحل، لقد دافع عن قاتل ولعله من فك وثاقه ليقتل رجلنا ويهرب، يبدو أنه لم يخبرك يا حارس الرمح...

أوقفه أبوه عن استكمال حديثه بإشارة من يده، نهض وتوجه إليه:

- من الجيد أنك لم تنسَ أنني ما زلت حارس الرمح الفضي، وأني من يتخذ قرار الحكم على شخص ما وإدانته، قص عليَّ الدرويش الحكاية منذ البداية

وحتى اللحظة التي طردته فيها، كان من الممكن أن يقتل الرجال الذين أوكلتهم بحراسته، كان من السهل أن يتسلل إلى منزلي ويقتلني بعد أن يفك أسر رفيقيه، ولكنه لم يفعل، لقد خذلتني يا «كتيمبي».

- هل تُسمي انتصاري على هؤلاء الأوغاد خذلانًا؟ تلك المعركة التي سيتذكرها كل أبناء غابة الظلال حتى أبد الدهر تراها خذلانًا؟

- لا تخلط الأمور بعضها ببعض يا فتى، الجميع فرحون لانتصارك، وأفتخر بكونك ولدي المنتصر يا «كتيمبي»، انتصرنا في معركة ستخلد والآن علينا ترتيب أمورنا والتفكير جيدًا في الخطوة التالية، ليس كل المعارك تخاض بالسيف والدرع.

- أبي، «كونوَا» و«سيرين» أسيرتان لديهم.

قبض الرجل على كتف ابنه الفتي ونظر في عينيه:

- هل تظن أنني سأترك ابنتيَّ؟! هل تظن أنك وحدك الممتلئ بالبغض والغضب من هؤلاء القوم؟ اسمع يا بني، إن كان هناك سبيل لإنقاذ أهلنا فبالتأكيد الدرويش يعرفه جيدًا، الرجل يعرف الصحراء ودروبها، سيذهب هو ورفيقاه إلى تلك المدينة خلف خندق السراب، سيفاوضون عدونا على استعادة كل الأسرى مقابل أسراهم.

- هكذا الأمر إذن؟ ألن نقارعهم ونخوض في أرضهم كما فعلوا ودنسوا غابتنا؟

- لا تقاطعني وانتظر حتى أكمل حديثي. لقد أرسلت بالفعل إلى جُل قبائل غابة الظلال، سنحشد جيشًا لا قبل لهم به، وإن رفضوا السلام سيكون عليهم مواجهة غضبنا، أليس كذلك يا درويش؟

أومأ برهان برأسه وعيناه لا تفارقان نظرات «كتيمبي» الغاضب، لم يتحدثا بل خرج هو ودهب إلى حيث محبس بياض، فُتح الباب ليغمر وهج المشاعل وجه الأسيرين، ظنا أن لحظة الإعدام قد حانت، ولكن وجه أبي الدهب المبتسم وابنه كانا كافيين ليعلما أن ساعتهما لم تحن بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12- أغنية أخيرة

هرولت القافلة الصغيرة فوق كثبان ذهبية ناعمة، جملان عظيمان يتقدمهما جواد برق جامح، منحت شمس الصبيحة لونه الأسود بريقًا لامعًا، على صهوته كان الدرويش أبو الذهب الذي يعود إلى صحرائه ساحبًا خلفه جبالًا من الهموم، كما جاء لها أول مرة، اكتفى بالصمت وتأمل خطوات دهب الماشي على مسافة بعيدة من الركب الذي ازداد شخصًا آخر؛ سلّام الذي لم يتوقف عن الحديث والغناء وفيض من أسئلةٍ لا نهاية لها، يبدو أن دهب ألف وجوده بسرعة، لعل أغنياته وكلماته العذبة تثير شيئًا في نفس الذئب، يسير أمامهم على مسافة بعيدة ليؤمِّن الطريق، كان يعود بين الحين والآخر مقتربًا منه يتشمم الهواء، ثم يتبادل حديثًا صامتًا مع أبيه ويركض مبتعدًا، قبل المغيب تجلت الهضبة في الأفق، مملكته التي افتقد كل زاوية بها، أحس بهَمٍّ جديد يثقل كاهله، لن يلبث طويلًا في المكان، عليه الرحيل مجددًا، وكل شيء كان مرهونًا بالسرعة، لذا لكز جواد برقه ليضرب الأرض من تحته بقوة قبل أن ينطلق، تعجب صاحباه من فعلته فما كان منهما إلا أن حثَّا جمليهما على الإسراع.

بيته كما هو لم يمسسه أحد، بدا وكأنه يعد الأغصان، يتحسس الجذوع ويجوب المغارة يتفحص كل شبر منها، مع أنه لم يمضِ الكثير من الوقت بعيدًا عن المكان، تجول دهب في الأرجاء يتشمم الشجيرات ويتقلب على الأرض الترابية، ثم انشغل بنثر بوله في الزوايا، اختفى بين الشجيرات لبرهة ليظهر مرتقيًا صخرة بارزة وأطلق عواءً مرحًا رددته الجدران الصخرية، هذا وجاره وتلك أرضه، لم يلبث أن توجه إلى حيث يقف أبوه على حافة البركة، انحنى ولعق صفحة الماء، راقبهما سلّام متعجبًا، الأمر غريب حقًّا، المكان جيد ولكن كيف يعيش الرجل وذئبه كل هذه الفترة هنا وحدهما؟ هل يعقل أن نعيش من دون أناس حولنا نحدثهم ويحدثوننا؟ لا أحد يطيق الوحدة حتى لو مجبرًا على ذلك، لم يكُن سلّام مقتنعًا بتلك القصة عن أبي الذهب، أخذه فضوله للسؤال عن قصة الرجل قبل أن يأتي هنا، لم يُجِبه بياض، لو كان يعرف لم يكُن ليبخل بالكلام. ظل برهان يطالع انعكاس صورتيهما على سطح البركة المتموج، رفع دهب وجهه وتطلع إليه بعد أن ارتوى، ليتهما لم يخرجا من هذا المكان قَطّ، لم تكُن لتحدث كل تلك الأمور، والآن صار كل شيء منوطًا بمدى قدرته على مجابهة المستحيل، تحسس قبيعة سيف سليمان ناب وحروف اسمه المنقوشة على النصل المصقول سائلًا نفسه؛ كيف للمهزوم أن يطالب بأسراه؟ سيكون عليه قبول كل الشروط ويتحمل تعنت ذلك الحكمدار وقادته، والآثار التي تبعها تقود إلى طريق الوادي القديم المتجه إلى كَفر البردقوش، لا يدري ما عليه فعله حقًّا، أيذهب برفقة ذئبه

إلى موت محقق أم يعود بما خزنه من غنائم على مر شهور إلى أهل غابة الظلال؟ كل شيء انقلب رأسًا على عقب، الآن عليه أن يخوض حربًا جديدة إلى جانب حروبه القديمة، ماذا لو علم السلطان وحكمداره بمقتل سليمان، ولم يجد هو سبيل العودة من الكَفر؟ سيكون الموت أفضل من العودة خائب اليدين، رفيقاه قد يكونان عائقًا أيضًا، وضع نفسه في ذلك المأزق لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. كل ما حدث بسببه، هكذا ظل يردد في عقله، أفاق من الشرود على صوت سلَّام الذي حدَّث بياض بصوت مرتفع:

- ماذا سنفعل الآن؟

لم يُجِبه بياض، بل نقل بصره إلى برهان، تأملهما صامتًا قبل أن يقول:

- نحن في موقف لا يُحسد عليه أحد، من الجنوب قبائل غابة الظلال المتعطشة للانتقام واسترداد أسراها، وفي الشمال صاحبكما المعتوه القاتل وجيش السلطان، الوقت يداهمنا وكل ما علينا هو التفكير جيدًا في الخطوة التالية حتى لا نكون قتلى من دون جدوى بين الطرفين، وكل ما أعرفه أننا في لحظةٍ ما سنتوجه إلى كَفر البردقوش وحدنا، أو مع جيش غابة الظلال إذا اضطررنا.

بعفوية حزينة قال سلَّام:

- كيف سأعود للكَفر، إن رأى سعد وجهي سيقتلني ويقتل من عفا عن رقبتي.

بدا الضيق على وجه بياض وهو يتأمل الرعب على وجه صاحبه الذي أخذ يستطرد:

- لا أريد الموت، ولا دخل لي بكل هذا الهراء، سأتخذ طريقي إلى البوغاز متحاشيًا المرور بالكَفر، سأرحل عن تلك السلطنة إلى الأبد.

- ثم؟

قالها برهان مقاطعًا، اجتاح الصمت مجلسهم لبرهة حتى قفز دهب في بركة الماء، كحجرٍ دق ناقوسًا لينهي الوقت المحدد للإجابة على السؤال، لم يلتفت إليه، بينما كانت عينا سلَّام تشيان بعدم إيجاد إجابة، وبياض لم يجد سوى ابتسامة باهتة زيَّن بها وجهه، اقترب منهما وقال بهدوء:

- لم تجبني، ماذا ستفعل بعد الرحيل والابتعاد عن كل أراضي السلطنة؟ إلى أين تتوقع أن تذهب؟!

- ما لي أنا ومال الحرب والدماء؟ اكتفيت من كل تلك الأمور، سأذهب إلى أي مكان أكمل فيه حياة كالحياة.

- لا أظن أنك تعلم الغيب، وكنت مثلك ذات يوم، حسبت أن الهرب من القدر أمر ليس بصعب وأني أستطيع الاختفاء لفترة حتى أدبر أمر انتقامي من القتلة، ثم استسلمت لما أنا عليه وأخذتني السنون، وبقوا هم منعمين في قصورهم. على كل حال ما كتب في اللوح ستراه وتعيشه، وما كان لك مقدر أن تواجهه ستواجهه. لا أستطيع منعك من الرحيل، ولكنك قبلت من البداية أن تكون جنديًّا على الرغم من كونك مغنيًا ينشد من أجل قوت يومه، ويبدو أنك لم تكُن سعيد الحظ يومًا، فلو كان لك قبس من حظ كنت ستأوي إلى كنف سلطان أو حكمدار وربما بعض أولاد الناس، ولعلك وجدت في بيوتهم وقصورهم ضالتك، ولكن الحقيقة أنك سيئ الحظ، أجزم أنك كنت تبيت لليالٍ متتالية والجوع ينهش جوفك، كل ما تمنيته أن تُحيي حفلًا لأحد الأمراء من الدرجة الرابعة، أردت أن تقضي لياليك في حفلات خاصة صاخبة تعج بأكل وفير وغانيات يتدللن ويتمايلن، ولكن كل هذا لم يحدث، ففي النهاية تطوعت للذهاب لكَفر البردقوش، كجندي يُغني ويصنع بهجة لزملائه البائسين، ولعلك كنت تأمل في الحصول على مكان في بلاط الحكمدار، ولكنك فشلت أيضًا في ذلك.

كان حديثه هو لُب الحقيقة، قاطعه سلَّام بضيق:

- بل عوقبت لأني كنت دائم السؤال عن بياض، كنت أسوأ حظًّا مما تقول يا أبا الدهب، رفضت قتل الأسرى وحكم عليَّ بالموت الذي تجنبني هذه المرة، رأيت ما يكفي وعليَّ الرحيل.

- ممَّ تهرب؟ الموت؟ سنموت جميعًا في النهاية، على كل حال، أن ترحل أو تبقى هو أمر عائد لك، ولكن تذكر أن هناك أناسًا بحاجة للمساعدة.

- وهل ثلاثة رجال وذئب يستطيعون تحرير الأسرى ووقف الحرب؟ يا رجل، أنت لم ترَ جيش قاسم أصلان الذي ذهب إلى مملكة الساحل، إنه كافٍ ليجز كل أشجار غابة الظلال ويمحو ذكرها، وهؤلاء القوم البدائيون لا يستطيعون مجابهة وحشية سعد ورجال الحكمدار.

- لقد ظن بياض مثلك، ولكن انظر لـ«كتيمبي» ورجاله، استطاعوا أن يفعلوا الكثير بفيلق ذلك المدعو سليمان ناب، عشرات من الأسرى في قبضتهم. لم أطلب منكما الذهاب إلى كفر البردقوش، قلت لـ«كتيمبي» هذا فقط لأخرجكما مما أنتما فيه، وأعلم ما يحيق بكما إن ذهبتما إلى هناك.

- لا أستطيع فهمك يا رجل.

- تستطيعان مساعدة «كتيمبي» ورجاله، لديَّ هنا ربما ثلاثون بندقية وبعض أكياس البارود، بالطبع هي شيء لا يذكر أمام قوة وأسلحة جيش السلطان، ولكن هنا أيضًا الكثير من السيوف، احملاها إلى غابة الظلال، وسأذهب أنا إلى كَفر البردقوش وحدي لأستطلع الأمر.

- لا.

قالها بياض بغلظة، تطلعا إليه فتكلم بنبرة حادة:

- سأذهب معك يا درويش.

قال سلَّام مستغربًا:

- ماذا لو رآك سعد وعرفك الجند؟

- لا أحد يذكرني هناك، في الفترة القصيرة التي عشتها في القصر كنت لا أغادر موقع البناء على التل إلا قليلًا، ولا يتوقع سعد وجودي.

تدخل برهان بغلظة وقطع حديثهما:

- دعونا من أمر الذهاب إلى الكَفر الآن، يجب أن نمنح «كتيمبي» كل تلك الأسلحة أولًا ونعلِّم رجاله كيف يستعملونها. ربما لم يصل موكب الأسرى لكَفر البردقوش بعد، كما علينا توخي الحذر من ذلك الجيش الذي ذهب صوب مملكة الساحل، ماذا لو أردت وأتى في أعقابنا؟ كما قلت لكما علينا التفكر جيدًا في الخطوة التالية قبل التحرك نحو الشمال.

مرة أخرى عاد الصمت مع استلقاء دهب على العشب المبلل، ثلاثتهم غارقون في هوة التفكير السحيقة، لن يثني أحد بياض القرش عن الذهاب إلى الكَفر ومواجهة سعد وإنقاذ «كونوَا»، وسلّام صار يعي أن لا مفر من البقاء مع المجنونين، ليس له سبيل آخر، وكل ما أقلقه هو العودة للكَفر مجددًا، أما برهان فكان يحاول جاهدًا إبعاد تلك الرؤى من الماضي عن مخيلته، كل هؤلاء الذين خذلوه وغدروا به صارت مواجهتهم أمرًا واقعًا، بالإضافة لأعداء جدد صنعوا منه ومن ذئبه أسطورة مخيفة، تتناقلها الألسنة وتفيض بها الأفواه بمجالس السمر والحرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مر يومان ثقيلان منذ وصولهم لوجار الذئب، مملكة دهب الذي كان لا يعبأ بوجودهم وما يفعلون، يراقبهم في صمت وكسل، سلَّام الذي ينظف البنادق ويعيد تهيئتها للعمل، وبياض الذي يجمع السيوف والحراب من تلك الحفرة المخبأة فيها، أما صاحبه فكان يرعى الجملين وحصانه، ويفكر كيف ستجري الأمور. آخر ما توصل إليه مع رفاقه أنهم سيعودون إلى غابة الظلال بكل هذه الأسلحة، ثم سيتحركون جميعًا إلى كَفر البردقوش. كان عليهم العودة إلى «كتيمبي» ليثق بهم، لا يعرف ذلك الشاب وأهله دروب الصحراء، وعلى برهان وأصحابه أن يساعدوا في عودة الأسرى مهما كلف الأمر. في تلك الليلة اجتمعوا حول حلقة نار أوقدها بياض، كان صامتًا معظم الوقت، وسلّام وأبو الدهب يتبادلان أطراف حديثٍ مَرِح، ذكر الآخر أنه نسي في هذا المكان كل شهواته وأصبح لا يريد من الحياة سوى السلام، وها هو يجلس معه الآن.

كان المُغني يقص على مسامعهم حكايته منذ كان صغيرًا وتاه عن والديه في مدينة البوغاز، كل ما تبقى من الذكرى أنه من قرية صيد على الطريق المؤدي لقنطرة جبل الثلج، ما زال مشهد الجبال الشاهقة المكسوة بالثلوج قاطنة برأسه، لم يجد سبيلًا للعودة حين أخذته مجموعة من الغجر ليقطن معها على ضفاف النهر الكبير، أحب مرحهم وغناءهم وحصل على قيثارته حين بلغ الرابعة عشرة من عمره، صار مغنيًا، ولكنه كما قال أبو الدهب سيئ الحظ، دائمًا ما يقع في المتاعب، أحدها بسبب فتاة ذات أصل نبيل اختلى بها في أحد الأعراس ليكتشف أهلها ذلك ويطاردوه عبر الحقول عاريًا، كان يضحك ويصف مظهره حينها محدثًا صاحب الذئب:

- كان عليك رؤيتي حين اضطررت للبقاء عاريًا في بركة وحل حتى يمروا، رائحة الفتاة جذبت ذكور الضفادع فتقافزت فوقي، فركضت صارخًا ليلاحقني مطارديَّ مرة أخرى.

كانا يتسامران حول «غنيمتهما» كما سماها سلَّام، عباءة وسيف سليمان ناب وكيف يدفع الأمراء والملوك كنوزًا من الذهب والفضة مقابل تلك الخيوط الذهبية المطرزة بها العباءة، وطريقة صنع قبيعة السيف ويده على شكل الصقر الذي اتخذه غازي رمزًا لسلطنته، تبددت تلك النظرة من عين المُغني الذي أخبره أبو الدهب أن أغراض الأمير الميت يجب أن تعود إلى الكَفر كما هي سليمة، حتى يظن القادة الآخرون أنه ما زال حيًّا. طال حديثهما ودهب جالس بجوار بياض الذي بدا لهما غافيًا نائمًا، بينما كان عقله هناك في المكان الذي سِيقت إليه «كونوَا»، تلك الفتاة سيئة الحظ تزوجت من أجل إحلال السلام بين قبيلتين، وتفاجأت بأنها داخل حرب مستعرة، صارت أرملة بعد أشهر من زواجها، قتلوا زوجها أمامها وسيقت أسيرة مكبلة هي وبقية الأحياء من مملكة التل الدموي، النيران ما زالت مشتعلة بقلبه، وجسد «ساندو» الممزق يُداهم ذكراه، الرؤوس المخوزقة على الرماح، والرماد الأسود الذي حل مكان المنازل البسيطة للمملكة المسالمة، كل هذا من فِعل الخسيس سعد، وحده من يستطيع إيقافه إن استطاع الوصول إليه، وحده يستطيع إيقاف تلك الحرب القادمة، ظل متظاهرًا بالنوم بينما كان يحدث نفسه بضرورة مواجهة سعد ووضع حد لطغيانه، وبدأ سلَّام يُغني، أغنية أخيرة عن الحرب.

في الصباح لم ينهض معهما، ظل راقدًا بينما يحملان الأسلحة ويجهزان الجملين للرحيل، كلمات سلّام الساخرة لم تشغله ونداء أبي الدهب عليه ذهب سُدى، لم يكُن كسولًا كما ادعيا بل محمومًا، يشعر بألم في ساقيه وظهره، ظل على حاله بالفراش حتى جاءه دهب، لعق وجهه بلسانه الناعم، أغرقه باللعاب ولم يحاول بياض إبعاده، فطن أبو الدهب لفعل ذئبه، فصاحبهما الضخم مريض، جاء إليه بقِدر من ماء، سقاه وتحسس جبينه المتعرق سائلًا إياه:

- ماذا بك يا بياض؟

- لا أعلم، أنا مُنهك ولا أقوى على الحركة.

- حسنًا، سنبقى معك حتى تستطيع النهوض، رحلتنا شاقة فسنذهب إلى غابة الظلال ومن ثم نعود نحو الشمال، وعليك أن تكون بكامل قوتك.

- لا بأس إن تركتماني هنا، سأكون بخير.

- بياض، لن نتركك وحدك هنا، سنبقى معك حتى تتعافى.

- عليكما الذهاب إلى «كتيمبي» ومنحه الأسلحة والثقة التي يطمح إليها.

- سأرسل سلَّام ليأتي به وبقبائل غابة الظلال وسأبقى معك.

- الرجلان لا يطيقان بعضهما بعضًا، وقلب «كتيمبي» يفيض بالغضب، لا تخَف يا درويش، سأكون بخير، أتخشى أن أعبث بأغراضك في غيابك أو تخشى على مملكتك مني؟

ابتسم أبو الدهب ودار بعينيه في المكان قبل أن يعود ببصره إليه قائلًا:

- أتدري؟ كل ما أخشاه أن أترك هذا النعيم ولا أعود إليه أبدًا. بقيت لسنوات هنا لا يؤنس وحدتي إلا ذئب وحيد مثلي، والآن علينا أن ننضم لقطيع أكبر لمواجهة شر يتربص بنا.

- ما زلت أذكر ما تعلمناه في الصغر عن قطعان الذئاب، وكيف تتكاتف للصيد وصد الغرباء عن مناطق نفوذها، القطيع أقوى من ذئب وحيد.

- الذئب الوحيد أشرس وأشد ضراوة، أتدري لماذا؟ لأن لا شيء لديه ليخسره سوى حياته، أما إذا كان ضمن قطيع، فعليه أن يساعد في صيدٍ قد لا ينال منه سوى القليل من اللحم، وعليه أن يخوض حروبًا لا دخل له بها، وربما يدور عليه الزمن ويُطرد من القطيع فيموت بائسًا شريدًا، وقد تعلم من قبل أن يعتمد على رفاقه في الصيد، فكيف سيصيد ويعيش وحده إن لم يكُن قويًّا مفترسًا متمتعًا بالحكمة الكافية ليخوض درب الحياة وحده؟!

سعل بياض مرتين قبل أن يقول واهنًا:

- تتحدث عن الذئاب وكأنك صرت منها، نحن بشر يا رجل، لدينا عقول تفكر وقلوب تحب، الخير دومًا ينتصر يا أبا الدهب.

- لا يا قرش، ذلك يحدث فقط في قصص الجدات التي تلقيها على مسامع الصغار. البشر أشد شرًّا من جميع المخلوقات، أنت طيب يا بياض، حتى وإن فعلت بعض الأخطاء والشرور إلا إن قلبك نَقي، ممتلئ عن آخره بالبياض. هذا ما منحك الله إياه، أذكر تلك الليالي الأولى التي كنت مكبلًا فيها ملقى هناك تنتظر أن آتيك بالطعام والشراب، تتحين الفرصة للتحدث عن ماضيك

بكل أوزاره وسيئاته، وتتبرأ منها بصدق، كنت أداوي جراحك وأستمع لحديثك بإنصات أنا ودهب. كنت أعلم أنك صادق في كل كلمة نطقت بها، حياتك في البوغاز والسجن وحبيبتك بثينة التي تمنيت أن تحدثها يومًا ولكنك لم تتحلَّ بالجرأة لتودعها. احترمتك كثيرًا حين أوضحت في ثنايا قصتك أنها كانت متزوجة من إسكافي يخيط النعال، كان بإمكانك أخذها منه بالقوة، ولكنك أبيت أن تفطر قلب المسكين وزوجته الجميلة، حملت حبك وهيامك لها في قلبك ورحلت، لتكون أحد الدرك في بلدةٍ لا يعرفك فيها أحد.

- أنت تحفظ تفاصيل كثيرة يا درويش.

- بالطبع يا رجل، كان عقلي عطشًا للحكايات، وكنت تعيدها مرارًا وتكرارًا.

صمتا لبعض الوقت، قبل أن يسأله بياض:

- ما سِرُّك؟

- لو أخبرتك لن يبقى سرًّا.

- ألا تثق بي؟

شرد أبو الدهب لبرهة ثم ابتسم قائلًا:

- أتدري؟ إن أسرع الطرق للجنون هي الوحدة، ولكن الجنون ليس نهاية المطاف، ففي ذروة لحظات الجنون نجد ضالتنا ونُسلم أن كل ما وقع وما سيقع ليس إلا لسببٍ نجهله في حينها. وكنت ظننت منذ أمد بعيد، أن الشر الكامن في المدينة الزرقاء لن يصل إليَّ، وأني سأعيش ما تبقى من عمري في ذلك الكهف حتى يزورني الموت، ولكن يبدو أني سأموت في غير المكان الذي أحببت.

- لماذا تقول هذا؟ كل شيء سيكون على ما يرام يا صاحبي، سأبقى لأحمي وجارك بينما تذهبان لغابة الظلال، وفي طريقكما للكَفر ستمران عليَّ وستجدانني أنتظركما هنا.

جاء سلَّام وانضم إليهما في الحديث حول بقاء بياض بالمكان حتى تتحسن حالته، بدا له جليًّا أن صاحبهما الضخم منهك جسده يتصبب عرقًا وبالكاد يتحدث. حضَّر له أبو الدهب بعض الأعشاب المغلية وسقاه إياها، ووضع إلى جواره طبقين من خزف، بأحدهما زيت زيتون وبالآخر بعض ثمار الرمان والتمر، أخبره أنها ستقلل حرارة جسده وسيتعافى سريعًا. كان عليهما الذهاب إلى غابة الظلال مهما كلف الأمر، سيتركان دهب معه ليحميه، هكذا صرَّح أمام الذئب الذي فهم حديث والده، مما جعل سلَّام يحدث نفسه: «ربما ذلك الوحش المطيع كان بشرًا ذات يوم ولكن أصابه شيء من سحر، كيف يفهم كلمات الرجل؟»، تجلى ذلك في عينيه الحمراوين وتفاصيل وجهه

المُشعر، وثب واقفًا على قدميه الخلفيتين وأخذ يلعق لحية ووجه صاحبه، كان ضخمًا للغاية مهيبًا يتجاوز صاحبه طولًا وحجمًا، التفت دهب إلى سلّام قبل أن يمتطي الجمل المعد للرحيل ونظر إليه بصمت، وكأنه يحدثه محذرًا من أن يحدث لأبيه شيء. رحلا وودعهما بعواء طويل عاد بعده إلى الداخل حيث يرقد بياض القرش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13- رقية

صباح غائم، توارت فيه الشمس خلف سحب رمادية منخفضة، أشعتها الذهبية الباهتة طرقت زجاج نافذتها المعشق بالألوان، غمرت الغرفة بفيضٍ من ضياء ملون بديع، استيقظت رقية بكسل، تثاءبت محملقة في السقف المزخرف المحمول على عوارض خشبية، مسترجعة ما حدث بالأمس، عاد سعد مظفرًا ساحبًا خلفه عددًا غفيرًا من الأسرى، أناس بدائيون على وجوههم مسحة من الذل والخوف، عبر بهم دروب القرية متجهًا إلى بيت الحكمدارية، وأمام بيتها ترجل بغرور وخيلاء متجهًا إلى حيث كان ينتظره زوجها شاهين، والذي فشل في إخفاء أثر الدهشة التي كست ملامحه، يبدو أنه لم يتخيل أن يعود قائمقامه بكل تلك الغنائم وهذا العدد من الأسرى، لقد كان دومًا يشكك في وجود عصابة الذئب، ذلك الذي أرق منامها لأشهر، وأثبتته العرَّافة التي زارتها منذ زمن، وها هو سعد ينجح فيما فشل هو فيه. سيق الأسرى للحصن وسط تهليل وفرح أهل الكَفر، وانهالت عبارات الثناء والتفخيم على الرجل الذي انحنى للحكمدار مقدمًا له تاجًا عجيبًا من العاج والذهب قائلًا:

- سيدي الحكمدار، أقدم لك تاج ذلك الذئب اللعين.

تفحصه شاهين جيدًا، مقلبًا إياه بين أصابعه قبل أن يضعه على مسند كرسيه ببلادة سائلًا سعد عما حدث هناك في الصحراء.

أمام جمع من السادة أصحاب الكفور والقرى المجاورة بدأ سعد يقص حكايته، كانت أسطورية وتتحدث عن معركةٍ لا مثيل لها، أمام أناس يمتطون الذئاب ووحوشًا أخرى من غابة الظلال، أعجبتها طريقة إلقائه وحديثه المنمق الذي يفيض بالفخر والثناء على نفسه، الأمر الذي لم يرُق لشاهين، تعرف نظراته جيدًا وتستطيع أن تستشف ما يجول بقلبه وعقله الآن، إنه غاضب أو بالأحرى يشعر بالغيرة والحنق.

- البرغوث صار بطلًا.

هكذا قال لها شاهين متهكمًا، قبل أن يخرج إلى شاطئ البحيرة برفقة الدويدار رشوان. قضت تلك الليلة مع أمينة وسميرة وجواريها الأخريات يتسامرن، وتستمع لقصصهن الخرافية عن غابات الظلال وبحر الرمال، أما هي فكان عقلها يُفكر في سعد الذي يبدو أن «روزاليندا» ستحسن خدمته هذه الليلة، غلب رقية النوم قبيل الفجر وانفض من حولها المجلس، ولم يأتِ شاهين لغرفتها حتى اللحظة، أحبت أن تراه في هذا الوضع مكسورًا تائهًا، لعله يلوم نفسه لأنه لم يذهب للحرب واكتفى بإرسال رجاله فقط ليحظوا

بكل المجد، ولا يحصد هو سوى أن يبيت قلقًا بينما ينعم الجميع بنوم هادئ في كَفر البردقوش.

طرقت أمينة باب الغرفة لتعيد سيدتها إلى واقع اليوم الجديد، أذنت لها رقية بالدخول بينما ظلت بالفراش، دلفت الخادمة مبتسمة:

- صباح الخير يا سيدتي رقية.

- أمينة، هل رأيتِ سيدك الحكمدار؟

تلعثمت أمينة وتبدلت ملامحها:

- لا يا سيدتي، لم أرَه، يبدو أن سيدي لم يبِت الليلة في بيت الحكمدارية.

اعتدلت رقية في الفراش وحدقت بوجه أمينة الممتقع:

- ماذا بكِ يا أمينة؟

- لا شيء يا سيدتي.

- كلَّا، بل هناك شيء تخفينه.

نهضت رقية إلى حيث تقف خادمتها المرتبكة، أمسكت يدها برفق ونظرت لعينيها وحدثتها بصوت هادئ:

- هل هناك ما يخيفك؟

رجفة صارت بجسد أمينة، تملكت من لسانها ونطقت بصعوبة:

- أقسم الدويدار رشوان أن يقتلني إن قلت شيئًا.

- يقتلك؟! ما الذي حدث ليقول لكِ هذا؟ ما الجرم الذي اقترفتِه يا أمينة؟

- رأيت ما يجب ألا أراه.

صاحت رقية بوجهها:

- تحدثي يا امرأة!

بصوت متهدج وبلسان مرتجف بدأت أمينة تقص على مسامع سيدتها ما كانت تراه في الشهور الماضية، حيث كان الحكمدار غارقًا في ملذاته مع تلك العاهرة سميرة، انتحبت وطلبت أن يظل الأمر بينهما حتى لا يعرف الدويدار رشوان ومن خلفه الحكمدار أنها واشية.

طمأنتها رقية، احتضنت وجهها بكفيها:

- لن يمسك أحد بسوء ما دمت حية.

تعجبت أمينة من ثبات سيدتها وذلك البريق في عينيها، لم تكَن رقية تُبدي أي انفعال تجاه ما سمعته، أمرتها أن تتخذ حذرها، وأن تنتبه جيدًا لكل ما يحدث في القصر وخارجه، وعليها أن تخبرها بكل جديد.

الأمور تسير كما يجب أن تكون، إنها ملكة هذا البيت، تستطيع أن تعرف ما يدور في نفس كل شخص هنا، رقية القديمة لم يعُد لها وجود، ابنة الشهبندر المغلوبة على أمرها صارت من الماضي، تعلمت هنا أن من يريد شيئًا يسعى إليه بكل السبل، وإن أرادت حريتها فعليها العمل من أجل ذلك، والآن تأكدت من إخلاص أمينة لها، سميرة تؤدي دورها على أكمل وجه، أما الحمراء ذات النمش فقد شغف بها القائمقام، من يستطيع أن يقهر جيشًا من النساء؟! شاهين كان السبب في موت أبيها وخسارته لتجارته ومكانته بين أشراف البوغاز، وهو الملوم الوحيد على فقدان جنينها، ولم يكفه ذلك بل تجاوز كل الحدود وخانها، كان غرًّا ساذجًا، اقتيد للفخ بكل بلاهة، تمنت لو أنه لم يفعل ذلك ولكنها كانت واثقة من ذوقه، منذ اللحظة التي وقعت فيها عيناها على سميرة عرفت أن زوجها سيعجب بها وسيطمح إليها، تمنعت الجارية لأيام كما أمرتها، ثم ما لبثت أن خضعت له، والآن صار الجميع مجرد أحجار على رقعة لعبها، وما زال ذلك المدعو سعد يتجاهلها، فيما مضى كان لا يجيب عن أسئلة «روزاليندا» التي كانت تشتكي من وحشيته في التعامل معها، كان كبئر لا قعر لها، هناك سر يخفيه وذلك السر يمنحه القوة ليستمر ويعلو فوق مكانته، كلما رأته وجدت فيه شيئًا جديدًا، صار شخصًا معتدًّا بنفسه واثق الخطى، صارم الطلة، وزادته لحيته الجديدة وسامة، وأضاف له درعه الحربي قسوة، سمعت رشوان يُحدث زوجها منذ يومين بأن كل شيء أصبح جاهزًا ومعدًّا للتنفيذ إن اقتضى الأمر، لم يشغلها ذلك الحديث بقدر ما كان عقلها يريد معرفة ما حدث للذئب: هل قتله سعد كما يقول وهذا التاج وتلك الكنوز كانت ملكه يومًا؟ أم أن هناك بقية للقصة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا شيء يؤلم كالذكرى، تُحيل الواقع إلى مستنقع كئيب راكد، ماؤه آسن، يزيد من التهاب جروح القلب والعقل، تحاول جاهدًا الخروج منه من دون جدوى، تخور قواك وتهن نفسك ويصير تمني الموت خير دعاء، هكذا وجدت نفسها بين بكاء الأطفال وأنين النساء، أنهار دموعهن اجتاحت جوارح الأميرة «كونوَا»، متيبسة الوجه ومكبلة بحبل من خيش خشن إلى جوار «سيرين» صاحبتها وزوجة أخيها «كتيمبي». الشيء الوحيد الذي أيقنته أن ظلال ذلك السجن الرطب، هي الرحمة عينها التي كان يطلبها الأسرى من أهل التل الدموي، كلهم من عجائز ونساء وصبية بالكاد نبت خَضار شواربهم حديثًا، جميعهم زج بهم إلى قبو شاسع قليل النوافذ، وإن بدت كشقوق لتغيير الهواء فقط، وصلوا بعد عشرة أيام من المسير في صحراء زهقت فيها أرواح من لم يستطيعوا إكمال الطريق، قدماها داميتان كبقيتهم وحالها ليست أفضل

منهم، تغطي وجوههم الغبرة وتفوح منهم رائحة العرق والدماء، كانوا بائسين والحزن يفيض من أعينهم التي لم تجف آبار الدمع بها، حفاة تقرحت أقدامهم، أُطعموا على مدار أيام رحلتهم قليل الطعام إن وجد، وأُجبروا على ترك موتاهم جثثًا تبحر فوق سطح بحر الرمال الحارقة، نسور القمامة تتبعت القافلة، وحظيت بما تريد بفعل ذلك المتجبر القاتل، صارت تحفظ ملامحه جيدًا، كيف لا وهو الذي أمر بقتل زوجها الشجاع «ساندو»، رأتهم يقطعونه ويمثلون به، عبثوا برأسه وضحكوا فوق رفاته، تمنت لو أنها تستطيع الوصول إلى ذلك المخلوق البشع لتمد يدها إلى صدره وتنفذ إلى قلبه، أرادت لو نهشت أحشاءه بينما هو حي عاجز عن الحركة، ليشعر بمدى الألم الذي يجري بدمائها، قتل الجميع من دون رحمة، ما زالت نيران المنازل مشتعلة بعينيها، كم هو مهين أن تشعر امرأة بالعجز، وكم هو صعب عليها أن تظهر ضعفها، تمنت البكاء ولكن هؤلاء الضعفاء بحاجة ليروها قوية، تواسيهم ولا تعرف ما سيؤول إليه مصيرهم جميعًا، ولكنها مجبرة على أن تحافظ عليهم حتى يحدث الرب أمرًا، تذكرت يوم نذورها حين أغرقت طبق أمنياتها بالبحيرة. لم تتمنَّ سوى حياة جديدة هادئة من دون حروب ودم بين القبائل، غاصت الأمنيات على أمل أن تتلقفها روح آخر حورية ماتت بقاع بحيرة الرمح الفضي، لم يمضِ الكثير من الوقت، أمست أميرة وأصبحت أسيرة، ولا تعرف ما أصاب أهلَها من الموارنة، كانت «سيرين» تفيق بين الحين والآخر وتهذي بالكلمات، وتسأل عن «كتيمبي»، ويزداد اللهيب في قلب «كونوَا» الغاضب اتقادًا.

في تلك الليلة الطويلة جاءهم زائر مُبجل، فُتح القبو ودلف ظل شخص طويل القامة يقف على الباب ومن خلفه الجند بالمشاعل، ملامحه غارقة في الظلام، تقدم بخطوات ثابتة وعلى الجانبين وقف الجند صفين، يد تحمل المشعل وأخرى على مقابض سيوف بأغمادها، جعلوهم يقفون متكومين في جزء من المكان الشاسع، وعلى وهج النيران القريبة وقف المَهيب أمامهم، سمعتهم يقولون اسمه، الحكمدار بلغتهم التي تعرفها جيدًا، هذا هو من أرسل جيشه ليقتل ويسبي ويدمر عالمهم، ملامح وجهه الجامدة وعيناه الثاقبتان توقفت أمامها بعد أن جال في الوجوه كلها، كان يعلم تلك النظرات جيدًا، تلك السمراء ذات الشعر المجعد والشفتين الغليظتين تضمر الكره له ولرجاله، لو أتيحت لها الفرصة ستقتل كل من يقف بطريقها، «سيرين» أيضًا جذبت اهتمامه بجمالها المنطفئ، لم ينطق كلمة، فقط اكتفى بالتطلع في وجوههم ثم استدار راحلًا وعاد القبو ليُظلم مرة أخرى وتسري الهمهمات بين الخائفين. سألتها «سيرين» بصوت خافت:

- هل سيقتلوننا يا «كونوَا»؟

- هوني على نفسك يا «سيرين»، حاولي أن تغمضي عينيك الآن وسنرى إلى أين ستسير الأمور في الصباح، ما زالت تلك ليلتنا الأولى في هذه الأرض

الغريبة.

تركت «سيرين» تضع رأسها على صدرها واحتضنتها هي مميلة جسدها لتحتويها، كل منهما مكبلة من يدها الأخرى بشخص آخر، حاولت أن تغمض عينيها فداهمتها ذكرى قريبة لما حدث في الصباح بتلك البلدة، كيف يُهلل بشر ويرقصون لمجرد رؤيتهم أناسًا آخرين أسرى مكبلين، الصيحات والشتائم والبصق بالوجوه جعلتها تتأكد أن أهل هذا المكان أشرار، وأن القادم لا يبشر بخير أبدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكواكب والنجوم تراقبه، تشع وتزداد تألقًا وكأنها تتسامر بقصته، خرج من الحصن بصحبة رشوان بعد أن ألقى نظرة على الأسرى، شيء ما في وجوههم المتيبسة أثار في نفسه الخوف، نعم، ذلك الشعور الذي يراوده بينما يسير جواده قاطعًا القنطرة على مهل، في أسفل بيت الحكمدارية ميراثه عن أجداده الذي تمنى أن يُعيد ملكهم على تلك الأرجاء، وقع أقدام الفحل الحربي على صخر القنطرة الحديثة كان يطرق قلبه الذي ازداد خفقانًا بينما عيناه تتفحصان كل تلك النجوم المتلألئة في السماء، لم يتحدث مع دويداره منذ خرجا من الحصن، وزاحمت أفكاره الكثيرة صورة تلك العرَّافة مُنجية، نبوءتها لم تتحقق بالشكل الذي توقعته هي، فها هو سعد أتى وقال أمام الناس ما حدث هناك، ولكنه كاذب بالتأكيد كما كذب في أول الأمر، كان شاهين على يقين بذلك، يستطيع أن يعرف ذلك من خلال أعين الجند الذين يأخذون الأوامر من قائمقامه، ليته يستطيع أن يعرف ماذا يريد ذلك البرغوث وما خطواته التالية.

صرف رشوان وأخذ يتجول على ضفاف البحيرة ويلتفت بين الحين والآخر ليتأكد أن لا أحد يتبعه، وبعدها غاب داخل حي الحكمدار، ذلك المكان الذي استحدثه وجلب له سكانًا من البادية، اجتمع بعدد من رجالهم وكبرائهم على الرغم من الوقت المتأخر، وبعدها خرج إلى الجهة الجنوبية من السور الجديد، استقبله الجند فزعين مرتبكين، وراحوا يعلقون المشاعل لتضيء دربه، لم يبالِ بهم، فقط أمرهم أن يفتحوا البوابة الكبيرة ليخرج ويقف أمامها، تلك هي المدخل إلى عودة الإمبراطورية التي يتمنى أن تشرق شمسها قريبًا، في الأفق القريب حاجز النخيل بدا كظلال تغط في الظلام، هبت رياح حاملة إليه رائحة الزرع والزهر، من هذا الاتجاه جاءته كل المفاجآت والتي ظن أنها لن تحدث يومًا، كل تلك القصص عن عصابة الذئب كان هو مصدرها، زوجته داهمتها كوابيس يطاردها فيها ذئب، ومن هنا بدأ الأمر حين قرر السطو على قافلة السلطان، حصل على مبتغاه: عشرين صندوقًا من بنادق حديثة، كل صندوق فيه ثماني بنادق، لم يأمر مرتزقته بقتل أي أحد من ركاب القافلة، ولكنهم بطريقةٍ ما قضوا عليهم، ودُفنت تلك الصناديق بذلك السرداب أسفل قصر الحكمدارية، الممتد إلى أسفل البحيرة

كما يُشاع، وحرص على ألا يراه أحد من أهل الكَفر، وحين قال الناجون الثلاثة من قافلة السلطان إنهم رأوا وجه أحد المهاجمين، كان سمك البحيرة يأكل جيف المرتزقة جميعًا بعد أن سممهم رشوان، عاد إلى رأسه قبس من ذكرى أخرى يوم عاد سعد، ذلك اللعين هو وحده من يعلم ما حل بصائدي الذئاب وقائدهم راجي، إنه على دراية بما يوجد هناك في تلك الصحراء، على الأقل حتى يعود قاسم أصلان أو سليمان ناب، هذا إن عادوا. كل هذا العدد من الأسرى يوحي بعدد كبير أيضًا من القتلى، كان يحسب أن إغراق عمه بالبحيرة أكبر آثامه وآخرها حتى وإن كان لديه المبرر لفعل هذا، ومن بعدها لم يأمر بقتل أحد أو إغراقه كما يُشاع عنه، ولكن الدويدار رشوان يفعل، كان يحرص على أن تظل كل الأمور تحت طوعه، حارسه الأمين وسط زُمرة من البلهاء، رجل يُعتمد عليه في وقت الشدائد، وهو الحد الفاصل بينه وبين السادة والتجار المتملقين لذلك المدعو سعد، قرر في نفسه أن عليه الإسراع بتنفيذ خطته البديلة، وهذا أول ما سيفعله في الصباح، فقط يتمنى لو أن النوم يحالفه في هذه الليلة العجيبة. لم يُرِد أن يشاركه أحد ليلته وفراشه، والنساء في هذه الأوقات وحين يحدث أي جديد يكن أكثر حماسة لمعرفة كل شيء، وسيفعلن أي شيء ليحصلن على ما يشبع فضولهن، كل ما يريده في هذه الليلة أن يكون وحيدًا، استدار عائدًا إلى البوابة التي حُفرت أعلاها «شمس نبتت بداخلها زهرة بردقوش»، ومن تحتها كُتب:

عز ونصر لمولانا الحكمدار شاهين بن عز الدين الشمسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظل سعد نائمًا لما بعد الظهيرة، استيقظت «روزاليندا» قبله ولم توقظه، رتبت محتويات الغرفة بعد الليلة الماجنة التي لم تنتهِ إلا مع تبدل لون السماء من الأرجواني إلى الأحمر ومن ثم الوردي، كتلك البقع في جسدها من آثار التهام سعد لها، أصابه الجنون، وكان كما لم تعهده من قبل، ركوب الخيل لفترة طويلة لم ينهكه كما أنهكته هي، تركت له جسدها بعد الارتعاشة الرابعة يعبث بها كيفما يريد، حتى استلقى كالرضيع بين ذراعيها، احتوته وتأملت ملامحه الدقيقة وداعبت خصلات شعره ولحيته، تحسست رقبته وقبّلته وأغمضت عينيها وغفت، حتى سمعت نداء دوريات الجند. نوبة الحراسة تُبدل كل يوم في الشروق والمغيب، أيام وحدتها في الحصن كانت مملة، لم تكن تملك سوى الوقت الذي جعلها تفكر كثيرًا، تُعامل كسيدة يحدثها الدرك وأعينهم في الأرض، ينفذون ما تأمر ويحرصون على ألا يزعجها أحد، من فوق برج السعد كما أسمته تشاهد حمرة الغروب، تظن أنها ولدت بين سحاب وسماء ذات لحظة غسق بهية، كانت لأيام تفعل ذلك وتتطلع في الأفق منتظرة عودة فارسها، حتى جاء في موكب نصر عظيم، شغفها حبًّا بهذه الطلة، ظلت تُفكر هل عليها إخباره بأن رقية تترصد أخباره منها، خافت أن تخسره، أن يعاقبها، سيستبدل بها أخرى ربما، ولكن غيرته عليها وحفظه

لها بداخل الحصن كانت لحظة نُبل لن تنساها. إنها تحبه وتحب طريقة تعامله معها، ولكن قادم الأيام قد يحمل الكثير، رأت كيف تنظر إليه رقية والحكمدار ورشوان، حتى سميرة وأمينة وبقية الخادمات، تغار وتشفق وترتعب منهم جميعًا.

- كم لبثت نائمًا؟

أفزعها صوته بينما كانت تجلس شاردة بجواره، ابتسمت ومالت عليه لتقبل جبينه برفق:

- تجاوزنا منتصف النهار.

أغمض عينيه وقال بتثاقل وكسل:

- كان عليَّ أن أقابل الحكمدار في الصباح.

- لم أرِد إيقاظك، تركتك لتأخذ كفايتك من النوم وأخبرت الجند أنك لا تريد أن يُزعجك أحد.

تطلع إليها:

- سيظن الرجل أنني تخلفت عن موعدنا.

- لم يُرسل في طلبك، ولعله نائم حتى الآن هو الآخر.

- «روزا»، ماذا بك؟

- لا شيء. فقط أنت عائد من حرب وسفر وعليك أن تأخذ قسطًا من الراحة.

ضحك واعتدل جالسًا بجوارها، أزاح خصلاتها الحمراء المتموجة جانبًا ليرى عينيها:

- اشتقت إليَّ؟

- أتسأل بعد كل ما فعلناه ليلة أمس؟!

هَم بوضع رأسه بحِجرها ولكن طرقات بالباب أوقفته، ذهبت عيناه نحو الباب ويدها تفرك شعره بلطف، تملص منها وسأل عن الطارق، فجاءه صوت الحارس:

- الدويدار رشوان في انتظارك، سيدي.

غمغمت هي:

- ذلك الرجل لا أحبه، لعله أتى في طلبك لمقابلة سيده.

ولكن الجندي خيب ظنها وهو يكمل جملته:

- بصحبته السيدة رقية زوجة مولانا الحكمدار.

تجمد الاثنان في فراشهما، ظلَّا على تلك الحالة حتى قال الجندي بضيق:

- سيدي، إنهما ينتظران.

- حسنًا، سآتي فورًا إليهما.

ألقى الجملة وهو ينهض مسرعًا ليرتدي ملابسه، وبقيت هي بالفراش تنظر لحاله التي تبدلت من الكسل للنشاط المستغرب، دبت الغيرة في قلبها إلى جانب العديد من التساؤلات الأخرى.

راقبتهما «روزاليندا» من نافذة غرفتها، يتجولان بأرجاء الحصن ويسير على مقربة منهما الدويدار رشوان، لا بد أنه سمع حديثهما، ولكن عمَّ يتحدثان؟ ضحكت رقية وهما يرتقيان الدرج لبرج الحكمدار أو كما تسميه «برج سعدها»، الذي يبدو أنه تعلم كيف يُلقي النكات، حدثتها نفسها: «أي شعور يسود كيانك الآن يا «روزاليندا»؟ الخوف أم الغيرة، لا تنكري أن هناك قليلًا من الفضول»، ولكن كيف هو ذلك الشعور؟! لعله كبرياء أنثى، تحدٍّ بينها وبين سيدتها الحرة رقية بنت الشهبندر.

في تلك الأثناء دلف سعد ورقية يسبقهما رشوان إلى حيث قبو الأسرى، مكان كئيب عطن، مظلم الأركان حتى مع وجود شمس العصاري الباهتة، نورها تسرب إلى داخل المكان كأعمدة مائلة تسند عتمة الجدران، في الزاوية كانوا يفترشون الظلال الباردة، صاح رشوان بصوته الجَهْوري:

- انهضوا.

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى بدأت الوجوه تبرز من الظلام، همهمات وأنفاس لأناس ينهضون من الأجداث، أفزعها مظهرهم، رضيع بدأ البكاء، وحل صوته عميقًا بنفسها، الأعين راجية تنبض بالدمع، والوجوه تعلوها غبرة، لم تتحمل نظرة إحداهن اللائمة، وأشاحت بوجهها ملتفة للخلف، رحلت رقية عن المكان بينما سعد يبتسم مستغربًا من فعلتها، ونظر إلى وجه رشوان جامد الملامح، ثم اتخذ سبيله خلفها، يبدو أن قلب الجميلة الرقيق لم يتحمل رؤية التعاسة على تلك الوجوه، رحلوا عن المكان كما جاءوا، ولكن هذه المرة رأت «كونوَا» تفاصيل وجهه جيدًا، الشيطان الشاب، هكذا أطلقت عليه في قرارة نفسها، ستقتله وإن كلفها ذلك روحها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عادت رقية إلى بيت الحكمدارية بوجه غير الذي غادرت به، حديثها مع سعد اقتصر على بعض عبارات المجاملة ونوادر من رحلته التي وصفها بالفتح

المبين، ولكن أي فتح وفخر في سبي كل هؤلاء المساكين؟! كانت تود محادثته في أمور كثيرة وكأن لسانها بُتر من قاع حلقها، لم تجد أي كلمات أو أسئلة توجهها إليه، امتعضت منه ولكنها أحست بشيء مريب في حديثه، خاصة فيما يخص قتله للذئب، ذلك الرجل صاحب التاج الذهبي وابنه الذي شهد له أنه قاتَل ببسالة قبل أن يُمزق. كانت قد سألته عن مصير الذئاب التي يمتطيها هؤلاء الناس ولكنه دار وصال بحديثه بعيدًا عن تلك النقطة. كانت شاردة حين دخل زوجها شاهين إلى مجلسها، وقف أمامها متأملًا ملامحها قبل أن يقول مفيقًا إياها:

- لماذا ذهبتِ إلى الحصن؟

رفعت رأسها بشيء من عزة:

- أردت رؤية الأسرى والحديث مع «روزاليندا»، وكان معي الدويدار رشوان.

- أهذا فقط ما جعلك تذهبين إلى هناك؟

- هل مُحرم عليَّ أن أتجول في أملاكك يا زوجي العزيز؟! على كل حال ذهبت لأعرف ما حل بذلك الذي يدعونه الذئب.

- وهل أخبرتك تلك الجارية أو سعد بشيء؟

- نعم، قال إنه قتله بيديه وتأكد من أن الروح فارقته.

خلع شاهين عباءته وألقاها جانبًا وتقدم ليجلس على مقربة منها، سألته:

- ماذا بك؟

حك لحيته وأمال رأسه ليلقي ببصره خارج النافذة القريبة:

- أعتقد أن سعد يكذب.

- لماذا تقول هذا؟ أليس هذا رجلك الذي رفعت قدره ووثقت به؟

عاد بعينيه إليها:

- علمتني الحياة ألا أثق بمخلوق يتنفس. إنه كاذب والأيام وحدها ستكشف عن ذلك.

- هل تظن أن كل ما رواه محض خيال؟ ولكن من أين أتى بكل تلك الغنائم والكنوز بجانب الأسرى؟ وبمناسبة ذكر الأسرى، ماذا ستفعل بهم؟

- اقترح عليَّ سعد أن يذهب بهم إلى المدينة الزرقاء، وأرى ذلك مناسبًا لعل السلطان غازي يفرح بذلك، ويسحب قواته من الجنوب.

اقتربت منه وتحسست يديه بلطف ثم وضعت رأسها على كتفه، وبنبرة حانية همست:

- ما الذي يؤرقك؟ ولماذا كل هذا القلق إذن؟ أنا بجوارك يا حكمداري.

ابتسامة باهتة رُسمت على وجهه قبل أن يطلق زفرة قصيرة:

- هناك شيء خاطئ في كل تلك الأمور، وعليَّ أن أصحح الأوضاع مرة أخرى، ربما التخلص من سعد صار أمرًا حتميًّا.

- هل ستقتله؟

- إن اقتضى الأمر ذلك سيفعل رشوان. أخبريني يا رقية، هل اشتقتِ إليَّ؟

- من المفترض أن أسأل أنا هذا السؤال، فأنت الغائب دومًا عن فراشي.

- تعلمين أمر الحرب وما نحن فيه، إنه يُنسيني نفسي.

- نعم، أعلم ذلك.

قالتها وأطلقت العنان لبغضٍ راح يجوب بمجرى دمائها، قلبها ينبض بالكره والغضب له، ولكنها لا تستطيع أن تُظهر ذلك، أرادت أن تصرخ في وجهه وتقول له: «أنت خائن يا شاهين»، ولكنها لم تستطعِ، على الأقل الآن، ولكن سيأتي يوم وتفعل، ستجعله يندم على كل ما سقاها من بؤس وخيانة وذل. أما هو فكان مستغربًا من وضعها وحديثها الرقيق، كل منهما يُضمر شيئًا لا يعرفه الآخر، تمنى لو يستطيع الدخول إلى عقلها ومعرفة ما تُفكر فيه، ولكنها كانت آخر اهتماماته فلديه الآن خطة عليه تنفيذها، ورقية ليست سوى زوجة غيور بداخلها الكثير من الفضول، هكذا كانت صورتها في رأسه بتلك اللحظة، أما المشهد الذي كان عالقًا في رأسها في تلك الأثناء، فكان عرشًا مُذهبًا يتوسط البهو المفتوح بالحصن، مئات الجند يقفون حولها بينما تسير بزهو وفخر نحو كرسيها، اعتلته وعيناها تجوبان الأفق، والكفر من تحتها، وحولها تتعالى الأصوات تمجيدًا للسلطانة رقية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14- الذئب

في البدء كانت ريح شرقية باردة، أتى في إثرها سحاب كثيف عُمرت به سماء كَفر البردقوش، وما لبثت شمس الظهيرة الذهبية أن لملمت كل خيوطها قهرًا أمام كآبة اللون الرمادي، الذي كان في الحقيقة مبهجًا لأهل الكَفر، أُمطروا بصيب خفيف لم يروه منذ زمن، رطب الثرى وأزاح الغبار عن قباب البيوت القديمة ليعيد إليها رونقها وخضار قرميدها، الخير جاء للكَفر مع نصرهم المؤزر على قطاع الطرق البرابرة المتوحشين. على الرغم من المطر، الأسواق عامرة بالناس، والصبية يلعبون ويغنون على مشارف الحقول بينما الفتيات يركضن في الأزقة، والنسوة فوق الأسطح يرصصن أطباقًا وقصاعًا كبيرة، يتمنون ملأها بماء الصيب المبارك. رشوان يعطي أوامره للدرك قرب بوابة بيت الحكمدارية الكبيرة، في الشرفة كان شاهين يراقب صقرًا، حلق باسطًا جناحيه مهيمنًا على الفضاء الفسيح، لعله يبحث عن فرخ تائه، أو فأر خرج من جحره ليرتشف قطرات مما جادت به السماء، ضَم الجَارح جناحيه وهوى بسرعة للأسفل كحجر ثقيل، يغيب بين الأشجار ثم يطير خافقًا بجناحيه خائبًا، كررها في مرتين باءتا بالفشل الذريع، لم ينجح في الحصول على أرنب هارب بين سيقان البردقوش، كاد أن ينقض مرة أخرى ولكن في الأفق وخلف جدار النخيل كان هناك ما أثار فضوله، حلق مبتعدًا أمام عيني الحكمدار الذي ما زال يتبعه، مر فوق حقول الخضراوات غير آبه بتلك الدجاجات الراكضة، وتثاقل حبات المطر على جناحيه كلما توغل للجنوب، عيناه البنيتان الدقيقتان كانتا ترصدان شيئًا لم يرَه في تلك الأنحاء من قبل، شيء اشتمت ريحه كلاب الصيد الآوية بحظيرة البيت المنيف، حملت الرياح أثره إليها، فراحت تنبح ثائرة غاضبة تبحث عن مخرج للفتك بصاحب الرائحة الغريب، صرخ فيها رشوان والحراس فلم يزدد المكان إلا صخبًا، توتر شاهين وأفلت عن عينيه الصقر الذي كان في تلك اللحظة يَطير منخفضًا ليصدق أن ما يراه حقيقي.

خطواته على الثرى المبلل كانت عميقة، قوائمه الأربع رسمت أثرًا على الدرب المؤدي لبوابة النخيل، تنحى الناس الخارجون من الكَفر إلى جانبي الطريق، تيبست الأقدام وامتقعت الوجوه، ومن فوق سور البوابة الجنوبية نزل أحد الجند، هرع نحو حصان هزيل امتطاه واتخذ طريقه إلى بيت الحكمدار شاهين، البوابة علقت ضلفتاها ولم يستطِع الدرك إقفالهما بفعل تلك الرجفة التي سرت بأجسادهم، مر أسفلها وبينهم الذئب الذهبي الكبير، يسير إلى جانبه شخص أصلع متين البنية، تتدلى عن كتفيه عباءة قرمزية كانت يومًا لأمير حرب زار الكَفر منذ زمن قريب، ثبتت أعين الدرك على الوحش الرهيب ذي الفراء، ولم يجرؤ أحد على التفكير في مهاجمته أو منعه

وصاحبه، كان بحجم بقرة بالغة، خطواتهما متناسقة ولا يباليان بهؤلاء الخائفين من حولهما، سكونٌ ملَك الأرجاء إلا من صوت المطر المتساقط يطرق الأرض والخوذات، كانا يعرفان طريقهما والأبواب تُغلق من حولهما، تنهر النساء الأطفال عن التلصص من النوافذ، ويتوارى الرجال في الأزقة والدروب، والحصن يبدو جليًّا شامخًا فوق التل، ومن فوقه سماء ازداد غيامها سوادًا، على القنطرة المارة فوق البحيرة حثت فرقة الرماة خطاها نحو بيت الحكمدارية، الترقب سيد الزمان ألقى بثقله على الأفئدة والآذان، والذئب وصاحبه يصلان إلى مبتغاهما أمام بيت الحكمدار، ما إن استقرت أقدامهما حتى رفع عنقه ورأسه إلى السماء وأفرج خطمه مطلقًا عواءً مهيبًا عميقًا دام لوقتٍ طويل ورددته الجدران، ارتجت له قلوب ساكني الكَفر وتناهى إلى سعد في حصنه البعيد، وجحظت عينا «كونوَا» في محبسها المظلم هي وبقية الأسرى، وصهلت فرس الحكمدار التي امتطاها للتوِّ أمام باب قصره، دارت حول نفسها وجلة، وكادت أن تُلقي به أرضًا، تشبث بالسرج جيدًا وراح يربت على عنقها النابض، ورشوان الذي لم يخَف يومًا برقت عيناه بشيء من الفزع، وقال محركًا رأسه يمينًا ويسارًا:

- سيدي، لا أظن أن علينا الخروج.

في تلك الأثناء كان الرماة ينتشرون بأرجاء حديقة البيت ذي السور المتين، ترجل شاهين عن الفرس الهائجة التي قادها أحد الخدم إلى حظيرتها، لم يكُن يعرف ماذا عليه أن يقول، لم يُصدق مُنجية العرَّافة حين أخبرته بما جادت به عليها النجوم من أسرار، نسي وتناسى وكان قد تهكم على قولها: «النهاية قد دنت والذئب قريب، سيأتي وعباءة السلطان تتدلى عن كتفيه»، الآن فهم فحوى عباراتها المبهمة، وها هي أسطورته التي بث بها الخوف في النفوس تتجسد أمام باب داره.

البلدة كلها بدت كمقبرة يُعمرها السكون والموت، الصقر ما زال يطوف السماء والمطر يهطل، الكلاب بحظيرة البيت سكتت عن النباح، وفوق سور بيت الحكمدارية رماة يُصوبون بأصابع مرتجفة سهامهم إلى صدر الرجل وذئبه، كان كث اللحية أصلع، صبغته شمس الصحراء الحارقة بلون برونزي، نادى بصوت جَهْوري أجش:

- جئت بالسلام.

مد يده وراح يخلع العباءة القرمزية عن كتفيه مستطردًا:

- تلك عباءة قائد لوائكم الأزرق، أسيرنا سليمان ناب، وهذا سيفه.

وألقى العباءة والسيف بغمده إلى الأرض، ظل صامتًا ينتظر إجابة لم تأتِ، وبالداخل هَمَّ الحكمدار بارتقاء السور، ولكن ظهر سعد ومعه زمرة من الفرسان، كان القائممقام يتحرك مشيرًا للجميع بالصمت، فاتخذوه ملاذًا بينما

يتجه بخفة مع رجاله إلى أقرب نقطة للبوابة، كانوا جميعًا من حملة البنادق وشكلوا مجموعتين من ذوي الدروع الجلدية الخفيفة، واحدة عن اليمين ويقودها هو والأخرى إلى اليسار، وجاء صوت الرجل هادرًا يرج جدران الكفر:

- سعد.

وتلاحقت أنفاس صاحب الاسم، ارتجف قلبه واهتز كيانه، تعرق وثبتت مقلتاه محملقتين في الخواء، أخذته سِنة من ذكرى، ومن حوله تصادمت أعين الجند وصوت صاحب الذئب يصدح من جديد مناديًا باسمه:

- سعد.

يعرف الصوت جيدًا، ولكنه تدارك ذاته قبل الغرق في هوة سحيقة، حدثته نفسه بأن: «أيًّا كان ذلك المُنادي فهو في عداد الأموات». كظم غيظه بصعوبة بالغة والأعين من حوله تترصد فعله بينما ضجت عقولهم بأسئلة، بددها صوت طلقة بارود أطلقها سعد في الهواء، بدت كنفخة صور ثالثة، انتفضت الأجساد واقشعرت الفرائص، فزع الجميع من الصوت، الذي كان إشارته ليتحرك رجاله، في اللحظة التي شرعوا فيها بفتح البوابة أُطلق سراح كلاب الصيد، فُتحت حظائرها، شقت الصفوف مثيرة حالة هرج راكضة نحو البوابة التي تُفتح ببطء، نفذت من ذلك الجزء الضيق ولم تنتظر أن يُفتح على مصراعيه، كانت اثني عشر كلبًا أحاطت بالرجل وذئبه.

كل ما حدث بعد ذلك كان سريعًا وغريبًا، انقضت الكلاب على الذئب الضخم والذي كان عظيمًا رافقته الغلبة منذ البداية، قضم رقبة كبيرها بعضة واحدة، وثانيها تمزق وجهه بضربة من مخالبه، وبينما كان ثالثها يحاول الهرب من الأنياب العظيمة، تحرك صاحبه ممسكًا سيف سليمان ناب وراح يلوح به مخيفًا بقيتها، عراك لم يدُم طويلًا وراحت الكلاب تجري مذعورة حين سقط رابعها أرضًا، وبما بقي فيه من روح راح يزحف هاربًا نحو البوابة المواربة، مات ببطء وهو يجر أشلاءه المتدلية من بطن ممزق، الدماء تناثرت والكلاب وضعت ذيولها بين سيقانها وراحت تنبح راكضة إلى داخل بيت الحكمدارية، واقتحم الذئب المكان خلفها دافعًا ضلفتي البوابة الكبيرة مطاردًا إياها، فزع الجند وفروا من أمامه، أما سعد وحملة البنادق فلم يستطيعوا إطلاق نيرانهم عليه، منعهم وجود الحكمدار ورشوان ورقية التي كانت تقف على باب البيت. أخذتهم جميعًا المفاجأة، وكان الوحش غاضبًا، لم يروا جميعًا مثيلًا له من قبل، وحدها رقية كانت بارقة العين منتشية، حُلمها تحقق ورأت هذا الذي طالما أرق ليلها. الاضطراب ساد كل شيء والجند يندفعون خارجًا ليحيطوا بالرجل، «القائمقام يعرف كيف تُدار الأمور»، هكذا رددت رقية في نفسها، رأته يأمر الرجال بإطلاق النيران في الهواء، دوت البنادق فازداد الضجيج والصخب، المطر يزداد كثافة أيضًا، والضاري يطارد كلاب الصيد

المذعورة داخل حظيرتها، لم يخرج سعد إلا بعد أن جعل رجاله يدفعون بالحكمدار وزوجته ومساعده إلى داخل البيت، حفاظًا على أمنهم ولئلَّا يصيبهم مكروه، انصاعوا للفعل واتجهوا إلى باب البيت وصوت العراك بين الذئب وصراخ الكلاب المستغيثة لم يتوقف، ولكنه خفت هنيهة حين أغلق الجند كل منافذ الحظيرة، ليُحبس الذئب الهائج رفقة الجراء الخائفة.

مرة أخرى عاد الصمت ليطبق على أنفاس الكَفر، خلف نافذة منزلها وقفت رقية وإلى جوارها سميرة وأمينة، وفي الجهة الأخرى كان شاهين ورشوان يشاهدان ما يحدث على عتبة القصر. المطر يهطل بغزارة والبرق يضوي بين طيات الغيم الكئيب، الجند يحيطون بصاحب الذئب من كل مكان، شاهرين بنادقهم عليه من كل صوب، والرماة جاهزون بأقواسهم مشدودة الأوتار، لم يُبدِ أي مقاومة، كان جامدًا محدقًا في تلك النقطة أمامه حيث البوابة الكبيرة لبيت الحكمدارية، المشهد تباطأ وستة رجال أشداء يظهرون من جانب الباب المنفرج، بينهم كان سعد الذي لم يتبدل كثيرًا، كان معتدًّا بنفسه وإن كانت نظراته غير مصدقة لما يرى.

كان ذلك الرجل هو صاحبه القديم، بياض القرش. نعم هو، لم يخطئه ولم يتبدل به شيء، معافى قوي كما عهده، التقى بصراهما وظلَّا يحدقان بعضهما ببعض، البرغوث كان خائفًا، هكذا بدا لبياض الذي انفرج ثغره عن ابتسامة لم يفهمها القائمقام، الذي قرر أن يُعامل ذلك الواقف أمامه كنكرة، حدثه وكأنه لم يلتقِه يومًا:

- والآن ماذا تريد؟

- يبدو أن هدير المعارك أصابك بالصمم، أخبرتكم أني جئت بالسلام.

لم يتوقف سعد عند نبرة بياض المتهكمة، وحدثه:

- منذ متى والمهزوم يطلب السلام؟

- من قال إننا هُزمنا؟ لدينا عدد كبير من فرسانكم وجندكم أسرى.

لوح بياض بسيف سليمان ناب في الهواء فتراجع الجند بضع خطوات، ضحك قائلًا:

- هذا هو سيف قائد فرسان الجبل الأزرق.

ارتفعت نبرة سعد الغاضب وهو يُحدث بياض:

- أنت ميت يا رجل، هل تظن أن قدومك إلى هنا بتلك الطريقة الهزلية سيمر هكذا؟! سأذبح حيوانك الأليف أمام ناظريك وسأعلقك هنا على أسوار قلعتي تلك، كل هؤلاء الرجال يأتمرون بأمري، أنا وحدي من أملك أمر حياتك وموتك يا...

قاطعه بياض بعفويته الفظة وبصوت مرتفع:

- هل أصبحت الحكمدار يا سعد لتقرر مصيري ومصير أولئك الأسرى لديك؟ لقد قتلت الأبرياء من دون ذنب، وسلبت الأحياء كرامتهم وحريتهم. أتظن أن هؤلاء الحمقى ذوي السترات الجلدية سيحمونك مني إن أردت دق عنقك الآن؟ جئت لعقد السلام معكم حتى لا تراق دماء المزيد من الأبرياء.

كلمات بياض كانت كبذور فضول نثرها بقلوب الحكمدار وأهل بيته، تساءل الجميع بمن فيهم الجند المحيطون ببياض، هل يعرف الرجلان بعضهما بعضًا؟ الإجابة الوحيدة اليقينية كانت في عقل رشوان الذي يعرف وجه بياض جيدًا، ضاق صدر الحكمدار الذي قرر الخروج وأخذ مشهد البطولة من سعد الذي عليه أن يُعاقَب بعد كذبه، إن كان الذئب هو ذلك الرجل، فعلى الحكمدار أن يتدخل وليس سعد الذي كان يحدث بياض ونيران الغل تأكل قلبه:

- أتدري؟ الحديث معك مضيعة للوقت، اقتلوه.

- توقفوا.

الكلمتان اصطدمتا بآذان الرجال، لم يعرفوا أيقتلونه كما أمرهم قائمقامهم سعد، أم يتوقفون كما صاح فيهم الحكمدار، الذي كان ينزل درج باب بيته متجهًا نحوهم، تجاوز الرجال الذين أفسحوا له الطريق من دون أن يلقي بالًا لسعد الجامد بمكانه، وقف أمام بياض وجهًا لوجه وتطلع بوجهه لبرهة ثم قال آمرًا رجاله:

- خذوه إلى سجن الحصن، ولا يستجوبه أحد ولا يدخل إليه أي كائن، حتى أبت في أمره.

سار بياض بين الجند مارًّا إلى جوار سعد الذي كان كل ما يشغله هو ذلك الرجل الواقف أمامه، الحكمدار شاهين الذي فرض واقعًا جديدًا عليه أن يقبله، كيف لا وهو صاحب هذه البلدة وسيدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من فتحة النافذة الضيقة بقبو الأسرى رأته «كونوَا»، لا تدري ما أصاب قلبها في تلك اللحظات، أهي فرحة اقترنت برؤية شخص تعرفه، أم قلق لأنه كان مع أخيها «كتيمبي»؟ الشوق لمعرفة ما أصاب أهلها تحول إلى خوف من أن يكون قد حاق بهم ذات الذي نزل بأهل التل الدموي، تساءلت أين الذئب الذي كان يعوي منذ وقت قريب؟ والأسرى من حولها يتهامسون بخفوت عما كان يحدث في الخارج، وكانت عيناها تتفحصان بياض الذي بدا في حالة جيدة على الرغم من أنه يسير بين الجند المحيطين به، يتعاملون معه بحذر وهيبة، دلف بنفسه إلى ذلك الباب الذي أوصد خلفه من الخارج، الحراس منتشرون في كل أرجاء الحصن، وقائدهم يصعد الدرج إلى المبنى المقابل

بوجه مكفهر، كان يصيح في أحد الجند قبل أن يدخل إلى باب ويغلقه خلفه هو الآخر، نزلت عن أكتاف الشباب الذين كانوا يرفعونها، حين صادفها وجه «سيرين» ابتسمت وحدثت أصحاب الأعين المتسائلة:

- يبدو أن هناك أملًا في الخروج من هنا.

قصت عليهم ما رأته، وحاولت أن تتملص من بعض أسئلتهم، ولكنها لم تَسلم من فخاخ القلق المنصوبة بقلبها، كان عليها أن تُطمئنهم حتى وإن كانت لا تعرف المستقبل، ولكن ما دام بياض القرش حيًّا، فما زال هناك أمل.

خُلق البشر مختلفين، ليس هناك أحد مثل الآخر، وخُلقت الخلافات ليعرفوا بها قدرهم عند بعضهم البعض، قد تخيب الظنون يومًا بأناس أملت فيهم خيرًا، ليس لأن توقعاتك فيهم كانت كبيرة بل لأن قلوبهم أسود مما كنت تظن، مرت تلك الحكمة بعقل بياض القرش، لا يذكر مَن قائلها ومتى وأين سمعها، ولكنه يتذكر ما قاله له أبو الدهب الدرويش في آخر لقاء بينهما:

- أنت طيب القلب يا بياض.

غمغم وهو يضرب حائط محبسه بقبضته:

- بل أنا أحمق غبي. كان عليَّ أن أصبر حتى يأتي الدرويش وسلَّام ومعهما جيش غابة الظلال، ماذا سيقول الرجل حين لا يجدني بكهفه؟ أودعت نفسي بفخٍّ كالأغبياء ظنًّا مني أن سعد سيرضخ خوفًا من أن أفضحه، ولكنه بدلًا من ذلك حدثني كأنه لا يعرفني، نكرة لا يأبه إلا بموتي، ذلك البرغوث الغادر اللعين.

صال في الغرفة الكبيرة الكئيبة جيئة وذهابًا يُفكر فيما حدث لدهب، سيقتلونه حتمًا ولكن الحكمدار لن يفعل، ذلك الرجل يمسك بزمام الأمور، ولولا وجوده في اللحظة المناسبة لكان بياض جسدًا بلا رأس كالأمير «ساندو»، سيتفاوض مع الرجل حين يأتيه، بالتأكيد سيفتدي الأسرى بالأسرى، ليته يكون حكيمًا كما يبدو عليه. جلس مستندًا إلى الجدار يهدهده برأسه متذكرًا حين رحل عن الوجار وتبعه الذئب، صاح به وأشار عليه بالعودة ولكن دهب أبى إلا أن يأتي معه إلى ذلك المكان، لم يفارقه كما أوصاه صاحبه الدرويش، قطعا دروب الصحراء متجاوزين خندق السراب بعيدًا عن قنطرة النسيان التي تتمركز عليها قوات جيش السلطان. تمنى أن يكون الذئب بخير ولم يصِبه مكروه، وأن يأتي العون قبل أن يغدر به البرغوث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مر يوم منذ أُسر الذئب وصاحبه الجريء، أهل الكَفر وجدوا قصصًا جديدة تسردها ألسنتهم، مشبعة بالخوف والترقب والكثير من التهويل، البعض يقول

إن هذا هو زعيم قطاع الطريق جاء ليفتدي رجاله، وآخرون يقولون إنه مجرد رسول أتى برسالة للحكمدار، تاهت الحقيقة داخل عاصفة من الأخبار الكاذبة، السوق مرتع للحكايات والتي في جوهرها سؤال خشيت الأفواه النطق به:

- هل كذب القائمقام بشأن مقتل ملك الذئاب؟

انقشعت الغيوم كاشفة عن شمس ما بعد الظهيرة الباهتة، تنسمت حريتها بعد يوم وليلة لم يتوقف فيهما المطر، ولم تُمحَ من ذاكرة شاهين تفاصيل اليوم الماضي، اجتمع برجاله من دون سعد، لم يستدعِه إلى ذلك الاجتماع ببيت الحكمدارية، أمرهم بتكثيف عدد الجند على الأسوار الخارجية للكَفر، وأن تُحفر خنادق عميقة أمام سور النخيل، يعتقد أن الوضع سيزداد سخونة في الأيام القادمة، وأن ذلك الرجل الأسير ما هو إلا طليعة لشيء قادم، انفض المجلس وبقي وحيدًا يتطلع للخريطة أمامه، وعقله يعيد عليه ما قاله سعد بينما كان يُحدِّث الأسير، ذلك اللعين يظن أنه صار حاكم الكَفر يمنح من يريد الحياة ويميت من يريد، كان حائرًا في أمر قائمقامه الذي كاد أن يسرق البطولة منه، على الجند والدرك أخذ أوامرهم منه وليس من ذلك المدعو سعد الكاذب. ترك قاعته واتجه إلى الدرج المؤدي إلى أعلى، صادفته سميرة واقتربت منه بعينين تفيضان بالشوق:

- سيدي، هل أنت بخير؟ مضت ليالٍ لم تزُرني فيها.

تلفت حوله قبل أن يعود ببصره إليها:

- هل جننتِ؟

- غيابك أثار بداخلي شعورًا بأنك مللت مني.

- اذهبي الآن، سآتي حين تسنح لي الفرصة.

صعد درجتين فأوقفه صوتها مرة أخرى:

- سيدي، هناك شيء أود قوله.

التفت إليها عاقدًا حاجبيه:

- ماذا؟

- أنا حُبلى.

شعر وكأنه دفن بسفح جبل من جليد، انتابه صقيع مباغت، ارتعشت أصابعه رغمًا عنه فأمسك بسور الدرج، وظل محدقًا في وجهها القلق بجمود، أومأت برأسها وقالت بنبرة خافتة يكسوها الخوف:

- ظننت أنك ستفرح بالأمر، ولكن لو علمت سيدتي رقية فستقتلني.

اسم ابنة الشهبندر كان كافيًا ليجعل كل ذلك الجمود يذوب، بسرعة نزل إلى حيث تقف سميرة، أمسكها من رسغها بقوة جاذبًا إياها، كان غاضبًا أو هكذا ظنت حتى تكلم:

- لم تخدعني امرأة من قبل، ولا أعلم مدى صدق كلامك هذا.

ثم أفلتها واضعًا يده على بطنها متحسسًا إياه وهو يكمل حديثه:

- هل تعلمين أني أبغض الكذب ومن يتفوه به؟!

اغرورقت عيناها بالدمع وقالت بصوتها الناعم الخافت:

- أقسم إني لا أكذب، لقد حاولت كثيرًا ألا يحدث الأمر، ولكني لم أتمكن من منع حدوثه.

- كيف علمتِ بأن أحشاءك تلك تحوي صغيري؟

- تلك أمور تفقهها النساء سيدي.

تركها واستدار عائدًا إلى الدرج مرة أخرى محدثًا إياها:

- حسنًا، عودي إلى غرفتك، سنناقش الأمر حين أفرغ مما أنا مقدم عليه. اسمعي، عليك أخذ كل الحذر واحرصي على ألا يعرف أحد، هل تفهمين؟

كان هذا ما ينقصه، لكم تمنى أن يكون له وريث ولد يحمل اسمه، ويستقر على عرش سلطنته المتخيلة يومًا، والآن في هذا الوقت العصيب تفاجئه خادمته بأنها حامل، اللعنة على المواقيت الخاطئة، دلف إلى الغرفة ليجد رقية جالسة قبالة النافذة، ما إن رأته حتى ابتسمت، حدث نفسه وهو يقترب منها: «مسكينة يا رقية، وددتُ أن يكون مولودي منك وليس من جارية متدنية النسب». خلع عمامته وألقاها بعيدًا قبل أن يأوي إليها على غير عادته، وضع رأسه في حجرها، توجست من فعلته التي نادرًا ما كان يفعلها، رأت الحزن باديًا على وجهه، ربتت على رأسه وسألته:

- ماذا بك؟

- لا شيء. أشعر بثقل يجر رأسي إلى أسفل، ولا أجد الأمان إلا عندك.

لم يلحظ ابتسامتها الباهتة، أغمض عينيه وأصابعها تنغرس في رأسه ممشطة إياه، عيناها كانتا ثابتتين على الحصن المرتفع قبالة البيت، شردت هي متفكرة فيما كان وما سيكون، لم يكُن لديها علم بأمر ذلك الطفل الذي ينمو ببطن سميرة، وغفا هو محاولًا إراحة رأسه من التفكير حتى سمعا عواء الذئب الحزين، اعتدل شاهين جالسًا في حركةٍ أفزعتها، ظل جالسًا إلى جوارها لبرهة قبل أن ينهض متجهًا إلى الباب، فتبعه سؤالها:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- لديَّ لقاء مع ذلك المُنادي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الظلال تُهيمن على الأركان مزيحة ما بقي من ضوء النهار، الجدران ملطخة بالدماء وأشلاء كلاب الصيد متناثرة في الأرجاء، ورائحة الموت عطنة تزكم الأنفاس، أقفاص خاوية إلا من الذباب، والوحش قابع في الزاوية الأظلم من المكان، لم ترَه عين شاهين الواقف خلف الباب، ولكنه هناك. صمتٌ مهيب يليق بذلك الشعور البارد بصدر الحكمدار، ومن خلفه يقف حارسه الأمين رشوان، الذي ما لبث أن سأل سيده بنبرته الخشنة:

- سيدي، إن كان لي من الأمر شيء، سآمر بقتل ذلك الذئب الآن. إنه حيوان مسعور فتك بدستة من كلاب الصيد، رأيته يقضم الواحد منها بكل سهولة.

التفت إليه شاهين ومط شفتيه بامتعاض:

- دومًا تُثبت لي أنك بلا عقل يا رشوان، سنساوم هؤلاء البرابرة المتوحشين ونعقد معهم اتفاقًا، إننا الآن في موضع قوة وعلينا الاستمرار، أنسيت أن جيش السلطنة الذي يقوده قاسم أصلان ما زال في الجنوب؟ وذلك الأصلع الذي أظن أني رأيته من قبل جاء ليعقد هدنة، هذا ليس الذئب، إن ملامحه أغبى من أن يكون قائدًا.

- سيدي، لو أن حدسك صحيح سيكون ذلك الحيوان المسعور بالداخل ما هو إلا فرد من قطيع ذئاب، ولو كانت جميعها بهذا الحجم سنهلك، إن الذئاب تنادي بعضها بعضًا، عواء ذلك اللعين هو رسالة لعشيرته وستأتي، دعنا نقتلهما.

لم يُطِل شاهين النظر بوجه دويداره الغبي وعاد بوجهه إلى النافذة الصغيرة بالباب وارتجف شاهقًا؛ كان الذئب يقف في منتصف الحظيرة التي ضاقت جدرانها مع وجوده، لم يلحظا نهوضه من زاويته المظلمة، شعر الحكمدار بخوف أعقبته إثارة وما لبثت أن صارت تحديًا، لا يُنكر شاهين ذلك الوجل النابض بداخله، أمامه عينان دمويتان لكائن يَعقل، فريد من نوعه وملامحه المتحدية تشي بأنه مقاتل شق طريقه في الحياة بالبراثن والأنياب، وبعقل لديه إدراك ووعي، وهشم رشوان الصمت بصوته المستفز:

- سيدي، هل سنقتله؟

- لا.

نطق بها الحكمدار من دون أن يلتفت، وعيناه ما زالتا غارقتين في لهيب عين الذئب، حدث الذئب في رأسه: «عفوت عنك». واستطرد مكملًا لرشوان:

- هناك برغوث وجب قتله.

حيا شاهين الذئب برأسه، واستدار متخذًا طريقه للخارج تاركًا خلفه رشوان، الذي كان يُفكر في كل كلمة قالها له سيده، ألقى نظرة خاطفة داخل الحظيرة وكان الذئب قد عاد إلى زاويته المظلمة. خرج الدويدار يتبع خطى سيده الذي امتطى فرسه المتينة، وانطلق تاركًا إياه بلا قيمة كما كان يُعامله دومًا، لا يدري لماذا أخفى أمر بياض القرش عن شاهين؟ يعرف ذلك الجندي من درك الحصن جيدًا، ولكن ماذا يفعل مع عصابة الذئاب؟ تلك القصة التي رمى بذرتها سيده وساعده هو في بثها في النفوس، حتى إن السلطان اقتنع بأن هناك عصابة ذئاب. كذبة صارت صدقًا.

ليلة رائقة قضاها الحكمدار مع سميرة، تحدثا مستأنسين بوهج شمعة وحيدة أفنت عمرها وهي تسمع كل شيء، في مساء الغد سيصعد إلى الحصن ويعزل سعد ويستجوب ذلك الأسير، سينهي كل ذلك العبث الذي أحدثه رجال السلطان ورجاله المجبرون على طاعة ذلك البرغوث، سيعيد الهدوء إلى الأنحاء ويتزوجها إن سارت الأمور كما يريد، ستغضب رقية بالتأكيد، ولكن غضبها كنيران جبل الثلج، باردة تحرق نفسها. فترة وستهدأ كعادتها، سميرة دافئة، لا يعلم لماذا عليه أن يصدقها، ربما لأنها ستمنحه حُلمًا طالما أراده، الولد الذي سيحمل اسمه من بعده، ربما عليه أن يُفكر في اسم له. عرضت الأسماء كلها على عقله وحين هَم بالاختيار، عوى الذئب. رخيم زادته جدران محبسه عمقًا، هيمن الخوف على القلوب، وقُضَّت مضاجع من أرقهم غناء الذئب الحبيس، وشاهين الشارد يُفكر؛ هل ينادي الذئب أقرانه كما قال الدويدار؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هرول جمل ضخم على جانبي سنامه حمولة من لفائف جلود وفراء، قطع طريقًا طويلًا وعرًا معبدًا بالحصى، بمرونة ويسر وخطوات واسعة سريعة، يلكزه برهان بعصا رفيعة على فخذه ليسرع الخطى أكثر كلما تباطأ، رحلة شاقة لم يتوقف فيها إلا مضطرًّا بعد أن عرج على كهفه الخاوي من الحياة، لم يجد دهب وكذلك بياض القرش، أثار الأمر قلقه وخوفه، ارتبك ولكنه اقتفى آثارهما إلى الشمال، تاركًا خلفه علامات يسير عليها جيش «كتيمبي» وغابات الظلال القادمون من الجنوب، ترك معهم سلّام وتقدمهم يسابق الزمان، تمنى أن يجدهما في الطريق فما زالت آثارهما حديثة ولم يمر عليها يومان، كان يسأل نفسه لماذا فعل بياض ذلك؟ يخشى أن يصيبهما مكروه، ولكنه تأخر بالفعل عن موعد عودته للوجار، أربعة أيام إضافية قضاها بداخل غابة الظلال يتنقل مع «كتيمبي» بين القرى المخفية في الكهوف والأحراش، جمعوا أكبر جيش رأته غابة الظلال يومًا، جيش تحركه الرغبة في الانتقام لمملكة التل الدموي. ظن أن بياض سيصبر ويبقى حتى يعود، ولكن الضخم الطيب لم يفعل، قادته الآثار إلى طريق بعيد عن القنطرة التي ما زال علم

السلطان غازي الأزرق يخفق فوق تماثيلها العملاقة، يبدو أن بياض ودهب تجاوزا خندق السراب عبر الطريق الأوعر والأخطر وكذلك فعل هو. لم يُفكر كيف للجيش القادم من الجنوب عبور تلك القنطرة الكبيرة مع وجود تلك الفرقة الحامية، كل ما كان يشغله أن يصل إلى الكَفر قبل فوات الأوان.

قبيل الظهيرة برز حاجز النخيل في الأفق، كان عليه الإبطاء حتى لا يلفت الأنظار، تتبع خطى قافلة قادمة من الشرق، اندس براحلته بين الدواب وعند البوابة أمر الركب بأن يكشف كل ذي لثام عن وجهه، فعل كما فعل المحيطون به، فُتشت الأجولة على ظهور البعير، وسأل الجند قليلًا من الرجال من أين أتوا بتلك البضاعة، ولم يلبثوا أن مروا جميعًا من تحت بوابة يزعق فوقها غراب يبحث عن فتات، كانت عينا برهان تدوران في الوجوه وتتفحصان الدروب الجانبية من الطريق، تلك هي المرة الأولى التي يشهد فيها هذا الأمر هنا، حدثه قلبه بأن هناك شيئًا حدث ويبدو ذلك جليًّا، الوجوه والأعين والخوف والهم الجاثم على البيوت، دوريات الدرك منتشرة في أرجاء الكَفر، وفي السوق وقف الركب وتهافت التجار والناس على البضائع من كل صوب، لم يسأل أحد عن شيء ولكنه حصل على ما يريد من إجابات، أهل القرى ثرثارون بما فيه الكفاية عن أهل المدن، حكمة علمها له أحدهم ذات يوم. والتقطت أذناه كلمات متفرقة عن حكاية الذئب وصاحبه، قصص رافقها الكثير من التهويل والمبالغة، بعض الناس يمنحون الحكمدار الفضل في القبض على الرجل حيًّا، وآخرون يُمجدون القائمقام سعد، والوحش صار أسيرًا يسمعونه في الليل يعوي، ولكن كلامهم هذا لا يؤكد أنه حي، عليه أن يسمع بنفسه أو يرى، راح يجمع كلماتهم بخزائن عقله، فقط عليه التأكد أن دهب بحظيرة بيت الحكمدار كما يُشاع. امرأة واحدة بالسوق كانت تحظى باهتمام التجار، تتفحص البضائع وتتحدث مع سيدة أخرى، تقول إن الرجل صاحب الذئب جاء لعقد السلام وليس للحرب. تتبعها بعينيه، كانت تتنقل من تاجر إلى آخر وتغدق المال عليهم مقابل بضاعتهم، ولما سأل أحدهم عنها قال إنها خادمة ببيت الحكمدارية تدعى أمينة.

جثم الليل فوق الكَفر مزيحًا ما بقي من غسق، بعد ساعات طويلة بالسوق فعل مثل بقية التجار، توجه إلى خان قريب من حي الحكمدار بعد إيداع جمله بالحظيرة مقابل قطعة نحاسية، الخدم يُشعلون المشاعل والقناديل، وكروان يترنم هائمًا في السماء، لم يسمع غناء ذلك الطير منذ سنوات، يُنذر بشيء ما سيحدث، لم يكد يدخل إلى باب الخان حتى وجد جمعًا غفيرًا من الناس يتجمعون مهرولين، وقع أقدام كثيرة جعلته يتبع العامة إلى حيث يسيرون، وأمام الجمع مرت مجموعات من جند يرتدون ثيابًا بلون ورق شجر الزيتون، ملثمين جذبوا انتباه الناس بسيرهم في ثلاثة طوابير منتظمة، تساءلت الأعين، وما لبث الدرك أن جاء ودفع بالناس إلى داخل البيوت والخانات بغلظة، والجيش الصغير من الملثمين يبتعد متجهًا إلى حيث بيت

الحكمدارية، القلق دب بقلبه مع وقع أقدامهم، تسارعت نبضاته وتهافتت على رأسه سهام التخمين والتوقع لما سيحدث لاحقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على باب بيت الحكمدارية وقف شاهين متأملًا ذلك الجيش بزهو، انعكس في عينيه وهج المشاعل المنتشرة في الأرجاء، مستندًا بكلتا يديه إلى سور شرفة البهو، وأمامه رجال البادية، هؤلاء الذين أسكنهم بالحي الجديد، لم يأتِ بهم إلا من أجل هذه اللحظة، حمايته وتنفيذ أوامره حين يشعر بالخطر، حين يظن أن الجميع لم يعودوا أهلًا للثقة، أخفى أمرهم عن الجميع كأمر أسلحتهم التي يشرف رشوان على تسليحهم بها، منح كل واحد منهم بندقية وكيس بارود، بواريد سلبها بذكائه من قافلة السلطان ذات يوم، الآن فقط وجب عليه أن يُظهرها للحفاظ على ملكه، كان يُتابع عمل الدرك بقيادة رشوان الذي ما إن انتهى حتى استدار إلى سيده وأومأ له برأسه، وجيء بفرس الحكمدار الجامحة إلى عتبة بيته، امتطاها وجعلها تدور حول نفسها دورة كاملة قبل أن يتقدم إلى صفوف جنوده الأوفياء، جال بينهم يتأمل أعينهم ولا يقطع السكون إلا وقع حوافر الفرس المزهوة بنفسها، وما إن استقر أمامهم حتى قال بصوت جَهْوري:

- من أنتم؟

صاحوا جميعًا في صوت واحد زلزل الكَفر:

- رجال الحكمدار.

ابتسم وانتفخت أوداجه ثم لكز الفرس التي استدارت وبدأت في السير نحو القنطرة، من خلفه سار جيشه المكون من ثلاثمائة رجل، ثلثهم اتخذوا مواقع على أسوار بيت الحكمدارية وبداية القنطرة وتبعه الثلثان، مشهد مهيب والفرس تتقدم الجند، رشوان كان يسير أمامهم متتبعًا خطة سيده، المشاعل تنعكس على سطح البحيرة، وتضيء القنطرة التي ترتفع مائلة إلى الحصن خمسة عشر مترًا، ومن نوافذ منازل القرية المنخفضة رأى معظم أهلها ذلك المشهد، وعقولهم تحدثهم بأن شيئًا ما سيحدث الليلة، شيء سيغير مجرى التاريخ على تلك البقعة من الأرض. فُتحت بوابة الحصن أمام شاهين وفرسه المتهادية بخطوات راقية تليق براكبها، عبَر البوابة من دون أن يبالي بذلك الجمود على وجوه جنود وفرسان الحصن، اتخذ طريقه إلى الساحة الكبرى التي ما إن وطأتها حوافر الفرس حتى انتفض راكبها بشدة، اهتز كيانه وهوى قلبه أرضًا بفعل ما رآه.

في الجانب الشمالي من الساحة الكبيرة والتي يظهر من خلفها الكَفر كاملًا نُصبت منصة، عليها كرسي خشبي كبير، تجلس عليه زوجته رقية، ترتدي ثوبًا أحمر قانيًا، ويُحكم حجاب رأسها الفضي تاجٌ صغير من الذهب المرصع

بجواهر ملونة. حسب أنه بداخل حُلم، من أين أتت زوجته بذلك التاج من الأساس؟ ولماذا هي هنا في هذا الوقت؟ ولكن الفرس صهلت وضربت الأرض بحافر إحدى ساقيها الأماميتين، أيقظته من ذهول كاد أن يسلب عقله وهو يحدق في ذلك المشهد الغريب: سعد يقف أسفل المنصة أمامها عاقدًا يديه خلف ظهره، مرتديًا درعه الجلدي الخفيف، وخلفها كانت الصهباء وأمينة وسميرة! حث مطيته للتقدم قليلًا وبصوتٍ حمل الكثير من الاستنكار سأل بصوته الرخيم وبنبرة مرتفعة:

- ما الذي يحدث هنا؟ أي هراء هذا الذي أراه؟

لم يُجِبه أحد. جال في الوجوه ببصره والفرس تلوك اللجام النحاسي، رفع يده مشيرًا إلى زوجته عاقدًا حاجبيه محدثها بصوت هادر:

- ما الذي تفعلينه هنا يا امرأة؟

هنا تدخل سعد، مال بجذعه إلى الأمام قليلًا وقال بحزم:

- تحدث بأدب في حضرة الحكمدارة رقية.

لحظة صمت أعقبتها ضحكة مجلجلة من شاهين، لم تدُم طويلًا أمام الوجوه الجامدة، توقف وعاد السكون ليحل بساحة الحصن قبل أن ينطق:

- حكمدارة؟! أي لعبة تلعبون، أتدرون جميعًا ما جزاء الخيانة؟

أجابته هي بصرامة ولم تتبدل ملامحها الجامدة:

- بل يجب عليك أن تُعلمنا ما جزاؤها؟! حتى يكون القصاص حقًّا كما تحكم أنت.

- من الجيد أنك تعرفين أني الحاكم هنا.

هزت رأسها نفيًا:

- أنت خائن يا شاهين.

- أجننتِ يا رقية؟

- من يخون ميثاق شرف بينه وبين أقرب الناس يخون الجميع من أجل طموحاته وما يشتهي.

نقل بصره إلى سميرة ورمقها بنظرة تحمل الكثير، لم يظن أنه سيكون يومًا في هذا الموقف، لا يدري ما عليه قوله، زوجته الجميلة التي طالما لبى لها كل رغباتها وطلباتها تحاكمه أمام من هم أدنى منه مرتبة، أمور عدة مرت برأسه قبل أن يتدارك الأمر ويذبح الصمت محدثًا رشوان:

- رشوان، اقبض على هؤلاء الخونة جميعًا.

انفرجت شفتا حارسه ليكشف عن أسنانه البيضاء اللامعة، ثم تحرك متجاوزًا الفرس إلى حيث يقف سعد، حاول شاهين استيعاب ما حدث للتوّ ولكن لسانه عجز عن النطق، حارسه المخلص يتخلى عنه ويتخذ صف أعدائه، كان لرشوان عقل على عكس ما كان يعتقد هو، واختار الرجل مكانه منذ زمن، إلى جانب سيدته رقية، كل هؤلاء صنعهم على عينه لنفسه ليكونوا خدمًا مخلصين، كانوا حجر أساس إمبراطوريته التي تداعت الآن أمام عينيه بانقلابٍ تقوده امرأة، ولكنْ مهلًا، ما زال لديه رجال البادية وبنادقه التي غنمها من السلطان، استدار إليهم صائحًا:

- أطلقوا النار على هؤلاء الخونة.

ولم يتحرك أحد، الفرس هاجت وراحت تصهل وتدور حول نفسها متوترة بقلق راكبها، لوهلة ظن أنها ستخونه هي الأخرى وتلقي به أرضًا، ولكنه شهر سيفه وصاح:

- تحركوا! أنا الحكمدار شاهين بن عز الدين آمركم.

فقط أعين جامدة باردة، ورياح تتلاعب بالرايات فوق أبراج الحصن، علم أنه خسر معركته لحظة أن نادى رشوان في الجند:

- الطاعة واجبة للحكمدارة رقية عز نصرها.

وقال الجند في صوت واحد رددته جدران الحصن:

- آمين.

وشهرت البنادق في وجه شاهين، ومن خلفه صوت سعد الشامت:

- لا داعي للمقاومة يا سيد شاهين، كل شيء انتهى وأنت الآن أسير لدى الحكمدارة التي ستبت في أمرك لاحقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غرفة فراش أرضيتها الصلبة من القش، رائحة العطن وبول البهائم يعبقان المكان، مظلمة كمقبرة لم تُفتح منذ بني هذا المكان، صار محبسه حظيرة الخيل المجاورة لحظيرة الكلاب، الحكمدار أمسى سجينًا لا يفصل بينه وبين الذئب سوى جدار. لا يدري لمَ عادوا به إلى بيت الحكمدارية ولم يسجنوه بالحصن. كانوا يذلونه بالمشي على القنطرة مكبلًا بالأصفاد والجنازير، أرغمته رقية على الترجل عن الفرس التي أحب، كذلك فعلت مع كل شيء بناه فحصدته هي، تلك المقيتة سوداء القلب. ظل يحوم ويجول بين جدران الزنزانة الأربعة، وغصة تملكت من ذلك الجزء بمنتصف صدره، شعر بالضيق والمشهد يعاد مرارًا أمام عينيه، يتذكر نظرة سميرة جيدًا ولكنه لا يعرف إن كانت حزينة أم شاركتهم الأمر، لم يتوقع أنه حين يولي وجهه لتنفيذ

مخططاته ستكون رقية الطعنة في ظهره، تلك التي أحبها يومًا وحاول إنقاذ والدها وتسديد ديونه، التي انتشلها من فقر يحدق بعائلتها النبيلة، نعم، شغف بالجارية ولكنْ مهلًا، لعلها بالفعل كانت معها منذ البداية، اللعنة يا رقية، خططتِ لكل هذا؟! منذ متى وأنتِ تفعلين؟ إنها تمسك الآن بزمام الأمور وتحت يدها ذلك البرغوث المتسلق سعد، ليته عجل بقتله وإلقاء جسده بالبحيرة أمام الجميع.

استلقى على الأرضية الجافة، ولم يكُن هناك داعٍ لإغلاق جفنيه، الظلام يحيطه وبين حين وآخر كانت الذكرى تداهمه، وتذكر أين رأى صاحب الذئب؛ ذلك الضخم السجين بالقلعة يشبه أحد جنده الذين أتى بهم رشوان حين بدأ الأمر، اسمه الأبيض أو بياض ربما، نعم هو كان رفيق سعد وذلك المغني الغجري سلّام. اعتدل جالسًا وضرب الحائط بقبضته، أوجعته ولكن سرعان ما تلاشى الألم أمام الدهشة، خربشات بالحائط المجاور له حيث يقبع الذئب. ضرب الحائط ببطن يده مرتين وانتظر حتى رد عليه الذئب بحك مخالبه بالحائط، لن يخرق هذا الجدار ولن ينفذ هو إليه، جلس وأسند ظهره إليه وقال بصوت عميق محدثًا جاره في الحبس:

- لست أحسن حالًا منك يا صاح، لا أعلم إن كنت تعرف من أنا أم أنك تظن أن جارك البائس هو صاحبك الذي سيقتلونه قريبًا، نعم، سيفعلون هذا به وبك وبي أيضًا، انتهى دورنا في تلك الحياة، لا أبث في نفسك اليأس، لا تقلق، فكلنا سنموت ذات يوم ولكني أظنه صار قريبًا للغاية، صرنا بحاجة إلى معجزة لنخرج من هنا، وحتى ذلك الحين دعنا نتسامر، أو على الأقل أفضي إليك بقليل مما يُعمر صدري، لا تخَف لسنا متشابهين، وأعتقد أن لديك قطيعًا كبيرًا، أنت جزء من شيء أكبر، هذا يبدو عليك يا ذا الفراء الذهبية، ولكني أنا شاهين بن عز الدين وحيد، تمامًا.

صمت لبرهة لم يسمع فيها إلا صوت أنفاسه ثم أكمل حديثه:

- ذات يوم كانت لي قصة رجوت لها تمام النوال، وبلوغ الغاية وسمو المقصد وشرف الوسم، أن أعيد المجد إلى تلال الشمس إرث عائلتي وأرض أجدادي المغتصبة من بني الأزرق، ولكنني ولسبب ما لم أتمكن من الحفاظ على ما في يدي، انفلت زمام أمري وشعرت أن تدبيري ينساب من بين أصابعي كحبات رمل الصحراء التي أتيت أنت منها، يبدو أننا بني آدم لا نتوافق ورغباتنا مع تصاريف القدر. أتعرف؟ أحببتها وسعيت وبذلت لأجلها، كنت سندًا لها على الدوام، منحتها كل شيء يجعلها تبتسم، وأبعدت كل ما يحاول تنغيص مزاجها، لعلها تقول الآن إني كاذب وإني لو أحببتها لرضيت واكتفيت بها عن تلك السمراء، أظن أن تلك الأخيرة كاذبة فيما يخص حملها بابني، الذي لم تنجبه رقية، لم أطِق يومًا رؤيتها حزينة، زهدها ونفورها مني

لم يكَن لهما سبب، هكذا حسبت. والآن وقد أمسيت ذليلًا وحيدًا، أشكو بثي وحزني إليك، لا أود التفكير فيما يحدث هناك في الحصن.

صمت أطبق على المكان بوجوم مربك على الظلام الدامس، استسلم حين اجتمعت عليه أحزانه وأسكتته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف سعد أمام المرآة جامدًا، يُحدق في نفسه وهيئته التي صار عليها، الأيام بدلته تمامًا، لم يستطِع نسيان كل تلك الذكريات من مدينة البوغاز وسجنها، دارت الدنيا وأصبح المسجون سَجانًا، والصعلوك قائمقام يخشاه الجميع، في الليلة الماضية جاءته رقية بمنحة عظيمة، ساعدها في عزل الحكمدار مقابل أن تمنحه حق السيادة على الكَفر والتصرف في الأسرى والغنائم كما يشاء، أنقذته من الموت، وكل ما كان يشغلها هو الانتقام من زوجها شاهين، أما هو فكان طوال الليل يُقنع «روزاليندا» بأن غيرتها من السيدة رقية غير مبررة، وعدها أنها ستبقى معه إن أحسنت التصرف وتوقفت عن تلك الغيرة العمياء، رضخت الصهباء أمام وابل قبلاته النهمة، وها هي مستلقية عارية بالفراش، تغط في نوم عميق، تأمل انعكاس جسدها في المرآة، ارتدى درعه على مهل وهو يُفكر في القادم، سيذهب إلى المدينة الزرقاء مستقر حكم السلطان غازي بن الأزرق، سيأخذ معه كل الأسرى وأثمن الغنائم، ربما عليه أن يُقدم رأس الذئب على طبق عامر بالمجوهرات. لقد حان الوقت ليحظى بمكانة أعلى وقدر أرفع من أن يكون قائمقام في تلك الأنحاء النائية من البلاد، سيترك رقية وكَفرها والأجواء الكئيبة إلى حيث العز والجاه. ثبت خاتمًا ذهبيًّا بسبابته ومرة أخرى عاد للنظر في المرآة، قبل الرحيل عن المكان ستكون عليه مواجهة آخر مخاوفه، والتخلص منها.

خشخشت المفاتيح وانزاح المزلاج عن باب زنزانة بياض، نهض واقفًا مستعدًّا ومنتظرًا القادم إليه، غشي ضوء النهار المكان وظِل سعد يسبقه إلى المكان، دلف ولم يُغلق الباب، وقف الاثنان قبالة بعضهما بعضًا، ودام الصمت طويلًا ولكنْ دار بين الأعين حوار طويل ما لبث أن صار كلمات على لسان سعد:

- كم غريبة هي تصاريف الأقدار. بياض القرش صار واحدًا من المتمردين أصحاب الذئاب، لكم أثارني بالفعل وجودك هنا مع هذا الوحش الضخم، ولا أعلم في الحقيقة كيف روضته، ولكن ما أثار دهشتي حقًّا هو عودتك للحياة.

- كنت تحسب أني مت، عندما غدرت بي في الصحراء؟!

- بياض، لا تأخذ الأمور على هذا المحمل، كان على أحدنا أن ينجو، وأنت كنت مصابًا واهنًا متعبًا لا تقوى على الحراك، فعلت ما فعلت لأريحك من العذاب.

- عجيب أمرك يا سعد، طعنت الشخص الوحيد على الأرض الذي كان سندًا وجدارًا لك أمام المتاعب والأخطار، والآن تقول إنك أردت راحتي؟ أي راحة يا هذا وجرح ساقي ما زال يُذكرني بخيانتك؟!

اقترب سعد خطوة للأمام:

- لم أستطِع أن أغمده في صدرك وكان بإمكاني أن أفعل هذا.

- بل لم تفعل لأنك أردت الهرب وتركي حيًّا للذئاب، أردت أن تحصل على فرصة للهرب بينما تمزقني الأنياب حيًّا، قلت لنفسك سينشغلون به حالما أقطع مسافة بعيدة عنهم، أليس هذا ما فكرت به؟ إن الذئاب لا تهتم بالميتة بل تريد صيدًا طازجًا.

- آه يا بياض، من أين أتيت بكل هذا الحقد والغل عليَّ؟ يبدو أن عصبة الذئاب بدلت قناعاتك. هل جئت هنا لتقتلني أيها الضخم؟ هل الانتقام هو ما يحركك الآن؟

- لو كان الانتقام يحركني، لكنت أنت في عداد الأموات الآن، وما يفصلني عنك شيء إلا أن أمسك بعنقك وأدق رأسك بالحائط.

- كما فعلت مع الرجل بالسجن؟ هذا هو طبعك وغريزتك. أنت قاتل يا بياض. أنت وحش ولطالما رآك الناس هكذا، أتريد الحقيقة؟ حسنًا، لقد سئمت من كوني ظلًّا لك، كرهت أن يتعلق بأذهان الناس أنني برغوث القرش، أنت الضخم المهيب وأنا الضئيل الذي لا حول له ولا قوة. لقد قبعت في السجن بضع سنين بسبب قتلك لذلك الرجل الذي لا أذكر ملامحه.

- أنقذتك مرارًا من الموت والاغتصاب يا سعد، منحتك أمانًا في عالم متوحش ومنحتني الغدر حين أردت أنت النجاة بنفسك، ولكني لم آتِ إلى هنا لقتلك.

- لماذا جئت إذن؟

- جئت بالسلام.

ضحك سعد وسحب كرسيًّا قريبًا وجلس متطلعًا إلى بياض الواقف أمامه:

- عن أي سلام تتحدث؟ هل تصدق نفسك؟

- معنا أسرى.

- عندي الكثير منهم وأنت أحدهم، هل تظن أنني يشغلني أمر قادة السلطان؟ أو أيًّا كان من لديك منهم؟ أنت واهم يا قرش.

- الحكمدار سيهتم.

ابتسم سعد بخبث:

- الحكمدار الجديد حكم عليك بالموت شنقًا، وسيقطع رأس ذئبك بنهاية اليوم، ستبقى معلقًا متدليًا من الحصن ليشاهدك أهل الكَفر وزواره، أما أنا فسأرحل عن هذا المكان لأحظى بمكانة أعلى وأرقى، للأسف يا بياض، للعيش على هذه الأرض عليك أن تفوز دومًا.

- لا أحد يفوز للأبد.

- سأفعل أنا وسيسطر التاريخ اسمي، الناس يتحدثون بالفعل عن شجاعتي في مواجهة الذئاب.

- هل تظن أن كذبك سيدوم يا سعد؟ يبدو أنك لا تفهم معنى الحياة.

- حسنًا، صرت فيلسوفًا من أهل الكلام يا بياض، حدثني عن معنى الحياة إذن يا قرش البوغاز.

- الحياة عادلة بما فيه الكفاية، وكل دَين واجب السداد مهما طال العمر.

- اسمع يا صاح.

- لست بصاحبك.

غمغم سعد متهكمًا:

- حسنًا يا ذئب، أعرض عليك حياة جديدة، سأخرجك من هنا، وسأمنحك الكثير من الذهب والفضة على شرط الذهاب إلى أي مكان في المعمورة بعيدًا عن طريقي.

ضحك بياض بعفويته المعتادة:

- هل تخاف أن أفضح أمرك بعد أن عاملتني كنكرة كأنك لا تعرفني؟ هل تخشى أن يعرف الجميع بما فعلته بصاحب عمرك؟

نهض سعد وأزاح الكرسي بعيدًا وتطلع في وجه بياض بتحدٍّ:

- هل تظن أنك تخيفني بهذا الهراء؟ أنت واهم يا بياض، بالإضافة إلى أنك غبي، أترفض فرصة للحياة؟

- أنت لا تفهم، الأمر لا يتعلق بي.

- بمن إذن؟

- بالأسرى، بالأميرتين «كونوَا» و«سيرين»، عليك الإفراج عن جميعهم.

- مقابل ماذا؟

- اقتلني إن أردت.

- تدفع حياتك مقابل حياة برابرة متوحشين؟

بنبرة حزينة خافتة نطق بياض:

- كذلك فعلت معك ذات يوم.

- بنهاية النهار ستكون جسدًا مُعلقًا خاويًا من الحياة.

ألقى سعد جملته واستدار تاركًا بياض وحيدًا، وباب الزنزانة يُغلق ليعود الظلام، لم يكُن بياض يتوقع حدوث هذا، ظن بسذاجته أن سعد سيرضخ حالما يعلم أنه قد عفا عنه، ولكن البرغوث المغرور لم يكُن كما توقع بياض، وإن كان حدث منه الأسوأ من قبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انقشع ضباب الصبيحة رويدًا، كاشفًا عن شمس الشتاء الباهتة، والتي فشلت في بعث الدفء بنفوس وأوصال الفلاحين الذاهبين إلى حقولهم، وجوه عابسة يعلوها الكسل وشيء من برد يسيطر على أجسادهم. ليلة هادئة نَعم بها الكفر، لم يعوِ الذئب ولم يذُق فيها برهان طعم النوم، انتظر طوال الليل ليسمع نداء خليله ولكنه لم ينادِ، احتار في أمر ما رآه بالأمس، ذهاب الحكمدار إلى الحصن مع جيشه الصغير، ونزوله من دون جواده، على الرغم من أن الوقت مبكر فإن الجند ينتشرون في كل مكان، وبيت الحكمدار القابع على شاطئ البحيرة كأنه يناديه، لا يعرف سبيلًا للدخول هناك ولكن عليه فعل ذلك مهما كلفه الأمر. بدأت الأقدام تدب بطرقات وأزقة السوق الكبيرة، لا بضاعة لديه ليبيعها ووجوده هكذا قد يُثير الشكوك، كان متوجسًا من كل فعل وكل نظرة، يحاول قراءة الوجوه وحركات شفاه الدرك وكل ذي مقام، ظل على هذه الحالة حتى سمع دقات طبلة متتابعة، وشخصًا ذا صوت جَهْوري يقول شيئًا ما، أزاح الدرويش الناس عن طريقه متجهًا إلى حيث تشرئب الأعناق، وصوت المنادي الممتطي بغلة شهباء يقول بعد ثلاث دقات على طبلته:

- يا أهالي الكفر الكرام، انقضى الأمر وصدر حُكم مولانا الحكمدار، سَيُعدم في ظهيرة اليوم ذلك الجبار المدعو الذئب وجروه الجربان.

كلماته الرتيبة ذات القافية المملة كانت كافية ليصم برهان أذنيه، خفق قلبه وكاد أن يهوي جسده أرضًا، شعر أن قدميه لن تقويا على حمله، تَعرق والرجل يتبع جمله الباردة بضرب طبلته، بإيقاعٍ زاد من تدفق الدماء بعروق الدرويش، لم يكُن يعلم ما عليه فعله حتى رآها، تمر إلى السوق وخلفها جنديان من الدرك: أمينة؛ خادمة زوجة الحكمدار.

في تلك الأثناء كانت رقية تهبط درج بيتها بشموخٍ يليق بحكمدارة كَفر البردقوش، ترفل في ثوب بلون نبيذ عنب غامق مُعتقٍ، وضفيرة ثقيلة تدلت خارج حجابها الفضفاض منسدلة على كتفها اليمنى، ويعلو رأسها التاج البسيط من زهور البردقوش المرصعة قلوبها بالزبرجد والياقوت الأحمر، أعجبها قبل أن تراه، كيف لا وهي من رسمت شكله وأرسلت به إلى صناع البوغاز سرًّا، عمل متقن ودفع ثمنه شاهين زوجها من دون أن يدري، وبينما كان الجميع يظنون أنها تنتقم من زوجها الخائن، كانت ترسم خريطة مُلكها الجديد في رأسها، ستقوم بما فشل شاهين فيه، ستحكم البر الجنوبي كله من كَفر البردقوش، ستكون سلطانة ولديها ما يكفي من الجنود والنساء لحكمهم.

ما إن وضعت قدمها على أرضية البهو حتى انحنى رشوان وكذلك فعل الرجال، وجواريها المنتشرات بالمكان، رمقتهن بطرف عينها وهي ماضية إلى كرسي الحكمدارية، كئيب ككل من جلسوا عليه يومًا. استدارت وأطالت النظر بجذوع الخدم والجند المحنية، وارتطمت عيناها بعينَي سميرة المتلصصتين، تفقدتهم ولا أثر لخادمتها أمينة، نادت:

- استقيموا.

ففعلوا، فنادت رشوان:

- احملوا ذلك الكرسي واجلبوا غيره ليليق بعصر جديد.

في الحال نُفذ الأمر على عجل، ولكنها لم تنتظر أن ترى الجديد يستقر، خرجت يتبعها الدويدار، وفي الطريق إلى الحظيرة سألته:

- أين أمينة؟

لم تكُن لديه إجابة واكتفى بسماع كلماتها حول ضرورة أن يُراقب الجميع، عليه أن يحرص على ذلك، فتح جنديًّا الحراسة الباب ودلفت يتبعها رشوان فأوقفته بإشارة من يدها، غمغم الرجل:

- سيدتي، المكان خطر وأخشى أن يصيبك مكروه.

- سأدخل وحدي.

خفض رأسه ووقف قبالة الباب، كانت تريد رؤيته داخل محبسه، مرت أمام بابٍ فَصل حديده بينها وبين وجه شاهين، لم تُبالِ به واتجهت وكأنها لم ترَه، الرائحة العفنة تزكم أنفاسها ولكنها تَحملت ووقفت أمام زنزانة الذئب، المرة الأولى التي تكون فيها قريبة منه حتى هذه الدرجة، كان ثائرًا يدور ويَشب على الجدار ويصدر صوتًا غريبًا كزمجرة جرو فقد ضرع أمه، يقترب من الباب ويخدشه، هل جُن جنونه في ذلك الحبس؟! لم تجد تفسيرًا لما

يفعله وعلى الرغم من ذلك الوجل بقلبها، ظلت صامدة في مكانها، ذلك الذي أرَّق لياليها صار حبيسًا داخل حظيرة نتنة الرائحة، مجرد حيوان سخيف سيُذبح اليوم بعد إعدام صاحبه. انتشلها صوت شاهين البارد الرخيم من بحيرة أفكارها:

- بديع، أليس كذلك؟

لم تُجِبه ولم تحرك ساكنًا نحوه، فتابع بنبرة متهكمة:

- في القريب ستأتي بقية قطيعه، وربما أكون في مأمن حين تنهش الأنياب أمعاءك وتقطعك ببراثنها، سأرى أشلاءك ممزقة بينما يخرجونني من هنا.

- حلم يقظة ستفيق منه اليوم يا شاهين، استثمر وقتك الباقي في مراجعة ضميرك والتخلص من ذنوبك وآثامك.

ضحك متهكمًا:

- إذن ستعدمينني الليلة؟

استدارت وواجهت عينيه من خلف القضبان:

- أنت ميت بالفعل يا زوجي العزيز.

ألقت جملتها واتجهت نحو الباب يُلاحقها صوته:

- من يذهب للجحيم أولًا ينتظر الآخر أيتها البغيضة.

أُغلق الباب بقوة خلفها لتهيمن الظلال من جديد، تأكدت من ربط الحراس لمقبضي الباب بالجنازير وهي تحدث رشوان:

- أذيعوا بين الناس أن الحكمدار شاهين بن عز الدين مات.

- كيف؟

- أكله الذئب.

داخل الحظيرة وفي أحد أركانها المظلمة انبثق وجه أمينة الباكية المرتجفة من الظلام، عنقها مُحاط بساعد غليظ، ومن فوق كتفها ثُبتت فوهة بُندقية تواجه وجه شاهين الواقف خلف الباب. الذئب يخدش الباب ويرجه وزمجرته لا تتوقف، شَب بقدميه مستندًا على الباب وراح ينظر إلى حيث تقف تلك المرأة، ومن خلفها صاحبه الدرويش أبو الدهب برهان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مالت الشمس قليلًا بسماء الكَفر متخذة درب الرحيل، الأجواء رطبة وتيار هواء بارد حرك الريش بصدر صقرٍ يبني عشًّا له بجدار البرج، اختار مكانه في علو شاهِق يسمح له برؤية كامل البلدة، فَرد جناحيه وخفق بهما مفلتًا

الصخر وتاركًا نفسه للريح، حملته وانساب معها، راح يرتفع باسطًا جناحيه مطلقًا غقغقة مجلجلة، سمعها الجند ورفع أحدهم رأسه باحثًا في السماء، بينما تُفتح أبواب الزنازين، ويُخرَج الأسرى مساقين زمرًا، مكبلين بحبال من خيش خشن وجنازير، يتساءلون بنظرات واجمة عن مصيرهم ومستقرهم، دفع بهم الحرس إلى أحد جوانب ساحة الحصن، جعلوهم يتراصون ملتصقين بالجدار، وبين الأجساد المكدسة كانت «كونوَا» تتفحص كل التفاصيل، الأبراج والرايات واتجاه الريح حتى ذلك الجارح المحلق بالأعلى، و«سيرين» إلى جوارها تحاول بث الطمأنينة في قلبٍ صغيرٍ فقد أمه وأباه رُبط على مسافة منها. الهواء يتلاعب برايات كَفر البردقوش وبوابة الحصن تُفتح على مصراعيها لتدخل السيدة، على فرس مهقاء كانت مِلك شاهين، الذي أذيع خبر موته غدرًا، جاءت لترى نهاية قاتله ذلك المدعو الذئب، هكذا أقنعها سعد ورشوان، لتُثبِّت حكمها وجب على القاتل أن يأخذ جزاءه. ركعت الفرس على قائمتيها الأماميتين لتُنزل صاحبة الطلة الجامدة، ارتقت درج المنصة إلى كرسيها الكبير، ملكة متوجة هي رقية ومن تحت حصنها تترقرق مياه البحيرة الجاثمة على حوافها بيوت ومزارع الكَفر، كُل الأراضي الممتدة أمام بصرها صارت ملكًا لها، الرياح حملت شيئًا من نسيم عطر بارد، وعند باب خشبي متين اجتمع حوله عدد كثيف من الجند، حبل المشنقة يُعلق على العارضة المواجهة للكفر، والباب يُفتح بصريرٍ جعل الجند يوجهون أسنة رماحهم نحو الظلام القابع بداخله، ثم دلف أربعة وخرجوا يتقدمهم بياض، مكبل اليدين بأغلال حديدية، يسير على مهل بمهابة وعلو، وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة لرؤية «كونوَا» التي اغرورقت عيناها لطلته.

رافق الصمت حذرٌ لم يتخلَّ عنه الجند وهم يحيطونه من كل جانب، خطوات قليلة وتوقفوا جميعًا آمرين الضخم بالمثول أمام المنصة، لحظات وجوم جثمت على فناء الحصن الشاسع، وعلى عتبة درج مبنى القائمقام برز سعد ومن خلفه امرأته الصهباء، وقف يتأمل الساحة بكل ما فيها واستنشق دفعة من هواء بارد لطَّف ما يجيش به صدره، نزل عن السلم بخطوات تملأها العزة والكِبر، بحذاء جلدي طويل ودرع فضي من صفائح منقوشة ملضومة بزرد، درع يليق بسيد الحرب وبطل كَفر البردقوش، بعد إعدام بياض ستنصبه رقية حامي البر الجنوبي وفارس سلطنة بني الأزرق، وبعد أن تنفضَّ الجلبة هنا سيرحل إلى حيث العاصمة وقصر السلطان ليحظى بالمزيد من النعيم، كل هذا جال برأسه بينما يمر بين صفين من رجاله صاعدًا إلى حيث تجلس الحكمدارة رقية، ومن خلفها حاشيتها وعلى رأسهم رشوان الذي لم تعُد نظراته تروق لسعد، جواريها الحسان بينهن غانية الحكمدار، سميرة، وجه شاحب وعينان زائغتان، يستطيع تمييز الخوف، يعرفه جيدًا وحاربه كثيرًا، علمه الزمن أن أصعب المعارك هي تلك التي نختارها، وأنبلها هي تلك التي نخوضها لأجل أنفسنا، لا من أجل أحد، وقف أمام رقية وحياها بإيماءة

من رأسه، فبادلته بمثلها، تقدم الدويدار رشوان وقال بصوته الأجش محدثًا بياض القرش:

- في حضرة جلالة الحكمدارة رقية ابنة الأكرم سعيد البندقداري، يقف المذنب القاتل المعروف بين الناس بالذئب، ليحصل على جزاء ما اقترفت يداه، ذلك الغادر الذي قتل حكمدارنا شاهين بن عز الدين الذي مد يد الرحمة له من قبل، أطلق ذلك الوحش حيوانه، ومات بطلنا وهو يدافع عن زوجته التي كانت في المكان الخاطئ.

كانت خطبة رشوان لتبدو مؤثرة ربما لو أن كل الحضور لا يعلمون ما حدث، ابتسم بعض الجند وكذلك سعد الذي ظل مبتسمًا يكتم ضحكه من إتقان رشوان للكذب وخلق قصة لم تحدث، نهض عن كرسيه مقاطعًا إياه بفظاظة موجهًا حديثه لرجاله:

- علقوه بالحبل وأنهوا الأمر.

أحدث سعد جلبة بهذه الحركة وتلك الكلمات، جذب الانتباه ولكن الجند نفذوا أمره، سحبوا بياض من ذراعيه ولكن قدميه ثبتتا في الأرض، خشيه الجند وتبادلوا النظرات، والضخم يقول:

- هل هذا هو العدل عندكم؟ أن يُساق الناس إلى الموت من دون أن يُدلوا بكلمات أخيرة على الأقل.

أشار سعد للجند فأمسكوا ببياض ليسحبوه، فأوقفتهم رقية صائحة بهم:

- توقفوا. دعوه يتحدث.

ارتبكت الأيادي الممسكة به ولم تفلته، انتظروا قرار سعد الذي ظل ينظر إلى وجه بياض بمقتٍ ثم أشار لهم بتنفيذ أمر الحكمدارة التي تابعت:

- هيَّا، قُل ما شئت.

تقدم بياض خطوة واحدة واستوقفه أحد الحراس واضعًا سن الرمح على صدره، ابتسم ودارت عيناه في الوجوه قبل أن تستقر نظراته على رقية، قائلًا:

- لو كنت أنا من تريدون رأسه، لكنت أسير الآن بكل ثقة غير نادم على أي فعلٍ اقترفته، ولكنني لست ذلك الشخص الذي تظنون، أنا أدعى بياض القرش من مدينة البوغاز، وكنت ضمن درك الحكمدار شاهين ذات يوم، شاركت في بناء ذلك الصرح العظيم، وأنا بريء تمامًا مما اتهمتموني به، يعرفني الدويدار رشوان وكذلك سعد، وللمفارقة فإن هذا الأخير هو السبب في أن الشخص الوحيد الذي قتلته كان دفاعًا عنه.

لم تُعلق رقية ولم تنظر تجاه سعد الذي كان يتفحص ملامحها الجامدة وإن بدا على شفتيها شبح ابتسامة، كذلك رشوان كان يتعرق ويده تعتصر مقبض سيفه وبياض القرش يتابع:

- جئت إلى هنا لعرض سلام ومحاولة تبادل الأسرى، لا أريد المزيد من الدماء ولا سبيل عندي لإزهاق أرواح المزيد من الأبرياء. لم يقتل الذئب أي شخص من قافلة السلطان ولم يفتك بفرقة الصيد التي كنت أنا أحد أفرادها.

قاطعته رقية:

- تقول إنك كنت من درك الحكمدار؟

- هذا قبل أن يُغدر بي، وأُترك للموت.

- ومن فعل هذا بك؟

- ذلك الشخص الواقف أمامك، هو من قتل الأبرياء وذبح وشرَّد أهل التل الدموي، هو من أحرق القرى الآمنة في غابة الظلال.

كانت ملامح سعد جامدة، و«روزا» الواقفة خلفه تعتصر كتفه بأصابعها، شعرت بكم الغضب في داخله، كان يجلس واضعًا ساقًا على أخرى، وذلك الضخم يقص على مسامع الجميع ما حدث هناك، طالب بإطلاق سراح الأسرى وخاصة أن هناك أميرتين، «الحرب لن تتوقف ما دام هؤلاء الناس بقبضتكم» هكذا ختم حديثه، فصفق سعد بحركة متهكمة، لم يُعجب رقية الأمر ورمته بنظرة حادة ثم قالت لبياض:

- لا أعلم هل عليَّ أن أصدقك أم أصدق مستشاري رشوان والقائمقام سعد؟! وضعتني في حيرة يا هذا، ولكن الأمر حُسِم، ذئبك التهم زوجي العزيز الليلة الماضية ولا أجد سبيلًا سوى تنفيذ حكم الإعدام.

- سيدتي، كنت بحاجة للعدل، والآن عَلمتُ أنه لا يسكن هذه الأنحاء.

- لم أكمل حديثي لتقول هذا، فلا تختبر صبري.

- إن كان هناك أحد يجب قتله الآن فهو ذلك الشخص الجالس بجوار عرشك.

قال كلمته الأخيرة مشيرًا إلى سعد، وبسط السكون رداءه فوق ساحة الحصن، تبادلت رقية النظرات مع القائمقام وتداركت الأمر قائلة:

- اسمع أيها الضخم، أنت لست في موضع للمساومة والحكم على رجالي. ما الذي يُثبت صدقك في كل تلك الحكاية؟ إن كانت لك رغبة أخيرة قبل الموت فلتخبرنا بها.

- يقولون إن السيف أصدق من أي كلمات، لذا أطلب أن يواجهني سعد في مبارزة أخيرة، رجلًا لرجل.

تبدلت قسمات المذكور، وانتقلت الأعين كلها إلى حيث يجلس، نهض بعصبية محدثًا بياض:

- هل جننت يا هذا؟

ردت رقية:

- هذه أمنية رجل ميت، لماذا ترفضها إن كنت واثقًا من الفوز يا قائمقام؟

كانت تتحداه أو هكذا بدا للجميع، أرادت اختبار صلابته أمام جنده وكل حاشيتها، لم تكُن سهلة كما توقع هو أو رشوان، كانت تدري ما تفعل، أشارت للجند قائلة:

- فكوا وثاقه وامنحوه السلاح الذي يريد، فقائمقامنا على وشك خوض معركة نصر أخيرة لنا.

وضعته في مأزق شديد الخطورة، سيواجه صاحبه القديم، بياض القرش العملاق الذي حُل وثاقه واختار من أحد الجند القريبين فأسًا كبيرة راح يُقلِّبها في يده مختبرًا إياها، وسعد ما زال واقفًا وعيناه لا تفارقان وجه رقية الباسم، هَمَّ بالنزول إلى الساحة فأمسكت «روزا» بيده، رمقها بغلظة وسحب يده قافزًا إلى حيث يقف بياض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مواجهة لم يتمنَّها سعد في أسوأ كوابيسه، التقت أعينهما بشرر، سحب البرغوث خنجريه الطويلين من غمديهما، والقرش العملاق قبضت أصابعه بقوة على يد الفأس الكبيرة، تراجع الجند إلى الجدران وحالة من الهَرج عمت صفوف الأسرى، قلب «كونوَا» يَخفق بقوة ويكاد يخترق صدرها قافزًا، تخشى أن يصبح أملها الوحيد في طي الزمان، أن يموت بياض ولا يخبرها بما حدث لأهلها وأخيها «كتيمبي». «روزا» تبكي وسميرة غير مبالية بما يحدث، ورقية تنتظر أن يتبارز الرجلان، راهن عقلها على الضخم، ورشوان تمنى أن يقضي بعضهما على بعض، تباطأ المشهد والخصمان يركض كل منهما ناحية الآخر.

سعد خفيف الحركة مدرب على أيدي فرسان ومحاربين قدامى، كان قد جلبهم خصوصًا ليصنعوا منه مقاتلًا لا يشق له غبار، وقد كان. تمايل بخفة وراح يحاول تفادي ضربات بياض القرش المميتة، كان الضخم يريد إسقاط البرغوث فقط، حاول جاهدًا بكل السبل أن يعرقل سعد، ولكن هذا الأخير كان سريعًا خبيرًا بعشوائية صاحبه، وبين الهجمات المتتالية كان يكيل الركلات إلى ساق بياض، ولكنه فشل في مسعاه، ومع ذلك استمر في

محاولة إهدار طاقة بياض، كان يتحين الفرصة لطعنه ولكن العملاق كان ماهرًا أيضًا في صد هجمات سعد المتتالية، واستطاع القائمقام أخيرًا إصابة القرش بجرح في جنبه الأيسر، تناثرت الدماء على الأرضية الحجرية وهو يتجاوز مبارزه المصاب، نظر إلى رقية ودم بياض يقطر من طرف نصله، جرح بليغ لولا بنيانه الضخم لكان مميتًا، كانت فرصة مثالية لسعد أن يهجم بشراسة على خصمه المصاب، جُرح آخر فُتح بظهر بياض وسعد يدور حوله متأرجحًا في الهواء، حركاته البهلوانية كانت كإعصار من الركلات ترتطم بوجه وصدر الخصم الذي بدا كالجدار لا يسقط، أُنهك القرش وانسابت الدماء من جروحه بغزارة وبدا للجميع أن لا مناص من الهزيمة أمام سرعة ومهارة القائمقام.

ظلت الحال هكذا حتى خارت قوى بياض، إصابة خامسة بساعده جعلت الفأس تسقط من يديه، صار فرصة سهلة لسعد الذي لعق دماء خصمه بلسانه عن طرف نصل خنجره، وبدت النهاية وشيكة لبياض حين ركض سعد نحوه، تراجع متفاديًا الطعنات المتتالية بينما أصابته الركلات، جروحه تنزف والألم يفتك بكل خلاياه ثم أمسك بغتة بسعد، قبض على رقبته وحمله بكل ما أوتي من قوة وألقاه في الهواء. وأمام الأعين الذاهلة طار جسد القائمقام وسقط مرتطمًا بالأرض في عنف، من قسوة السقوط أفلت أحد خنجريه ليسقط بعيدًا، حاول النهوض ولكن جبلًا من لحم ودم جثم على صدره ممسكًا بيده الأخرى التي ما زالت تحمل الخنجر الآخر، وأمام وابل اللكمات من بياض أفلت سعد سلاحه الأخير، كان بياض غاضبًا، دب يفتك بفريسة ضئيلة؛ هكذا رأته رقية. غول ذو وجهٍ دامٍ يُعذب مَن أرَّق نومه ودنَّس عرينه، في تلك اللحظة أيقن الجميع أن سعد ميت لا محالة، انفجرت الدماء من أنفه وفمه، وطار أحد ضروسه من جراء لكمة عنيفة ضمن عدة أخريات، حالة هياج أصابت بياض القرش الذي كان يصيح:

- أخبرتك أني لا أريد المزيد من الدماء، ولكن نفسك الدنيئة أبت إلا أن يكون ذلك.

تركه بياض ملقى أرضًا كخرقة بالية ونهض بأنفاس متلاحقة، دار بعينيه في المكان متأملًا الوجوه، حتى استقر على وجه «كونوَا» وانحنى ملتقطًا فأسه، كان يعرج وجروحه تنزف بغزارة، أما سعد فانقلب على وجهه وراح يزحف باتجاه خنجره البعيد، ولكن بياض ثبَّته على الأرض واضعًا قدمه الكبيرة على ظهر البرغوث، لم يتوقع سعد أن تكون هذه نهايته، أن يموت بمهانة أمام رجاله وعلى مرأى ومسمع من تلك السيدة التي بنت له قصورًا من السراب، استسلم ولم يحاول الإفلات من تحت قدم الفيل الداهس على ظهره، أما بياض فرفع عينيه نحو الحكمدارة وحاشيتها، رأى في عينيها نظرة تقول: «نفِّذ أيها الرجل، هيَّا اقتله»، وناشدته عين «كونوَا» أن «افعل ذلك

وانتقم لـ«ساندو»»، ورفع بياض الفأس التي باركت الشمس نصلها بضيائها، وهوى بها نحو عنق البرغوث المثبت أرضًا.

انتظر الجميع أن يتدحرج رأس القائمقام بعيدًا عن جسده، ولكن دوي بوق حرب صدح في الأفق، توقف بياض قبل أن يُلامس النصل جلد غريمه الملقى أرضًا، وحين رفع بصره إلى مصدر الصوت، اعتدل واقفًا مستندًا على الفأس كعكاز يقيه من السقوط، كان منهكًا وعيناه ملئتا بالفرح وهو يصيح محدثًا سعد الذي ما زال تحت قدمه:

- أخبرتك من قبل أن الحياة عادلة بما فيه الكفاية، ستحصل على الموت يا سعد ولكن حين تُحاكم بعدل على ما اقترفت يداك بحق الناس، أما أنا فقد عفوت حتى لا تتلوث يدي بالدماء.

رفع رجله عن ظهر خصمه، وألقى بالفأس بعيدًا وعيناه تراقبان تلك الجحافل القادمة من الجنوب، جيش غابة الظلال تعلوه سحابة من غبار، انكمشت رقية في كرسيها وزاغت عينا رشوان، وهرولت «روزا» نحو سعد الصريع، وبياض يصيح لـ«كونوَا» والأسرى:

- جاء «كتيمبي»، جاء المدد من غابة الظلال.

كان يقف متأملًا كل تلك الأعداد الغفيرة التي راحت تقترب من حاجز النخيل، وكاد أن يقول شيئًا ولكن نصلًا حادًّا اخترق جانب ظهره الأيمن، شهق وجحظت عيناه ومن خلفه كان سعد ملتصقًا به هامسًا في أذنه:

- أخبرتك من قبل، عليك أن تقتلني حين تحين لك الفرصة. ولكنك غبي كما عهدتك.

وطعنه بالخنجر الآخر في جنبه الأيسر، انتفضت رقية واقفة وصرخت «كونوَا»، وبياض يَخر على ركبتيه أرضًا، ظل واقفًا عليهما لوهلة قبل أن يركل سعد ظهره دافعًا جسده ليسقط على وجهه مثيرًا سحابة من غبارٍ انقشعت عن وجه القائمقام المدمى، وفي عينيه الثاقبتين تنعكس صورةُ جحافل تزحف نحو الكَفر، وفي يديه خنجران يقطران دم بياض القرش.

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..
عن المؤلف..
إهداء
1- الحكمدار..
2- بياض القرش
3- صائدو الذئاب
4- البرغوث ملكًا
5- ما كان وما سيكون
6- وجار الذئب
7- أبو الدهب
8- جياد البرق
9- مملكة الرماد
10- سعد
11- برهان
12- أغنية أخيرة
13- رقية
14- الذئب